رسالة في قنوت الأشياء كلها لله تعالى



ظ ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وبه القوة

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيّدنا محمدٍ وآلِه أجمعين وسلّمَ تسليما .

﴿ فصـــل ﴾

فى قنوت الأشياء لله عز وجل ، وإسلامها ، وسجودها له ، وتسبيحها له .

القنوت فى القرآن

فإن هذه الأربعة قد ذكرها الله تعالى فى القرآن . قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة البقرة ١١٦ ، ١١٧] ، وقال تعالى فى سورة الروم : ﴿ وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الروم : ٢٦، ٢٧] .

الإسلام

وأما الإسلام فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] .

السجود

وأما السجود فقال تعالى : ﴿ وَلِلهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّأُ[1] ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ

(١) فى الأصل : (تتفيؤ) ، وهى قراءة أبى عمرو ، وبهذه القراءة جاءت فى سائر المواضع .

سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ ، ٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

التسبيح

وأما التسبيح فقال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٤٤] ،وقال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الصف : ١] ، [سورة الحشر : ١] في موضعين، و : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة الحديد : ١] ، و : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الجمعة : ١] ، [سورة التغابن : ١] في موضعين، فخمس سور افتتحت بذكر تسبيح ما في السموات وما في الأرض له ؛ وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦] فهو نظير قوله : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [سورة مريم : ٨٨ ـ ٩٥] . وقد قال تعالى : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يونس : ٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦-٢٩] .

* * *

ص ٢٠
القنوت فى اللغة

والقنوت فى اللغة / دوام الطاعة ، والمصلّى إذا طال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت فى ذلك كلّه ؛ قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، فجعله قانتا فى حال السجود والقيام .

وفى الحديث الصحيح : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصلاة أفضل ؟ فقال : طول القنوت»[1] . ولم يرد به طول القيام فقط ، بل طول القيام والركوع والسجود ، كما كانت صلاة النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت معتدلة إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ﴾ [سورة النحل: ١٢٠]، وقال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ ﴾ [سورة التحريم : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٥] ، وسمى إطالة القيام فى الصلاة قنوتاً لأنه يطيل فيه الطاعة ، ولو صلّى قاعداً لقنت وهو قاعد ، وكذلك إذا صلّى على جنب قنت وهو على جنب ، والقيام قبل الركوع يسمى أيضاً قنوتاً .

(١) هو حديث جابر رضى الله عنه فى : مسلم ٢/١٧٥ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أفضل الصلاة طول القنوت) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣ / ٣٠٢ ، ٣١٤ ، ٣٩١ ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ٢ / ١٧٨ - ١٧٩ (أبواب الصلاة ، باب ما جاء فى طول القيام فى الصلاة) ؛ النسائى (بشرح السيوطى) ٥/٥٨ (كتاب الزكاة ، باب جهد المقل) .

قال ابن قتيبة[1] : « لا أرى أصل القنوت إلا الطاعة ، لأن جميع الخلال: من الصلاة ، والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك يكون عنها[2] » .

وقال أبو الفرج[3] : « قال الزجاج[4] : القنوت هو فى اللغة بمعنيين : أحدهما القيام ، والثانى الطاعة . والمشهور فى اللغة والاستعمال أن القنوت الدعاء فى القيام ، فالقانت : القائمُ بأمر الله ، ويجوز أن يقع فى جميع الطاعات ، لأنه وإن لم يكن قياماً على الرجْلين فهو قيام بالنية » .

قلت : هذا ضعيف ، لا يُعرف فى اللغة أن مجرد القيام يسمى قنوتاً ، والرجل يقوم ماشياً وقائماً فى أمور ولا يُسمَّى قانتا ، وهو فى الصلاة يسمى قانتاً لكونه مطيعاً عابداً ، ولو قنت قاعداً ونائماً سُمِّيَ قانتاً . وقوله تعالى : ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٨] يدل على أنه ليس هو القيام ، وإنما هو صفة فى القيام يكون بها القائم قانتا ، وهذه الصفة تكون فى السجود أيضاً ، كما قال : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾ .

---

(١) فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » (تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر) ، ص ٣٥٠ . وهذه العبارة هى آخر كلامه الذى استغرق صفحة كاملة ، وقال هناك : « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ، لأن جميع هذه الخلال . . . الخ » .

(٢) عنها : فى الأصل فيها ، وفى الهامش كتبت كلمة « عنها » وعليها حرف (خ) أى فى نسخة أخرى . وأثبتها عن تأويل مشكل القرآن .

(٣) المقصود بأبى الفرج : عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، الإمام العلامة المتوفى سنة ٥٩٧ ، ومن كتبه « زاد المسير فى علم التفسير » (ومنه نسخة خطية) وتيسير البيان فى علم القرآن ، قال ابن رجب : مجلد ، وكتاب المغنى فى التفسير قال ابن رجب : أحد وثمانون جزءاً . انظر ترجمته ومصنفاته فى : وفيات الأعيان ٢/٣٢١-٣٢٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢/١١٨ ؛ الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١ / ٣٩٩ - ٤٣٣ ؛ الكامل لابن الأثير (ط. الحلبى) ١٠/٢٢٨ ، ١٢/٦٧ ؛ الأعلام للزركلى ٤/٨٩ - ٩٠ .

(٤) هو إبراهيم بن السرى بن سهل ، أبو اسحاق الزجاج ، النحوى اللغوى ، المتوفى سنة ٣١١ . ومن كتبه الهامة « معانى القرآن » ومنه نسخة خطية . انظر ترجمته ومصنفاته فى : وفيات الأعيان ١/٣١-٣٣ (وفيه : إبراهيم بن محمد) ؛ معجم الأدباء ١/١٣٠-١٥١ ؛ إنباه الرواة ١/١٥٩- ١٦٦ (وانظر فى التعليق مراجع أخرى فى ترجمته) ؛ الأعلام ١/٣٣ .

فقول القائل : إن المشهور فى اللغة أنه الدعاء فى القيام ، إنما أخذه من كون هذا المعنى شاع فى اصطلاح الفقهاء إذا تكلموا فى القنوت فى الصلاة ، وهذا عُرف خاص . ومع هذا فالفقهاء يذكرون القنوت سواء صلى قائما أو قاعدا أو مضطجعا ، لكن لما كان الفرض ليس يصحُّ أن يصلِّيَه إلا قائما ، وصلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، صار القنوت فى القيام أكثرَ وأشهرَ ، وإلا فلفظ « القنوت » فى القرآن واللغة ليس مشهوراً فى هذا المعنى ، بل ولا أُرِيدَ به هذا المعنى ، ولا هو أيضاً مشتركا ، بل اللفظ بمعنى الطاعة أو الطاعة الدائمة ، ولهذا يفسره المفسرون بذلك .

القنوت عند ابن تيمية هو الطاعة

ظ ٢٠

/ وقد رُوِى فى ذلك حديث مرفوع رواه ابن أبى حاتم من النسخة المصرية التى يروى منها الترمذى وغيره من حديث ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، أن درَّاجاً أبا السَّمح حدثه : عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل حرف فى القرآن يُذكر فيه القنوت فهو الطاعة »[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد فى مسنده ٣/٧٥ (ط . الحلبى) ونصه فيه : حدثنا عبد الله حدثنى أبى ثنا حسن (وهو ابن موسى الأشيب) حدثنا ابن لهيعة ثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

وروى الطبرى الحديث مرتين عن ابن لهيعة ، وسند الأولى إليه : حدثنا الربيع بن سليمان قال حدثنا أسد بن موسى قال حدثنا ابن لهيعة . وسند الثانية إليه : حدثنى المثنى ، قال حدثنا إسحاق ، قال حدثنا محمد بن حرب قال حدثنا ابن لهيعة .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه (تفسير الطبرى ٥/٢٣١ ، ط . المعارف) : « وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ : ٣٢٠ ، وقال : رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط . وفى إسناد أحمد وأبى يعلى ابن لهيعة وهو ضعيف » قال الشيخ أحمد شاكر : « وابن لهيعة ليس بضعيف كما قلنا فيما مضى : ٢٩٤١ » (انظر تفسير الطبرى ٣/٤٩٧) .

وفى تفسير ابن أبى طلحة[1] عن ابن عباس : ﴿ فَٱلصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ [سورة النساء : ٣٤] : « مطيعات » .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك وعطاء وقتادة والسُّدى مثل ذلك .

وروى عن مقاتل بن حيان قال : « مطيعات لله ولأزواجهن فى المعروف » .

وروى عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَٱلْقَانِتِينَ وَٱلْقَانِتَاتُ ﴾ قال : « يعنى المطيعين والمطيعات » .

قال : وروى عن قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم مثل ذلك . وروى بإسناده عن أبى العالية فى قوله : ﴿ يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ [سورة آل عمران : ٤٣] قال: اركدى لربك . وعن الأوزاعى قال : « ركدت فى محرابها قائمةً وراكعةً وساجدةً حتى نزل ماء الأصفر فى قدميها » .

وعن الحسن أنه سئل عن قوله : ﴿ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي ﴾ قال : « يقول : اعبدى لربك » .

وعن ليث عن مجاهد قال : « كانت تقوم حتى تتورم قدماها »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ ﴾ قال ابن أبى حاتم : « تقدم تفسير القانت فى غير موضع القانت الذى يطيع الله ورسوله » .

وروى عن أحمد بن سنان ، عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن سفيان ، عن فراس ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : « القانت الذى يطيع الله ورسوله » .

---

(١) هو على بن أبى طلحة . قال ابن سعد (الطبقات ٧ / ٤٥٨) : « روى التفسير عن ابن عباس ، رواه عنه معاوية بن صالح » . وانظر الجرح والتعديل ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٩١ . وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر تفسير الطبرى ٢ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

(٢) انظر تفسير الطبرى (ط . المعارف) ٦/٤٠١ ـ ٤٠٣ .

فهذا تفسير السلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لألفاظ القنوت في القرآن[١] .

﴿ فصـــل ﴾

وكذلك فسّروا القنوت في قوله : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [سورة البقرة : ١١٦] ، لـكن تنوّع كلامُهم في طاعة المخلوقات كلها لما رأوا أن من الجن والإنس من يعصى أمر الله الذى بعث به رسلَه ، فذكر كل واحد نوعاً من القنوت الذى يعُم المخلوقات .

رواية ابن أبي حاتم أوجه تفسير لفظ القنوت

قال ابن أبي حاتم : « اختلف في قوله : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ على أوجه » . وروى بإسناده الحديث المرفوع : « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

الوجه الأول الطاعة

وروى عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : قانتون ، قال : مطيعون . يقول : طاعة الـكافر في سجوده سجود ظله وهو كاره .

وأيضا عن شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ قال : مطيعون ، كن إنساناً فـكان ، وقال : كن حماراً فـكان . ففسّرها مجاهد بالسجود طوعا وكرها ، وفسّر الـكره بسجوده ظلّه ، وفسّرها أيضا بطاعة أمره الـكونى ، وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَـكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢] وهذا الأمر الـكونى لايخرج عنه أحد .

---

(١) فسر الطبرى لفظ « القنوت » بمايوافق تفسير ابن تيمية ، وأورد الآثار عن السلف في ذلك . انظر التفسير (ط . المعارف) ٢/٥٣٨ ـ ٥٤٠ ، ٥/ ٢٢٨ ـ ٢٣٧ (وخاصة ص ٢٣٦ ـ٢٣٧ حيث ذكر الطبرى القول الذى يرجحه في تأويل القنوت وهوالطاعة) ، ٦/ ٢٦٤ـ٢٦٥، ٤٠١ ـ٤٠٤ ، ٨/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « أعوذ بكلمات الله التامات التي / لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر »[١]. ص ٢١

وهذان الوجهان ذكرهما ابن الانباري[٢]، مع ذكره وجهاً آخر: أنها خاصة. قال أبو الفرج: « فإن قيل: كيف عمَّ بهذا القول وكثير من الخلق ليس له بمطيع؟ ففيه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن يكون ظاهرها العموم ومعناها معنى الخصوص، والمعنى: كل أهل الطاعة له قانتون. والثاني: أن الكفّار تسجد ظلالهم لله بالغدو والآصال والعشيّات فنسب القنوت إليهم بذلك. والثالث: أن كل مخلوق قانت له بأثر صُنْعِهِ فيه وجَرْيِ أحكامه عليه، فذلك دليل على إلٰه كوّنه؛ ذكرهن ابن الأنباري ».

الوجه الثاني الصلاة

قال ابن أبي حاتم: الوجه الثاني: حدثنا أبو سعيد الأشج، ثنا أسباط، عن مطرِّف، عن عطية، عن ابن عباس، قال: قانتون: مصلُّون ».

---

(١) في الموطأ ٢/٩٥٠ (كتاب الشعر، باب ما يؤمر به من التعوذ): « وحدثني عن مالك عن يحيي بن سعيد أنه قال: أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه. فقال له جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن، إذا قلتهن طفئت شعلته وخر لفيه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى. فقال جبريل: فقل أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها، وشر ما ذرأ في الأرض، وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يارحمن ».
وورد الحديث مرسلا أيضا عن كعب الأحبار بعده بقليل ٢/٩٥١ - ٩٥٢.
وجاء التعوذ بكلمات الله التامات بصيغ أخرى في أحاديث صحيحة كما في البخاري ومسلم وغيرهما. وانظر تعليقنا على الحديث في منهاج السنة ٢/٢٩٢ - ٢٩٣. وانظر أيضا الأذكار للنووي، ص ١٢١.

(٢) أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد الأنباري، النحوي اللغوي الأديب المتوفى سنة ٥٧٧. انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/٣٢٠؛ فوات الوفيات ١/٥٤٧؛ شذرات الذهب ٤/٢٥٨ - ٢٥٩؛ إنباه الرواة ٢/١٦٩ - ١٧١ (وانظر التعليق)؛ الأعلام ٤/١٠٤.

قلت : وهذا من جنس وصفها بالسجـود له والتسبيح ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] . لـكن قد يُقال : فالصلاة صلاة المخلوقات والمؤمنين ، ولم يُرد أن الكافرين يصلون فتكون الآية خاصة . ولهذا حُـكى عن ابن عباس أنه قال : هى خاصة .

الوجه الثالث الإقرار بالعبودية

قال: « والوجه الثالث، ثم روى بالإسناد المروى عن الحسين بن واقد ، عن أبيه ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : كل له قانتون ، قال :مقرّون[1] بالعبودية. قال : وروى عن أبى مالك نحوه » .

قلت : وهذا إخبار عمّا فُطروا عليه من الإقرار بأن الله ربهم كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٧٢] . فإن هذه الآية بيّنة فى إقرارهم وشهادتهم على أنفسهم بالمعرفة التى فطروا عليها[2] : أنّ الله ربهم. وقال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة »[3] .

وطائفة من العلماء جعلوا هذا الإقرار لما استخرجوا من صلب آدم وأنه أنطقهم وأشهدهم ، لـكن هذا لم يثبت به خبر صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والآية لاتدل عليه .

---

(١) فى الأصل : مقردون ، وهو تحريف .

وفى تفسير الطبرى : (٢/٥٣٩) : « حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا يحيى بن واضح ، قال : حدثنا الحسين بن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : كل له قانتون : كل مقر له بالعبودية » .

(٢) فى الأصل : عليه .

(٣) ورد هذا الحديث بتمامه فى « منهاج السنة » ٢/٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، وتكلمت عليه طويلا هناك وذكرت مكانه فى البخارى ومسلم وسنن أبى داود وجامع الترمذى والموطأ وصحيح ابن حبان والمسند وغيرها فارجع إليه .

وإنما الذى جاءت به الأحاديث المعروفة أنه استخرجهم وأراهم لآدم ، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار منهم ، فعُرفوا من يومئذ . هذا فيه مأثور من حديث أبى هريرة ، رواه الترمذى وغيره بإسناد جيد[١] . وهو أيضاً من حديث عمر بن الخطاب الذى رواه أهل السنن ومالك فى الموطأ[٢] ، وهو يصلح للاعتضاد.

وأما إنطاقهم وإشهادهم فروى عن بعض السلف ، وقد روى عن أُبَىّ[٣] وابن عباس ، و بعضهم رواه مرفوعا من طريق ابن عباس وغيره . وروى ذلك الحاكم فى صحيحه ، لكن هذا ضعيف[٤] . وللحاكم مثل هذا ، يروى أحاديث

---

(١) انظر الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١/٩٦ـ٢٠٠ (كتاب التفسير ، سورة الأعراف) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم » .

(٢) الحديث فى: سنن أبى داود ٤/٣١٢ـ ٣١٣ (كتاب السنة، باب فى القدر) ؛ الموطأ ٢/٨٩٨ـ٨٩٩ (كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر)؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١ / ١٩٤ ـ ١٩٦ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر ، وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا » .

(٣) روى الطبرى فى تفسيره أثرين موقوفين على أبى بن كعب رضى الله عنه ، الأول فى تفسير قوله تعالى : (وأيدهم بروح منه) [سورة النساء : ١٧١] . انظر : التفسير (ط . المعارف) ٩/٤٢١ـ٤٢٢ . والثانى فى تفسير هذه الآية من سورة الأعراف . انظر: التفسير ١٣ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ . وقد صحح الأستاذ محمود شاكر إسناده وأشار إلى رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل له فى زياداته على مسند أبيه (انظر المسند ـ ط. الحلبى ـ ٥/١٣٥) وإلى نقل الهيثمى له فى مجمع الزوائد ٧/٢٥ وإلى رواية الحاكم له فى المستدرك (٢ / ٣٢٣) مطولا . كما ذكر أن ممن رواه : الآجرى فى كتاب الشريعة ، ص ٢٠٧ ؛ ابن عبد البر فى التمهيد ، ص ٣٠٧ ، ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٦٣ـ٢٦٤ فى الطبعة التى أرجع إليها) ؛ الدر المنثور للسيوطى ٣ / ١٤٢ .

(٤) وردت آثار عديدة تذكر إنطاق الله لبنى آدم وإشهادهم على أنفسهم أكثرها موقوف وبعضها مرفوع . وحديث ابن عباس المرفوع رواه أحمد فى مسنده (٤/١٥١ ـ رقم ٢٤٥٥) ونصه : « حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا جرير ـ يعنى ابن حازم ، عن كلثوم ابن جبر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعنى عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا : (قال ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا =

موضوعة فى صحيحه مثل حديث زريب بن برثملى وهامة بن الهيم[١] وغير ذلك ، وبسط هذا له موضع آخر .

= عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون) .

وأورد الطبرى فى تفسيره ١٣/٢٢٢ ـ ٢٥٠ كثيرا من الآثار الواردة فى هذا الصدد منها حديث ابن عباس المرفوع (رقم ١٥٣٣٨) وأحاديث أخرى موقوفة عليه (منها الأرقام ١٥٣٣٩ ـ ١٥٣٤٣ ، ١٥٣٤٧ ـ ١٥٣٥٠ ، ١٥٣٦٠ ـ ١٥٣٦٢) ومنها حديث عبد الله بن عمرو المرفوع (رقم ١٥٣٥٤) .

وقد صحح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله حديث ابن عباس المرفوع فى تعليقه على المسند وتكلم عليه (ارجع إلى التعليق) ووافقه الأستاذ محمود شاكر على ذلك وتكلم على سائر الآثار كلاما مفصلا وبين طرقها ومواضع ورودها فى كتب السنة وصحح بعضها وضعف بعضها الآخر فارجع إلى تعليقاته .

وأشير هنا إلى رأى الطبرى الذى قال بعد أن أورد جميع الآثار فى تفسير هذه الآية أن الوجه الأول فى تأويلها هو الذى يقول أن الله خاطب ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى . فقال لهم هو وملائكته : شهدنا عليكم .. إلخ . والوجه الثانى هو أن ذلك خبر من الله عن قيل بعض بنى آدم لبعض حين أشهد الله بعضهم على بعض . وقال أصحاب هذا الوجه : معنى قوله : وأشهدهم على أنفسهم : وأشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك .

قال الطبرى : إن الوجه الأول أولى بالصواب لو صح ، ولكنه لم يعلم صحيحا . ثم قال : « وإن لم يكن ذلك عنه صحيحا ، فالظاهر يدل على أنه خبر من الله عن قيل بنى آدم بعضهم لبعض ، لأنه جل ثناؤه قال : (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، فكأنه قيل : فقال الذين شهدوا على المقرين حين أقروا فقالوا بلى : ـ شهدنا عليكم بما أقررتم على أنفسكم ، كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . وانظر أيضا ما ذهب إليه ابن كثير فى تفسيره ٢/٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

وقد تكلم ابن تيميه عن هذه الآية وعن حديث : كل مولود يولد الفطرة ، كلاما مسهبا استغرق معظم الجزء الأخير من كتاب « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » ، وهو الجزء الذى ما زال مخطوطا فى المكتبة التيمورية بدار الكتب (رقم ١٨٢ عقائد) .

(١) حديث زريب بن برثملى رواه ابن عراق الكنانى فى « تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة » ١/٢٣٩ ـ ٢٤٠ عن ابن عمر رضى الله عنه وأوله : « كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وهو بالقادسية أن سرح نضلة بن جعونة إلى حلوان » وفيه أن نضلة سمع مخاطبا يخاطبه من الجبل فسأله من يكون وهل هو ملك أم ساكن من الجن أم طائف من عباد الله « فانفلق الجبل عن هامة كالرحا أبيض الرأس واللحية عليه طمران من صوف فقال السلام عليكم ورحمة الله . قلنا : وعليكم السلام ورحمة الله ، من أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا زريب بن برثملا وصى العبد الصالح عيسى بن مريم ، أسكننى هذا الجبل ودعالى بطول البقاء ... =

لـكن كون الخلق مفطورين[1] على الإقرار بالخالق أمر دل عليه الـكتاب والسنة ، وهو معروف بدلائل العقول ، كما قد بُسط فى مواضع/ وبُيِّن أن الإقرار بالخالق فطرى ضرورى فى جِبِلاَّت الناس . لـكن من الناس من فسدت فطرته فاحتاج إلى دواء ، بمنزلة السفسطة التى تعرض لـكثير من الناس فى كثير من المعارف الضرورية ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

ظ ٢٠

وهؤلاء يحتاجون إلى النظر ، وهذا الذى عليه جمهور الناس : أن أصل المعرفة قد يقع ضرورياً فطرياً ، وقد يُحتاج فيه إلى النظر والاستدلال .

وكثير من أهل الـكلام يقول : إنه لايجوز أن تقع[2] المعرفة ضرورية بل لاتقع إلا بنظر وكسب ، قالوا : لأنها لو وقعت ضرورة لارتفع التـكليف والامتحان . ومنهم من ادَّعى انتفاء ذلك فى الواقع ، وهذا ضعيف لأن الامتحان والتـكليف الذى جاءت به الرسل كان بأن يعبدوا الله وحده لايشركون به ؛ إلى هذا دعا عامة الرسل ، ومن كان من الناس جاحداً دَعَوْه إلى الاعتراف

= إلخ . وروى الحديث السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة » ١/١٧٧-١٨٢ من وجوه عدة وتـكلم عنه طويلا ومما ذكره : « قال الخطيب : روى الراسى هذا الحديث المنـكر ، وابن لهيعة يدلس عن ضعفاء وسليمان بن أحمد ضعيف » .

وأما حديث هامة بن الهيم فرواه ابن عراق فى المرجع السابق ١/٢٣٨ - ٢٣٩ عن ابن عمر : « بينما نحن قعود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبل من جبال تهامة إذ أقبل شيخ فى يده عصا فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد عليه السلام ، فقال : نغمة الجن وهمهمتهم من أنت ؟ قال : أنا هامة بن الهيم بن لاقيس بن إبليس . قال : وليس بينك وبين إبليس إلا أبوان ؟ قال : نعم .. إلخ » .

وروى الحديث السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » ١/١٧٤ - ١٧٥ من وجهين وقال: «موضوع . إسحاق بن بشر الـكاهلى كذاب وضاع بالاتفاق . وأبو سلمة يروى عن الثقات ما ليس من حديثهم لا يجوز الاحتجاج به . قال العقيلى : وكلا الإسنادين غير ثابت وليس للحديث أصل . قلت : وكذا قال فى « الميزان » هو باطل بالإسنادين » .

ولم أجد الحديثين فى « مستدرك » الحاكم .

(١) فى الأصل : مفطورون .

(٢) فى الأصل : أن يقع .

بالصانع: كفرعون ونحوه، مع أنه كان فى الباطن عارفًا و إنما جحد ظلما وعلوا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل: ١٤]، وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢].

وخاتم الرسل دعا الناس إلى الشهادتين، فقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[١]. وقال لمعاذ فى الحديث الصحيح: «إنك تأتى قوماً أهل كتاب، فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم»[٢].

ولهذا قالت الرسل لقومهم ما أخبر الله تعالى به فى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٩ ـ ١١].

---

(١) قال السيوطى فى «الجامع الصغير»: «متفق عليه رواه الأربعة عن أبى هريرة وهو متواتر»: والحديث مروى بمعناه عن عدد من الصحابة، وانظر: البخارى ١ / ١٠ (كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة... إلخ)، ٩/ ١٥ (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، باب قتل من أبى قبول الفرائض)؛ مسلم ١/ ٣٩ (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(٢) الحديث بمعناه فى: البخارى ٢ / ١١٩ (كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس فى الصدقة)؛ مسلم ١/ ٣٧ ـ ٣٨ (كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه).

وأيضاً ، فإن المعارف لابد أن تنتهى إلى مقدمات ضرورية ، وهم لا يؤمرون بتحصيل الحاصل ، بل يؤمرون بالعمل بموجبها وبعلوم أخرى يكتسبونها بها .

وأيضاً ، فإن أكثر الناس غافلون عمّا فُطروا عليه من العلم ، فيُذَكَّرون بالعلم الذى فُطروا عليه ، وأصل الإقرار من هذا الباب ، ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكِّرون ، ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة ، كما فى قوله : (تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ) [سورة قٓ : ٨] .

فإذا كان من المعارف ماهو ضرورى بالاتفاق ، ولم يكن ذلك مانعاً من الأمر والنهى : إما بتذكرة وإما بالاستدلال ، فيؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة ، ثم يؤمر الناس أن يُقرُّوا بما علموه ويشهدوا به فلا يعاندوه ولا يجحدوه ، / وأكثر الكفار جحدوا ما علموه . ص ٢٢

والاعتراف بالحق الذى يُعلم والشهادة به والخضوع لصاحبه لا بد منه فى الإيمان ، وإبليس وفرعون وغيرهما كفروا للعناد والاستكبار ، كما ذكر الله تعالى ذلك فى كتابه .

ولكن الجهمية لما ظنت أن مجرد معرفة القلب هى الإيمان ، أرادوا أن يجعلوا ذلك مكتسباً ، وزعموا أن من كفّره الشرع كإبليس وفرعون لم يكن فى قلبه من الإقرار شىء ، كما زعموا أنه يمكن أن يقوم بقلب العبد إيمان تام مع كونه يعادى الله ورسوله ، ويسبّ الله ورسوله فى الظاهر من غير إكراه[1] ،

---

(١) يقول الأشعرى فى « مقالات الإسلاميين » ١/١٩٧-١٩٨ : « وزعموا أن الكفر بالله هو الجهل به ، وهذا قول يحكى عن جهم بن صفوان . وزعمت الجهمية أن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده ، وأن الإيمان لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه ، وأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح » .

وأما ابن حزم فيقول فى « الفصل فى الملل والنحل » ٤/٢٠٤ أن غلاة المرجئة طائفتان وأن الثانية هى : « الطائفة القائلة إن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام وعبد الصليب وأعلن =

ولهذا كفَّر وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة من قال بقولهم[١] ، كما هو مبسوط فى مواضعه[٢] .

والمقصود هنا بيان قول من قال من السلف كعكرمة وأبى مالك : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : أى مقرُّون له بالعبودية .

الوجه الرابع القيام يوم القيامة

قال ابن أبى حاتم : والوجه الرابع ، ثم روى بإسناده المعروف عن الربيع ابن أنس : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ قال : كل له قائم يوم القيامة[٣] .

الوجه الخامس قول الإخلاص

والخامس : ثم روى بإسناده من حديث عبد الله بن المبارك عن شريك عن سالم عن سعيد بن جبير : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : بقول الإخلاص[٤] .

قلت : وهذا إن أراد به اعترافهم بأنه ربهم وأنهم إذا اضطروا دعوا الله

= التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو كامل الإيمان عند الله عز وجل ولى لله عز وجل من أهل الجنة ، وهذا قول أبى محرز جهم بن صفوان السمرقندى مولى بنى راسب كاتب الحارث بن سريج التميمى أيام قيامه على نصر بن سيار بخراسان » .

وقد تتلمذ الجهم على الجعد بن درهم كما اتصل بمقاتل بن سليمان من المرجئة ، وقتل مع الحارث بن سريج بمرو سنة ١٢٨ هـ .

وانظر أيضاً عنه وعن فرقته وآرائهم : مقالات الأشعرى ٢١٣/١ ، ٣١٤ ؛ الملل والنحل ٧٩/١ — ٨١ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٣ — ٦٤ ؛ الخطط للمقريزى ٣٤٩/٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ؛ البدء والتاريخ ١٤٦/٥ ؛ ميزان الاعتدال ١٩٧/١ ؛ لسان الميزان ١٤٢/٢ — ١٤٣ ؛ الأعلام ١٣٨/٢ — ١٣٩ .

(١) انظر رسالة الرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل (ضمن مجموعة شذرات البلاتين) ، ص ١٤ وما بعدها .

(٢) انظر مثلا : التسعينية (ضمن مجموع الفتاوى ، ج ٥) ، ص ٣١ — ٤٠ .

(٣) قال الطبرى فى تفسيره ٥٣٩/٢ (ط . المعارف) : « وقال آخرون بما حدثنى به المثنى قال : حدثنا إسحاق ، قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه عن الربيع : قوله : (كل له قانتون) ، قال : كل له قائم يوم القيامة » .

(٤) ذكر الطبرى فى تفسيره ٤٠٣/٦ (ط . المعارف) فى تأويل قوله تعالى : (يامريم اقنتى لربك) الآية [سورة آل عمران : ٤٣] ما يلى : « وقال آخرون : معناه : أخلصى لربك . ذكر من قال ذلك : حدثنى المثنى قال : حدثنا الحمانى ، قال : حدثنا ابن المبارك ، عن شريك ، عن سعيد : (يا مريم اقنتى لربك) ، قال : أخلصى لربك » .

مخلصين له الدين ، فهو من جنس قول عكرمة ، وإلا فالإخلاص الذى أُمروا به ، وهو أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، إنما قام به المؤمنون،وهذا إنما يكون على قول من يزعم أن الآية خاصة ، ولم يذكر ابن أبى حاتم هذا صريحاً عن أحد من السلف إلا أن يتأول على ذلك قول ابن عباس أو قول سعيد .

أقوال المفسرين

هذا ولم يذكر أبو الفرج هذا عن أحد من السلف ، لم يذكره إلا فيما تقدم عن ابن الأنبارى ، بل قال : « وللمفسرين فى المراد بالقنوت هٰهنا ثلاثة أقوال : أحدها : أنه الطاعة ، قاله ابن عباس وابن جبير ومجاهد وقتادة . والثانى : الإقرار بالعبادة ، قاله عكرمة والسُّدى . والثالث: القيام ، قاله الحسن والربيع» .

قال : « وفى معنى القيام قولان : أحدهما : أنه القيام له بالشهادة بالعبودية، والثانى : أنه القيام بين يديه يوم القيامة » .

لكن طائفة من المفسرين ذكروا عن المفسرين قولين كالثعلبى والبغوى وغيرهما . قالوا : واللفظ للبغوى[1] : « ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ : قال مجاهد وعطاء والسُّدى: مطيعون. وقال عكرمة ومقاتل : مقرُّون بالعبودية. وقال ابن كيسان: قائمون بالشهادة ، وأصل القنوت القيام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : أفضل الصلاة طول القنوت » .

هل القنوت خاص أم عام ؟

قال : « واختلفوا فى حكم الآية ، فذهب جماعة إلى أن حكم الآية خاص . قال مقاتل : هو راجع إلى عُزَيْر والمسيح والملائكة . وعن ابن عباس أنه قال : هو راجع إلى أهل طاعته دون سائر الناس » .

قال : «وذهب جماعة إلى أن حكم الآية عام فى جميع الخلق ، لأن [لفظ] الكل[2] يقتضى الإحاطة بالشىء بحيث لا يشذ منه شىء . ثم سلكوا فى الكفار طريقين ، قال مجاهد: تسجد ظلالهم لله عز وجل على كره منهم، قال تعالى : ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ

(١) فى تفسيره معالم التنزيل (بذيل تفسير ابن كثير : ط . المنار) ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .
(٢) فى الأصل : لأن الكل . وما أثبته عن تفسير البغوى .

وَالْآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، وقال السدى : هذا يوم القيامة ، دليله : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾ [سورة طه : ١١١] ، وقيل : قانتون : مذلّلون مسخَّرون لما خلقوا له » .

تعليق ابن تيمية

قلت : من قال بالخصوص فإنه قد ينظر إلى سبب الآية ، وهو أنهم قالوا: اتخذ الله ولدا . وهذا إنما قالوه فى الملائكة والأنبياء كالمسيح والعُزَيْر ، فبيَّن سبحانه أن الذين قيل فيهم إنه اتخذهم أولادا هم عباد قانتون له ، كما ذكر فى الأنبياء : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ٱرْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ـ٢٨] ، فإن الضمير فى قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ عائد على المشركين ، وهم إنما قالوا ذلك فى الملائكة ، وأما المسيح وعُزَيْر فإنما قال ذلك فيهما أهل الكتاب ، وسياق الآية يبين ذلك فإنه قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٦ـ٢٦]

وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ ، وقوله : ﴿ لَهْواً ﴾ قد فُسِّر بالولد والمرأة وفُسِّر باللعب ، فإن هذه الآية نظير قوله : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ الآية [الدخان : ٣٨ ، ٣٩] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [سورة ص : ٢٧] ، ونظير قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٥] ، ومثله قوله تعالى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً ﴾ الآية [سورة المؤمنون : ١١٥] .

فقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾[سورة الأنبياء : ١٦]

فنزّه نفسه أن يكون فعله كفعل اللاعب العابث الذى لا يقصد غاية محمودة يريد سوق الوسائل إليها ، فإن هذا فعل الجاد الذى يجىء بالحق ، كما قال إبراهيم لما آتاه الله رشده من قبل التوراة والقرآن : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٢-٥٦] ، فهو لما قال ما قال : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ [الآية : ٥٥] ، فالذى يأتى بالحق خلاف اللاعب ، فإنه يقصد أن يخبر بصدق ويأمر بما ينفع ، وهو العدل ، بخلاف اللاعب العابث فإنه ليس مقصوده هذا ، بل اللهو واللعب .

ولهذا قد يُشتم الإنسان على وجه اللعب ويفعل به أفعال منكرة فلا ينكر ذلك كما ينكره من الجاد المحق ، ولهذا كان عامة اللهو باطلا ليس له منفعة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبة امرأته فإنهن من الحق »[1] . / فالحق ضد الباطل ، واللهو باطل ، ولهذا تنزّه سبحانه عن أن يخلقهما باطلا . ص ٢٣

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ فاللاعب صاحب باطل لا صاحب حق . ولهذا لما دخل عمر على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده الأسود بن سريع ينشده فأسكته مرتين أو ثلاثا ، قال : « من هذا الذى تسكتنى له ؟ قال : هذا رجل لا يحب الباطل »[2] ، فإن عمر كان لا يحبه ولا يصبر على صاحبه ، والنبى

(١) هو جزء من حديث رواه النسائى (بشرح السيوطى) ٦ / ٢٢٢ - ٢٢٣ (كتاب الخيل ، باب تأديب الرجل فرسه) عن عقبة بن عامر وأوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ... » وفيه : « وليس اللهو إلا فى ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته امرأته ورميه بقوسه ونبله ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها ، أو قال : كفر بها » .

(٢) هذا الحديث مروى بمعناه فى المسند ٣ / ٤٣٥ ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٦١٥ =

صلى الله عليه وسلم كان أحلم وأصبر من عمر ، فهو أيضا لا يحب الباطل ، لكنه يصبر ويحتمل منه ما لم يكن محرما ، ولكن هو لا منفعة فيه لفاعله فإذا فعله احتمله عليه ؛ فهذا بيان قول من فسّر اللاعب بالعابث وله نظائر .

والذين فسّروا بالولد والزوجة قالوا ذلك لأن من المشركين من جعل لله ولداً وصاحبة ، وقالوا : إنه ضاهى الحق ، وهم يسمون المرأة لهوا والولد لهواً ، وقال ابن قتيبة[١] : «أصل اللهو الجماع وكُنِّيَ عنه [باللهو][٢] كما كُنِّيَ عنه بالسر» .

والنبي صلى الله عليه وسلم قد جعل ملاعبة الرجل امرأته من اللهو الذى ليس بباطل ، والربُّ تعالى منزّه عن اللعب مطلقا ، فإن الذى يلاعب امرأته إنما يفعل ذلك[٣] ذلك لحاجته إلى المرأة ، وحكمة ذلك بقاء النسل ، والله تعالى منزّه عن الولادة ، فتضمنت هذه الآية تنزيهه عن الخلق عبثاً لا لحكمة ، فإن ذلك لعب وعبث ، وتضمنت تنزيهه عن أن يتخذ ما يُلهى به كالمرأة والولد ، ولهذا بيَّن بعد ذلك أنه إنما خلق ذلك بالحق وأنه منزّه عن الأولاد ، وقال : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ ، واللهو كله باطل فى حق الله تعالى ، وإن كان بعضه من الحق فى حق العباد .

وهو سبحانه وتعالى قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ ، فإن مايلهو به اللاهى يكون عنده لايكون بعيداً عنه ، ونحن

= وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ؛ المحب الطبرى فى الرياض النضرة (ط . الحلبى) ١ / ٢٧٣ ؛ مجمع الزوائد ٩/٦٦ . ورويت قطعة من هذا الحديث فى : المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٢٤ ؛ الإصابة لابن حجر والاستيعاب لابن عبد البر فى ترجمة الأسود بن سريع ؛ طبقات ابن سعد ٧/٤٢ .

(١) فى « تأويل مشكل القرآن » ص ١٢٤ .

(٢) باللهو : زيادة من تأويل مشكل القرآن .

(٣) فى الأصل : إنما جعل ذلك .

خلقنا السماوات والأرض وما بينهما فكيف يكون هذا لعباً ؟ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾.
ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٩ ، ٢٠] ؛ ثم رد على من أشرك به ؛ ثم حكى قول المشركين الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، قال سبحانه : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٢٦ - ٢٩].
فهذه صفة الملائكة ، والمسيح والعزير ونحوهما أيضاً هم[1] بهذه الصفة فإنهم عباد مكرمون ، قال تعالى عن المسيح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [سورة الزخرف : ٥٩] ، وقال : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة النساء : ١٧٢].
فلما قال تعالى - فى البقرة - : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والذين قالوا اتخذ الله ولداً جعلوه إما من الملائكة وإما من الآدميين كالمسيح والعزير . فقوله تعالى : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ يبين أن هؤلاء الذين قيل فيهم إنهم أولاد هم عباد له مطيعون كما ذكر فى « الأنبياء » وغيرها ، وكما قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧
فبيّن أن هؤلاء المعبودين هم يعبدون الله تعالى . ومثله قوله : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ

(١) فى الأصل : هو

آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٤٢] على أصح القولين .

القنوت عند ابن تيمية عام

فهذا مأخذ من جعل الآية خاصة . لكن يُقال: الآية لفظها عام ، والعموم مقصود منها ، كما هو مقصود من قوله سبحانه : ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ثم قال : ﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ . فلما كان قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ عامًّا[1] تبين أن الجميع مملوك له ، والمملوك لايكون ولداً ، وتبين[2] أيضاً أن كلهم له قانتون مطيعون عابدون ، والعابد المطيع لا يكون إلا مملوكاً ، لايكون ولداً .

وأيضاً فإنه قد ذكر القنوت فى سورة « الروم » مجرَّداً عن الولد ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [سورة الروم : ٢٥] ، ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [سورة الروم : ٢٦ ، ٢٧] ، فبين أن له مافى السماوات والأرض وأن كلا له قانتون ، وتخصيص هذا بمن قيل إنه ولدٌ فاسد ظاهر الفساد ، وكذلك تخصيصه بالمؤمنين ، فإن هذا مذكور لبيان عموم الملك والاقتدار وخضوع المخلوقات كلها له ، فلو خُصَّ به المؤمنون لكان ذلك عكس المقصود .

وهو مثل قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة آل عمران : ٨٣] ، فهو سبحانه يدعوهم إلى

(١) فى الأصل : عام .
(٢) فى الأصل : بين .

يدعوهم إلى دين الإسلام ، ويبين أن كل ما فى السماوات والأرض مسلم لله : إما طوعا وإما كرهاً ؛ وإذا كان لابد من أحدهما فالإسلام له طوعاً هو الذى ينفع العبد ، فلا يجوز أن يتخذ غير هذا الدين ديناً ، فإنه ذكر هذا فى تقرير أن كل دين سوى الإسلام باطل فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ ، وذكر بعد ذلك مايصير به العبد مسلماً مؤمناً فقال : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٤، ٨٥] : ذكر عبادة الله وحده والإيمان برسله كلهم ، كما ذكر فى سورة البقرة ، قال أبو العالية : قوله ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الحجر : ٩٢ ، ٩٣] قال: خصلتان يُسأل عنهما كل أحد : ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟[1] وكذلك ذكر سجود من فى السماوات والأرض له طوعاً وكرهاً ؟ والسجود هو الخضوع وهو القنوت .

ص ٢٤ وأيضا / فإذا كانت الصيغة عامة لم يجز أن يراد بها الخصوص إلا مع ما يُبيّن ذلك ، فأما إذا جُرِّدت عن المخصصات فإنها لاتكون إلا عامة ، والآية عامة عموماً مجرداً ــ بل مؤكداً ــ بما يدل على العموم . وأما تخصيص المؤمنين فهذا يكون إذا مُدحوا بذلك أو ذُكر جزاء الآخرة ، وليس المقصود هنا مدح المؤمنين بطاعته ، وإنما المقصود بيان قدرته وملكه وخضوع كل شىء له ، وأنه مع هذا وهذا يمتنع أن يكون له ولد مع خضوع كل شىء له وقنوته له . ويقال فى الركوع من التسبيح المأثور فيه : سبحان من تواضع كل شىء لعظمته ، سبحان من ذل كل شىء لعزته ، سبحان من استسلم كل شىء لقدرته .

(١) هذا الأثر بمعنى حديث رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم. انظر :الدرالمنثور ١٠٦/٤ . وأخرجه الطبرى عن أبى العالية فى تفسيره ٤٦/١٤ (ط. بولاق) .

أنواع القنوت الذى يعم المخلوقات
الأول

وعلى هذا فالقنوت الذى يعم المخلوقات أنواع :

أحدها: طاعة كل شىء لمشيئته وقدرته وخلقه ، فإنه لا يخرج شىء عن مشيئته وقدرته وملكه ، بل هو مُدَبَّر مُعَبَّد مربوب مقهور ، ولو تخيل إليه فى نفسه أنه لا ربّ له ، وأنه يقدر أن يخرج عن ملك الرب ، فهذا من جنس ما يتخيل للسكران ، والنائم المأسور المقهور ، والمجنون المربوط بالأقياد والسلاسل ، بل نفوذ مشيئة الرب وقدرته فى المستكبرين عن عبادته أعظم من نفوذ أمر الآسر فى أسيره ، والسيد فى مملوكه ، وقيِّم المارستان فى المجنون بكثيرٍ كثير .

وهذا متوجه على قول أهل السنة الذين يقولون : لا يكون فى ملكه إلا ما يشاء ، فليس لأحد خروج عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خُطَّ له فى اللوح المسطور ؛ بخلاف قول القدرية ، فإن العصاة على قولهم خرجوا عن مشيئة وقدرته وحكمه وسلطانه وخلقه ، فليسوا قانتين لا لأمره الشرعى ولا لأمره القدرى الكونى ؛ وأما أهل السنة فيقولون إنهم قانتون لمشيئته وحكمه وأمره الكونى كما تقدم .

وعلى هذا الوجه فالقانت قد لا يشعر بقنوته ، فإن المراد بقنوته كونه مُدبَّرًا مصرَّفا تحت مشيئة الرب من غير امتناع منه بوجه من الوجوه ، وهذا شامل للجمادات والحيوانات وكل شىء . قال تعالى : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [سورة هود : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة يس : ٨٣] .

الثانى

النوع الثانى من القنوت : هو ما يشعر به القانت ، وهو اعترافهم كلهم بأنهم مخلوقون مربوبون وأنه ربهم ، كما تقدم .

الثالث

الثالث : أنهم يضطرون إليه وقت حوائجهم فيسألونه ويخضعون له ، وإن كانوا إذا أجابهم أعرضوا عنه . قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ

دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [سورة يونس : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [سورة الإسراء : ٦٧] . وهو أخبر أنهم كلهم قانتون ، فإذا قنتوا له فدعوه وتضرعوا / إليه عند حاجتهم كانوا قانتين له ، وإن كان إذا كشف الضر عنهم نسوا ما كانوا يدعون إليه وجعلوا له أنداداً . ظ ٢٤

الرابع الرابع : أنهم كلهم لابد لهم من القنوت والطاعة فى كثير من أوامره ، وإن عصوه فى البعض ، وإن كانوا لا يقصدون بذلك طاعته ، بل يُسلمون له ويسجدون طوعاً وكرها . وذلك أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب بالعدل ، فلا صلاح لأهل الأرض فى شىء من أمورهم إلا به ، ولا يستطيع أحد أن يعيش فى العالم مع خروجه عن جميع أنواعه ، بل لابد من دخوله فى شىء من أنواع العدل ، حتى قطاع الطريق لابد لهم فيما بينهم من قانون يتفقون عليه ، ولو أراد واحد منهم أن يأخذ المال كله لم يمكنوه ، وأظلم الناس وأقدرهم لا يمكنه فعل كل ما يريد ، بل لابد من أعوان يريد أرضاءهم ومن أعداء يخاف تسلطهم ، ففى قلبه رغبة ورهبة تلجئه إلى أن يلتزم من العدل الذى أمر الله تعالى به مالا يريده فيُسلمَ لله ويقنت له وإن كان كارها . وهو سبحانه قال : ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ ، والقنوت العام يراد به الخضوع والاستسلام والانقياد ، وإن كان فى الباطن كارها ، كطاعة المنافقين : هم خاضعون للمؤمنين مطيعون لهم فى الظاهر ، وإن كانوا يكرهون هذه الطاعة

الخامس الخامس : خضوعهم لجزائه لهم فى الدنيا والآخرة ، كما ذكر من ذكر أنهم قانتون يوم القيامة ، وهو سبحانه قد يجزى الناس فى الدنيا فيهلكهم و ينتقم منهم ،

كما أهلك قوم نوح وعاداً وثموداً وفرعون فكانوا خاضعين منقادين لجزائه وعقابه قانتين له كرها .

والجزاء يكون فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة ، وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو قائم بالقسط ، والجميع مستسلمون لحكمه ، قانتون له فى جزائهم على أعمالهم ، والمصائب التى يصيبهم فى الدنيا جزاء لهم . قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩] .

فهذه خمسة أنواع : قنوتهم لخلقه وحكمه وأمره قدراً ، واعترافهم بربوبيته ، واضطرارهم إلى مسألته والرغبة إليه ، ودخولهم فيما يأمر به وإن كانوا كارهين ، وجزاؤهم على أعمالهم . ودخولهم فيما يأمر به مع الكراهة يدخل فيه المنافق والمعطى للجزية عن يدٍ وهو صاغر ، والذى يسلم أولا رغبة ورهبة ، فالقنوت شامل داخل للجميع ، لكن المؤمن يقنت له طوعا وغيره يقنت له كرها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة الرعد : ١٥] .

﴿ فصـــل ﴾

الكلام عن السجود

والسجود من جنس القنوت ، فإن السجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضمن لغاية الخضوع والذل ، وكل مخلوق فقد تواضع / لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته ، ولا يجب أن يكون سجود كل شىء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ، ووضع جبهة فى رأس مدور على التراب ، فإن هذا سجود مخصوص من الإنسان ، ومن الأمم من يركع ولا يسجد ، وذلك سجودها

س ٢٥

كما قال تعالى : ﴿ أُدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] ، و إنما قيل ادخلوه رُكَّعاً . ومنهم من يسجد على جنب كاليهود ، فالسجود اسم جنس ، ولكن لما شاع[1] سجود الآدميين المسلمين صار كثير من الناس يظن أن هذا هو سجود كل أحد كما فى لفظ « القنوت » .

وكذلك لفظ « الصلاة » لما كان المسلمون يصلون الصلاة المعروفة ، صار يظن من يظن أن كل من صلّى فهكذا يصلّي ، حتى صار بعض أهل الكتاب ينفرون من قولنا : إن الله يصلى ، وينزّهونه عن ذلك ، فإنهم لم يعرفوا من لفظ «الصلاة» إلا دعاء المصلى لغيره وخضوعَه له ، ولا ريب أن الله منزه عن ذلك ، لكن ليست هذه صلاته سبحانه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] .

وهو سبحانه قد ذكر سجود الظل فى غير موضع كقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] ، ومعلوم أن الظل إذا سجد لم يسجد على سبعة أعضاء : يضع رأسه ويديه ثم يرفع رأسه ويديه ، بل سجوده ذله وخضوعه .

تفسير قوله تعالى: (وادخلوا الباب سجدا) الآية

وقد سمّى الله تعالى المنحنى ساجدا وإن لم يصل إلى الأرض فى قوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٨] ، وفى الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ

---

(١) فى الأصل : ولكن لما ساغ .. الخ .

القَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وقُولُوا حِطَّةٌ وادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦١] .
فهنا لما أمرهم بالسكنى ، وهى المقام ، قال : ﴿ وكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ ولم يحتج أن يقال : رغداً ، فإن الساكن المقيم مطمئن ، وهناك قال : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ القَرْيَةَ ﴾ قال : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ ، فبين أنهم يأكلون رغداً فيتهنئون[1] لا يخافون الخروج . وبسط الكلام فى البقرة وذكر الدخول لأنه قبل السكنى . ولهذا قال : ﴿رَغَداً﴾ ، وقال : ﴿وسَنَزِيدُ﴾ وقال : ﴿ فَبَدَّلَ الّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٥٩] .

وقدّم السجود لأنه أهم . وقد اختلفوا فى هذا السجود ، فقيل : هو الركوع ، كما روى ابن أبى حاتم من وجهين ثابتين عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ادْخُلُوا البَابَ سُجَّدًا ﴾ قال : « رُكَّعًا من باب صغير ، فدخلوا من قِبَلِ أستاههم ، وقالوا : حنطة»[2] . وقيل : «بل هو السجود بالأرض»[3] . ثم قيل ما رواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن أنس ، قال : « سُجَّدا ، قال : كان سجود أحدهم على خده» . وروى عن وهب بن منبّه قال : «إذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله » فكأن صاحب هذا القول جعل السجود بعد الدخول ، ومن قال بهذا أو قال بأنهم أمروا بالركوع فهو يقول : دخولهم وهم سجد بالأرض فيه

---

(١) يتهنون : مخفف يتهنأون . فى اللسان : هنأت الطعام أى تهنأت به ... وفى المثل : تهنأ فلان بكذا وتمرأ وتسمن وتزين بمعنى واحد . . . وأكلنا من هذا الطعام حتى هنئنا منه أى شبعنا . . . وكل أمر يأتيك من غير تعب فهو هنيء .
(٢) انظر : تفسير الطبرى ٢ / ١٠٤ (الآثار ١٠٠٦ ـ ١٠٠٨) ، ١١٣ ـ ١١٤ (الآثار ١٠٢٤ ، ١٠٢٥) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ ؛ ابن كثير ١ / ٩٩ .
(٣) انظر تفسير الطبرى ٢ / ١١٥ (الأثر ١٠٣٢) .

ظ ٢٥ صعوبة / وقد يؤذى أحدهم ولكن هو ممكن ، فإن الإنسان يمكنه حال السجود أن يزحف إذا كانت الأرض لا تؤذيه .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه : « قال لهم : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم و يقولون حبة فى شعرة »[(١)] .

فهذا هو الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم وقد قال ابن عباس وابن مسعود وغيرهما فى ذلك أقوالا تخالف هذا ، فقال خصيف عن عكرمة عن ابن عباس : « فدخلوا على شق » . وروى السدى عن أبى سعد الأزدى[(٢)] عن أبى الكنود عن ابن مسعود : « فدخلوا مقنعى رؤوسهم »[(٣)] .

قال ابن أبى حاتم : اختلف التابعون فروى عن مجاهد نحو قول عكرمة عن ابن عباس وروى عن السدى نحو ما روى عن ابن مسعود وعن مقاتل أنهم دخلوا منكفئين[(٤)] وأما القول[(٥)] فقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : حبة فى شعره ، وإذا ثقبت الحبة وأدخلت فيها الشعرة فإنه يقال : حبة فى

---

(١) الحديث بمعناه فى : البخارى ٦ / ١٨ — ١٩ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ مسلم ٨ / ٢٣٧ — ٢٣٨ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ١١ / ٧٧ — ٧٩ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٥ / ٢٤٣ (رقم ٥٩٠٨) ، وقال الملق رحمه الله : « وهو فى جامع المسانيد والسنن ٧ / ٣٩٠ » . وتكلم ابن كثير عن الحديث بالتفصيل فى تفسيره ١ / ٩٩ . وانظر : تفسير الطبرى ٢ / ١١٢ — ١١٣ (وكلام الشيخ أحمد شاكر فى التعليق) ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ .

(٢) فى تفسير الطبرى ١ / ١١٣ : « عن أبى سعيد » وهو أبو سعد الأزدى الكوفى قارىء الأزد . قال ابن حجر فى « تقريب التهذيب » ٢ / ٢٤٦ : ويقال أبو سعيد .

(٣) جاء هذا القول فى تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ — ١١٥ فى أثرين الأول عن ابن عباس والثانى عن عكرمة ؛ وفى الدر المنثور ١/٧١ عن ابن مسعود .

(٤) فى الأصل رسمت الكلمة « ملتفتين » ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته . وعلى الكلمة إشارة إلى الهامش حيث كتبت كلمة «منكبين» وعليها حرف « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

(٥) أى : وأما قولهم .

شعرة ، ويقال : شعرة فى حبة ، وهذا معنى مارواه السُّدى عن مُرَّة عن ابن مسعود أنه قال : إنهم قالوا : هطى سمقاثاأزبه مزبا » وهى بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيهاشعرة سوداء[1] ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ . وكذلك رواه السدى عن أبى سعد الأزدى ، عن أبى الكنود ، عن ابن مسعود ، وهذا موافق لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم . لكن النبى صلى الله عليه وسلم إنما تكلم بالعربية ، وهذا اللفظ أخذه ابن مسعود عن أهل الكتاب ؛ وهذا أصح من قول ابن عباس أنهم قالوا : حنطة ، مع أن هذا مروى عن غير واحد .

قال ابن أبى حاتم : ورُوى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والضحاك والحسن والربيع ويحيى بن رافع نحو ذلك ، لكن قد يقال : الحبة هى الحنطة ، وهم لم يقولوا بالعربية بل بلسانهم ، وهم إذا قالوا بلسانهم مامعناه : حبة حنطة : جاز أن يقال : حنطة . وحديث ابن مسعود وقد ذكر أنهم قالوا : حبة حنطة ، فلا يكون فى القول خلاف .

وأبو الفرج ذكر خمسة أقوال وهى ترجع إلى هذا . ذكر الحديث المرفوع ، والثانى حنطة ، والثالث أنهم قالوا : حبة حنطة حمراء فيها شعرة سوداء ـ قاله ابن مسعود ، والرابع كذلك إلا أنهم قالوا مثقوبة ـ قاله السدى عن أشياخه .

قلت : كلاهما رواه السدى عن ابن مسعود وهما قول واحد .

قال : والخامس أنهم قالوا : استقلاباً ، قاله أبو صالح .

---

(١) فى الأصل رسمت العبارة العبرية تطن سمعاثا ارنه مزبا . وسترد كلمة سمقاثا بعد قليل مرة أخرى. وقد ورد هذا الأثر فى تفسير الطبرى ٢ / ١١٤ (رقم ١٠٢٩) ؛ ابن كثير ١/ ٩٩ ؛ الدر المنثور ١ / ٧١ .وانظر تفسير القرطبى ١ / ٤١١ ؛ تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ، ص ٥٠ .

قلت: هذا الذى ذكره ابن مسعود بلسانهم «سمقاثا»[١] وقد فسره بذلك.

قال: الأقوال كلها واحدة بخلاف صفة الدخول، فإن الثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهم دخلوا يزحفون على أستاههم، وفى لفظ: على أوراكهم، والمعنى واحد، وما نقل خلاف هذا فإنما أخذ عن أهل الكتاب، وقد كان يؤخذ عنهم الحق والباطل. وقول ابن مسعود: مقنعى رؤوسهم، لا يناقض الزحف على أستاههم. وابن عباس قال: يزحفون على أستاههم، كالمرفوع، وقال: قيل: ادخلوا ركعاً، فلو جزمنا أن هذا/ مأخوذ عن النبى صلى الله عليه وسلم لجزمنا بأن الله أمرهم بالركوع، لكن ظاهر القرآن هو السجود، والسجود المطلق هو السجود المعروف، وكون الباب جُعل صغيراً إنما يكون لمن يُكره على الدخول منه ليحتاج أن ينحنى، وهؤلاء قُصدت طاعتهم فأمروا بالخضوع لله والاستغفار، فدخولهم سجداً هو خضوع لله وقولهم: حطه، أى احطط عنا خطايانا، هو استغفارهم، كما أخبر الله تعالى أن داود خرَّ راكعاً وأناب[٢]، وكما شرع للمسلمين أن يستغفروا فى سجودهم. ص ٢٦

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده: «اللهم اغفر لى ذنبى كله، دِقّه وجِلّه، أوله وآخره، علانيته وسرّه»[٣]. وكان أيضاً يقول: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[٤]. وكان يقول فى

---

(١) فى الأصل سمانا وعليها إشارة إلى الهامش حيث كتب «سمقاثا» وعليها حرف «خ» أى فى نسخة أخرى.

(٢) إشاره إلى الآية ٢٣ من سورة ص: (... وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب).

(٣) الحديث فى: مسلم ٢/٥٠ (كتاب الصلاة، باب مايقال فى الركوع والسجود).

(٤) الحديث فى مسلم ٢/٥١ (الكتاب والباب السابقان) عن عائشة رضى الله عنها قالت: «فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك.. الحديث».

ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى ؛ يتأول القرآن[١] .
وثبت فى الصحيح لمسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[٢] . وفى الصحيح أيضاً لمسلم عن ابن عباس قال : كشف النبى صلى الله عليه وسلم الستارة والناس صفوف خلف أبى بكر فقال : « يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشِّرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أوتُرَى له،ألا و إنى نُهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً . فأما الركوع فعظِّموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم»[٣] .

ففى هذين الحديثين أنه خص السجود بالأمر بالدعاء فيه . ولهذا كان من أهل العلم من يكره الدعاء فى الركوع دون السجود .

وحينئذ فأمْرُهم بالاستغفار وقولهم حِطَّة فى السجود أشبه ، فلم يثبت لنا إلى الآن أن الركوع يُسمِّى سجوداً بخلاف العكس ، فإنه قال فى حق داود :﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [سورة صٓ : ٢٤] . وقد ثبت بالنص الصحيح واتفاق الناس أن داود سجد ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً»[٤] . وفى صحيح مسلم عنه عن ابن عباس قال : « نبيكم ممن أُمِرَ أن يَقْتَدِىَ به، سجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٥] . وفى صحيح

---

(١) الحديث فى : البخارى ٢/١٥٩ (كتاب الصلاة ، باب التسبيح والدعاء فى السجود)؛ مسلم ٢ / ٥٠ .
(٢) الحديث فى مسلم ٢ / ٤٩ ـ ٥٠ .
(٣) الحديث فى مسلم ٢ / ٤٨ وفيه .. فقال : أيها الناس (كتاب الصلاة ، باب النهى عن قراءة القرآن فى الركوع والسجود) .
(٤) قال ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية من سورة صٓ بعد أن أورد الحديث : « تفرد بروايته النسائى ورجال إسناده كلهم ثقات » .
(٥) الحديث فى البخارى ٤ / ١٦١ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود) ، ٦ / ١٢٤ (كتاب التفسير ، سورة صٓ) : نصه : « عن مجاهد قلت لابن عباس : أسجدفى ص ؟ فقرأ : (ومن ذريته داود وسليمان) حتى أتى (فبهداهم اقتده) فقال : نبيكم صلى الله =

مسلم عنه أيضاً قال : «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها»[١] وفى الترمذى وغيره عن ابن عباس قال : « جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، وضع عنى بها وزراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ؛ فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم سجدة ص ثم سجد ، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل من قول الشجرة »[٢] .

والآثار عن السلف متواترة بأن داود سجد ، فكل ساجد راكعٌ وليس كل راكع ساجداً ، فإنه إذا سجد من قيام انحنى انحناء الراكع وزاد فإنه يصير ساجداً ،ولو صلَّى قاعداً أيضاً انحنى انحناءالركوعوزاد فإنهيصير ساجداً ، فالساجد راكع وزيادة ، فلهذا جاز أن يُسمَّى راكعاً وأن يُجعل الركوع نوعين : ركوعاً خفيفاً ، / وركوعاً تاماً ، فالقيام هو السجود ، بخلاف لفظ السجود فإنه إنما يستعمل فى غاية الذل والخضوع ، وهذه حال الساجد لا الراكع . ظ ٢٦

= عليه وسلم ممن أمر أن يقتدى بهم» . ولم يذكر النابلسى فى ذخائر المواريث ٢/ ٧٠ أنه فى غير البخارى ؛ وقال الشوكانى فى نيل الأوطار ٣ / ١٢٠ إن ابن خزيمة رواه".

(١) الحديث فى: البخارى ٢/ ٤٠ (كتاب الجمعة ، باب ماجاء فى سجود القرآن وسنتها) : « عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ص ليس من عزائم السجود وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » . وهو مروى فيه أيضا ٤ / ١٦١ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر عبدنا داود) . وقال النابلسى فى « ذخائر المواريث » ٢ / ٤٩ : إن الحديث فى البخارى فى الموضعين السابقين وفى سنن أبى داود فى الصلاة عن موسى بن إسماعيل وفى الترمذى فيه عن ابن أبى عمر وفى النسائى فيه عن إبراهيم بن الحسن المقسمى . ولم يذكر أنه فى مسلم . وقد ورد الحديث فى المسند (ط . المعارف) ٤ / ١٨٠ (رقم ٢٥٢١) ، ٥/ ١٣١ (رقم ٣٨٧) ولم يذكر المعلق رحمه الله أنه فى مسلم ، وكذا الشوكانى فى نيل الأوطار ٣ / ١١٩ .

(٢) ذكر الحديث ابن كثير فى تفسيره وقال : « رواه الترمذى عن قتيبة ، وابن ماجة عن أبى بكر بن خلاد ، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه ، وقال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه » . والحديث فى : الترمذى (بشرح ابن العربى) ٣/ ٦٠ (كتاب الصلاة ، باب ما يقول فى سجود القرآن) ؛ سنن ابن ماجة ١/ ٣٣٤ (كتاب إقامة الصلاة ، باب سجود القرآن) .

لـكن ليس من شرط السجود مطلقاً أن يصل إلى الأرض ، فقد ثبت فى الأحاديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى على راحلته قِبَلَ أى وجه توجَّهتْ به ، ويُوتر عليها ، غير أنه لا يصلى عليها المـكتوبة(١) .

وقد اتفق المسلمون على أن المسافر الراكب يتطوع على راحلته ويجعل سجوده أخفض من ركوعه وإن كان لا يسجد على مستقَرّ ، وكذلك الخائف ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣٩] يصلى إلى القبلة وإلى غير القبلة ، ويومىء بالركوع والسجود ولا يصل إلى الأرض .

فعُلم أن الهيئة المأمور بها فى السجود على الأرض وعلى سبعة أعضاء هى أكمل سجود ابن آدم ، وله سجود لا يسجد فيه على الأرض ولا على سبعة ، بل يخفض فيه رأسه أكثر من خفض الركوع ، ولهذا كان عند جمهور العلماء لو ركع فى سجود التلاوة بدلا عن السجود لم يُجْزِه ، ولـكن إذا كانت السجدة فى آخر السورة فله أن يفعل كما ذكره ابن مسعود أنه يكتفى بسجود الصلاة فإنه ليس بينه وبينه إلا الركوع ، وهذا ظاهر مذهب أحمد ومذهب أبى حنيفة وغيرهما ، لـكن قيل : إنه جعل الركوع مكان السجود ، والصحيح أنه إنما جعل سجود الصلاة هو المجزىء كما لو قرأ ، فإن الركوع عمل فيه فلم يجعل فصلاً ، لاسيما وهو مقدمة للسجود ، ومن الناس من قال فى قصة داود إنه خرّ ساجداً بعد ما كان راكعاً . وذكر أن الحسين بن الفضل قال لأبى عبد الله بن طاهر عن قوله : ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [سورة ص : ٢٤] ، هل يقال للراكع : خرّ ؟ قال : لا ، ومعناه نخرّ بعد ما كان راكعاً ، أى سجد .

---

(١) انظر ما ذكره الشوكانى فى نيل الأوطار : باب صلاة الفرض على الراحلة إلا لعذر ٢ / ١٤٨ - ١٥٠ ؛ باب تطوع المسافر على مركوبه حيث توجه به ٢ / ١٨٢ - ١٨٣ ؛ باب أن الوتر سنة مؤكدة وأنه جائز على الراحلة ٣ / ٣٥ - ٣٧ .

وهذا قول ضعيف ، والقرآن إنما فيه : ﴿ وَخَرَّ رَاكِعاً ﴾ لم يقل : خر بعد ما كان راكعاً ، ولا كان داود حين تحاكموا إليه راكعاً ، بل كان قاعداً معتدلا أو قائماً فخرّ ساجداً ، وسؤال ابن طاهر إنما يتوجه إذا أريد بالركوع انحناء القائم كركوع الصلاة ، وهذا لا يقال فيه خرّ .

والمراد هنا السجود بالسنّة واتفاق العلماء ، فالمراد خَرَّ ساجداً ، وسمّاه ركوعاً لأن كل ساجد راكع لا سيما إذا كان قائماً ، وسجود التلاوة من قيام أفضل ، ولعل داود سجد من قيام ، وقيل : خر راكعاً ليبين أن سجوده كان من قيام وهو أكمل ، ولفظ « خَرّ » يدل على أنه وصل إلى الأرض فجمع له معنى السجود والركوع ، والسجود عبادة تُفعل مجردة عن الصلاة كسجود الشجرة وسجود داود وسجود التلاوة والشكر وسجود الآيات[1] وغير ذلك ، وهل يشترط له شروط الصلاة ؟ على قولين ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر أنه قال : « كنت فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : يا أبا ذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى الله عز وجل فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد / قيل لها : ارجعى من حيث جئت ، فترجع إلى مطلعها فذلك مستقرها . ثم قرأ : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس : ٣٨] »[2] . ص ٢٧

---

(١) فى سنن أبى داود ١/٤٢٥ (كتاب الصلاة ، باب السجود عند الآيات) : « عن عكرمة قال : قيل لابن عباس : ماتت فلانة ، بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فخر ساجداً ، فقيل له : تسجد هذه الساعة ؟ فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم آية فاسجدوا ، وأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ؟ » .

(٢) الحديث بمعناه فى : البخارى ٩ / ١٢٥ (كتاب التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء) ؛ مسلم ١ / ٩٦ (كتاب الإيمان ، باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان) ؛ وانظر الدر المنثور ٥ / ٢٦٣ .

فقد أخبر فى هذا الحديث الصحيح بسجود الشمس إذا غربت واستئذانها ، وكذلك قال أبو العالية وغيره . قال أبو العالية : مافى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجداً حين يغيب ، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . ومعلوم أن الشمس لا تزال فى الفلك كما أخبر الله تعالى بقوله :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [سورة الأنبياء :٣٣] فهى لا تزال تسبح فى الفلك ، وهى تسجد لله وتستأذنه كل ليلة كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى تسجد سجوداً يناسبها ، وتخضع له وتخشع ، كما يخضع ويخشع كل ساجد من الملائكة والجن والإنس .

وكذلك قوله:﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [سورة الدخان: ٢٩]. بكاء كل شىء بحسبه، قد يكون خشية لله ، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن.

روى ابن أبى حاتم ، عن ابن وهب ، أخبرنى عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال : قال : عمرو ، يعنى ابن دينار : إنى ليلةً أطوف بالبيت ، إذ سمعت حنين رجل بين الأستار والكعبة وبكاءه وتضرعه ، فوقفت لأعرفه ، فذهب ليل وجاء ليل وهو كذلك حتى كاد يسفر فانكشف الستور عنه ، فإذا هو طاووس رضى الله عنه ، فقال : من هذا ، عمرو ؟ ! قلت : نعم أمتع الله بك ، قال : متى وقفت ههنا ؟ ، قال : قلت : منذ طويل . قال : ما أوقفك ؟ قلت : سمعت بكاءك . فقال : أعجبك بكائى[١] ؟ ، قلت : نعم ، قال : وطلع القمر فى حرف أبى قُبَيْس[٢] . قال : ورب هذه البنِيَّة[٣] إن هذا القمر ليبكى من

(١) « أعجبك بكائى » من « أعجبه الأمر : حمله على العجب منه ، وكسبه التعجب » انظر اللسان (عجب) .

(٢) فى معجم البلدان : « أبو قبيس بلفظ التصغير ، كأنه تصغير قبس النار ، وهو اسم الجبل المشرف على مكة . . . قيل : سمى باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبة . . . وهو أحد الأخشبين» . وانظر أيضا : معجم ما استعجم ٣ / ١٠٤٠ ؛ الجبال والأمكنة والمياه للزمخشرى ، ص ٧ ، ط . النجف ، ١٣٨١ / ١٩٦٢ .

(٣) فى اللسان : « والبنية ـ على فعيلة ـ الكعبة لشرفها إذ هى أشرف مبنى . . . وكانت تدعى بنية إبراهيم لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية » .

خشية الله ولاذنب له ، ولا يُسأل عما عمل ولايجازَى به ، فعجبتَ أن بكيتُ من خشية الله وأنا صاحب الذنوب ، وهذا القمر يبكى من خشية الله ، وقرأ ابن زيد : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَابُّ ﴾ [سورة الحج : ١٨] قال : فلم يستثن من هؤلاء أحداً حتى جاء ابن آدم استثناه فقال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] ، قال : والذى كان هو أحق بالشكر هو أكفرهم ، ثم قرأ : ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَابِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨] قال: وكذلك اختلفوا فى دينهم كما اختلف الأولون [١] .

السجود فى اللغة

ولفظ « السجود » يستعمل فى اللغة لخضوع الجامدات وغيرها ، كالبيت المعروف :

بِجَيْشٍ تَضِلُّ ٱلْبُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى ٱلْأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلحوافِرِ [٢]

---

(١) انظر لهذا الخبر والذى قبله : الدر المنثور ٤/٣٤٨ .

(٢) فى الأصل : بجيش تظل . والتصويب من المصادر المذكورة بعد . والبيت لزيد الخيل ، والرواية فيه مختلفة فهى تارة : بجمع ، وتارة : بجيش ، وفى الشطر الثانى : ترى الأكم منه ، وفى رواية : فيها ، وفى ثالثة : منها . قال الأستاذ محمود محمد شاكر فى تعليقه (تفسير الطبرى ٢/١٠٤) أن البيت فى : « الكامل ١/٣٥٨ ، والمعانى الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنبارى : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجرى : ١٩ ، ومجموعة المعانى : ١٩٢ وغيرها .

والباء فى قوله « بجمع » متعلقة ببيت سالف هو :

بنى عامرٍ هل تعرفونَ إذا غدَا ... أبو مِكْنَفٍ قد شَدَّ عقْدَ الدَّوَابِرِ ؟

والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين ، والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) الناحية . والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة ، وهى تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجاره . قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير : يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر » . وورد البيت مرة ثانية فى التفسير ٢ / ٢٤٢ (وانظر التعليق) .

قال ابن قتيبة[(١)]: «حجراته جوانبه ، يريد أن حوافر الخيل قد بلغت الأكم ووطئتها حتى خشعت وانخفضت » .

قال ابن عطية فى قوله: ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ [سورة النحل : ٤٨] : وقالت فرقة منهم الطبرى [(٢)] عبّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها [(٣)] بالسجود ، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على وجه الخضوع : ساجد ، / ومنه قول الشاعر : ظ ٢٧

وكلتا هُمَا خَرَّتْ وأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ [(٤)]

﴿ فصـــل ﴾

وإذا كان كذلك فالله سبحانه ذكر فى الرعد قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [سورة الرعد : ١٥] فعمّ فى هذه الآية ولم يستثن ، وقسّم السجود إلى طوع وكره . وقال فى الحج : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورة الحج : ١٨] .

وفى هذا « الكثير » قولان : أحدهما أنه لم يسجد فلهذا حــقّ عليه العذاب ، كما تقدم عن طاووس ، وهو قول الفرّاء وغيره . والثانى : أنه سجد وحق عليه العذاب ، فإنه ليس هو السجود المأمور به .

---

(١) فى « تأويل مشكل القرآن » ص ٢٣٢ (ط . عيسى الحلبى) وليس فيه عبارة : « حجراته جوانبه » وفيه : « قدقلعت الأكم » . وانظر تعليق الأستاذ السيد أحمد صقر .

(٢) انظر تفسير الطبرى (بولاق) ١٤ / ٧٩ .

(٣) فى الأصل : الظل ودورانها .

(٤) قال الأستاذ محمود محمد شاكر (تفسير الطبرى ٢/١٤٤) أن البيت لأبى الأخزر الحمانى ، وذكر أنه فى سيبويه ٢ / ٢٩ ، ١٠٤ ، واللسان (حنف) . وقال فى شرحه : « يصف ناقتين طأطأتا رءوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة فى طأطأتها برأس النصرانية إذ طأطأته فى صلاتها . وأسجد الرجل : طأطأ رأسه وخفضه وانحنى » .

قال أبو الفرج : « وفى قوله : ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ قولان : أحدهما : أنهم الكفار وهم يسجدون ، وسجودهم سجود ظلهم ، قاله مقاتل . والثانى : أنهم لا يسجدون ، والمعنى : وكثير من الناس أبى السجود ويحق عليه العذاب لتركه السجود ، هذا قول الفرّاء » .

قلت : ذا قول الأكثرين ، وقد ذكر البغوى[1] فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ـ قال: «قال مجاهد: سجودها تحول ظلالها ، وقال أبو العالية : ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له ، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه » . قال : « وقيل : سجودها بمعنى الطاعة ، فإنه ما من جماد إلا وهو مطيع لله خاشع له[2] مسبح له ، كما أخبر الله عز وجل عن السماوات والأرض : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [سورة فصلت: ١١] . وقال فى وصف الحجارة : ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] ، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤] .

قال : « وهذا مذهب حسن موافق لقول أهل السنة » .

قلت : قد تقدم قول الطبرى وغيره بهذا القول ، فإذا كان السجود فى هذه الآية ليس عامًا وهو هناك عام ، كان السجود المطلق هو سجود الطَّوْع . فهذه المذكورات تسجد تطوعاً هى وكثير من الناس ، والكثير الذى حقّ عليه العذاب إنما يسجد كرهاً ، وحينئذ فالكثير الذى حق عليه العذاب لم يقل فيه إنه يسجد ولا نفى عنه كل سجود ، بل تخصيص من سواه بالذكر يدل

---

(١) فى تفسيره ٥ / ٥٦٢ .

(٢) فى تفسير البغوى : خاشع لله .

على أنه ليس مثله ، وحينئذ فإذا لم يسجد طائعاً حصل فائدة التخصيص وهو مع ذلك يسجد كارهاً ، فكلا القولين صحيح . وكذلك قال طائفة من المفسرين ـ واللفظ للبغوى ـ قالوا ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ بكفرهم[1] وتركهم السجود ، وهم مع كفرهم تسجد ظلالهم لله تعالى .

وقال فى سورة النحل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٤٨ ـ ٥٠] قال : فلفظ « دابة » / إن لم يتناول بنى آدم ، فالإبل تسجد طوعاً ، وإن تناول بنى آدم فسجودهم طوعاً وكرهاً . ص ٢٨

﴿ فصــــل ﴾

والذين فسروا السجود بالخضوع والانقياد لهم فى سجودها قولان ، أحدهما : أنه كونها مصنوعة مخلوقة منقادة لمشيئة الله واختياره ، كما قالوا فى تسبيحها مثل ذلك ، وأنه شهادتها ودلالتها على الخالق . قال أبو الفرج فى قوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة الرعد : ١٥] : الساجدون على ضربين : أحدهما : من يعقل فسجوده عبادة . والثانى : من لا يعقل فسجوده بيان أثر الصنعة فيه والخضوع الذى يدل على أنه مخلوق ، هذا قول جماعة من العلماء واحتجوا بالبيت المتقدم :

* ترى الأكم فيه سجداً للحوافر *

قال : وأما الشمس والقمر والكواكب فألحقها جماعة بمن يعقل ، قال

---

(١) فى تفسير البغوى ٥ / ٦٣ « وهم الكفار لكفرهم » .

أبو العاليه : سجودها حقيقة مامنها غارب إلا خرّ ساجداً بين يدى الله عز وجل ثم لا ينصرف حتى يؤذن له . قال : ويشهد لقول أبى العاليه حديث أبى ذر ، وذكره . قال : وأما النبات والشجر فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء ،أحدها: أن يكون سجوداً لانعلمه ، وهذا إذا قلنا بردعه فيهما[1] . والثانى : أنه تفيؤ ظلاله . والثالث : بيان الصنعة فيه . والرابع : الانقياد لما سخر له .

قلت : الثالث والرابع من نمط واحد وهو كالمتقدم ، وأما السجود الذى لانعلمه فهو كما ذكره البغوى وقال البغوى أيضاً فى قوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٧٤] فإن قيل : الحجر لايفهم فكيف يخشى ؟! ، قيل : الله يفهمها ويلهمها فتخشى بإلهامه . قال : ومذهب أهل السنة أن لله علماً فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لايقف عليه غيره ، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ والطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وتَسْبِيحَهُ ﴾ ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ ﴾ . الآية ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله تعالى ، وذكر الحديث الصحيح عن جابر بن سَمُرَةَ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، وإنى لأعرفه الآن[2] ، وذكر حديث حنين الجذع ، وطرقه صحاح مشهورة[3] . وروى عن السدى ،

---

(١) بردعه فيهما : كذا بالأصل .

(٢) الحديث فى مسلم ٧ / ٥٨ ـ ٥٩ (كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبى صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة) . وذكره الطبرى فى تفسيره ٢ / ٢٤١ / (ط. المعارف) (وانظر التعليق) . وهو فى مسند جابر بن سمرة رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٥ / ٨٩ ، ٩٥، ١٠٥ ؛ مسند الدارمى ١ / ١٢ .

(٣) روى البخارى فى صحيحه ٥ / ١٩٥ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) عن ابن عمر رضى الله عنهما : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه » ورواه من طرق أخرى عنه وعن جابر =

عن أبى عبّاد بن [أبى] يزيد[1] عن على قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا فى نواحيها خارجا من مكة بين الجبال والشجر ، فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال : السلام عليك يارسول الله[2] . وقال : قال مجاهد : لاينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله . ويشهد لما قلنا قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [سورة الحشر : ٢١] .

قلت : وأما تفسير سجودها وتسبيحها بنفوذ مشيئة الرب وقدرته فيهما ودلالتها على الصانع فقط فالاقتصار على هذا باطل ، فإن هذا وصف لازم دائم لها لايكون فى وقت دون وقت ، وهو مثل كونها مخلوقة محتاجة فقيرة إلى الله تعالى ، وعلى هذا فالمخلوقات كلها لاتزال ساجدة مسبِّحة ، وليس المراد هذا فإنه قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [سورة ص : ١٨] ، وقال : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٩] ، وقال : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [سورة النور : ٤١] ، فقد أخبر سبحانه وتعالى عنه أنه يعلم ذلك ، ودلالتها على الرب يعلمه عموم الناس .

وأيضا فقد أخبر الله تعالى فى القرآن من كلام الهدهد والنمل ، وأن سليمان

= رضى الله عنهما . والحديث مروى فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٣ / ١١١ (كتاب المناقب ، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفى) وعن أنس بن مالك وأبى وجابر وغيرهم . وهو فى المسند (ط . المعارف) عن ابن عباس وأنس وابن عمر رضى الله عنهم . انظر الأرقام ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٤٠٠ ، ٢٤٠١ ، ٢٤٣٠ - ٢٤٣٢ ، ٥٨٨٦ . وانظر تفسير الطبرى ٢ / ٢٤١ ؛ البداية والنهاية ٦ / ١٢٥ - ١٣٢ ؛ فتح البارى ٦ / ٤٤٣ .

(١) فى الأصل : عباد بن يزيد . والتصويب من سنن الترمذى . وذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب ٥ / ١٠٩ . وقال روى عن على وفيه إسماعيل السدى . وروى له الترمذى حديثا واحدا واستغربه .

(٢) الحديث بمعناه فى : الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٣ / ١١١ (كتاب المناقب ، باب حدثنا عباد بن يعقوب الكوفى) وقال : « هذا حديث غريب . وقال : عن عباد بن أبى يزيد » ؛ سنن الدارمى ١ / ١٢ .

عُلِّم منطق الطير بما يدل على الاختصاص ، وهذا فى الحيوان .

وأيضاً فإنه جعل الجميع يسجد ثم قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [سورةالحج:١٨] وهذا المعنى يشترك فيه جميع المخلوقات دائما ، وهو وصف لازم لكل مخلوق : لا يزال مفتقراً إلى الخالق ، ولا يزال دالاً عليه ، ولا يزال منقاداً لما يشاء الرب .

وأيضاً فإنه قسم السجود إلى طوع وكره ، وانفعالها لمشيئة الرب وقدرته لا ينقسم إلى طوع وكره ، ولا يوصف ذلك بطوع منها ولا كره ، فإن دليل فعل الرب فيها ، ليس هو فعل منها ألبتة .

والقرآن يدل على أن السجود والتسبيح أفعال لهذه المخلوقات ، وكون الرب خالقاً لها إنما هو كونها مخلوقة للرب ليس فيه نسبة أمر إليها ، يبين ذلك أنه خصّ الظل بالسجود بالغدو والآصال ، والظل ـ متى كان وحيث كان ـ مخلوق مربوب ، والله تعالى جعل الظلمات والنور ، والقول الذى ذكره البغوى أقرب من القول الذى ذكره أبو الفرج ، وهو سبحانه تارة يجعلها آيات له ، وتارة يجعلها ساجدة مسبحة ، وهذا نوع غير هذا .

وعلى هذا القول : الجميع واحد ، ليس فى كونها ساجدة مسبِّحة إلا كونُها آيةً دالة وشاهدة للخالق تعالى بصفاته لكونها مفعولة له ، وهذا معنى ثابت فى المخلوقات كلها لازم لها ، وهى آيات للرب بهذا الاعتبار ، وهى شواهد ودلائل وآيات بهذا الاعتبار ، لكن ذاك معنى آخر كما يفرِّق بين كون الإنسان مخلوقاً وبين كونه عابداً لله ، فهذا غير هذا ، هذا يتعلق بربوبية الرب له ، وهذا يتعلق بتألهه وعبادته للرب .

والبيت الذى استشهدوا به وهو قوله :

* ترى الأُكم فيها سُجَّدًا للحوافِرِ *

فإنما ذكر سجود الأكم للحوافر ، وذلك خضوعها وانخفاضها لها ، فهذا خضوع جماد لجماد ، ولا يلزم أن يكون سائرُ أنواع الخضوع مثلَ هذا ، وإنما يشترك فى نوع الخضوع ، وليس خضوعُ المخلوقات للخالق مثلَ هذا ، وإن قيل : هو انفعالها لمشيئته وقدرته ، بل ذاك نوع أبلغ من هذا ، فلا يجب أن يكون سجودها بغير خضوع منها وطاعة ؛ ولكن هذا البيت يقتضى أنه لا يجب أن يكون سجودُ كلٍّ شىء وضعَ رأسه بالأرض ، وهذا حق ، بل هو خضوع للرب يناسب حاله ، وقد قيل لسهل بن عبد الله : أيسجد القلب ؟ قال : نعم ، سجدة لا يرفع رأسه منها أبداً . وأهل الجنة فى الجنة قد أُلهِمُوا التسبيح كما ألهموا النَّفَس فى الدنيا ، وكما يلهم أهل الدنيا النَّفَسَ وهم خاضعون للرب مطيعون له ، وليس هناك سجود بوضع رأس فى الأرض ، فهذا أُمر به فى الدنيا لحاجة النفس إليه فى خضوعها لله تعالى ، فلا تكون خاضعةً إلا به ، بخلاف حالها فى الجنة فإنها قد زكت وصلحت .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما[1] .

---

(١) كتب أسفل هذا الكلام : « بلغ مقابلة » .

رِسَالة في لفظِ السُّنَّةِ في القرآن



٦٤ ط

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، وعليه التكلان

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليما .

ما بعد ، فهذا :

﴿ فصـــل ﴾

لفظ السنن في مواضع من القرآن

اعلم أنه قد ذكر الله تعالى لفظ سننه في مواضع من كتابه فقال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٨] ، وقال تعالى فى آخر السورة : ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب : ٦١ ، ٦٢] .

وقال : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [سورة فاطر : ٤٣] .

وقال : ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر : ٨٥] .

وقال : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا * سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة الفتح : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [سورة آل عمران : ١٣٧][1] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الكهف : ٥٥] .

سنته نصرة أوليائه وإهانة أعدائه

فهذه كلها تتعلق بأوليائه : كمطيعيه وعصاته ، كالمؤمنين والكافرين ؛ فسنته فى هؤلاء إكرامهم ، وسنته فى هؤلاء إهانتهم وعقوبتهم .

الآية الأولى

فأما الأولى[2] فإنها تتعلق بالرسل لأنه لا حرج عليهم فيما فرض الله تعالى لهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [سورة التحريم : ٢] ، والمفروض هنا مباح مقدر محدود مثل إباحة زوجة المُتَبَنَّى بعد أن قضى منها وطراً وطلقها ، لا بأن تُؤخذ[3] منه بغير اختياره ، وقد قال تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ [سورة الأحزاب : ٥٠] ، أى أوحينا وحرّمنا قبلُ .

وهنا المراد به سنته فى رسله : أنه أباح لهم الأزواج وغيرها ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [سورة الرعد: ٣٨]، وأنه لاحرج عليهم فى ذلك ، فلم يكن محمدٌ صلّى الله عليه وسلم بِدْعاً من الرسل ، ولم يقل هنا : ولن تجد لسنتنا تبديلا ، فإنه لا نبى بعد محمد .

الأربعة البواقى:

والأربعة البواقى تتضمن عقوبة الكفّار والمنافقين ، فالأولى[4] : قوله :

---

(١) الآية بتمامها : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرضِ فانظروا كيفَ كانَ عاقبةُ المكذِّبينَ ﴾ .

(٢) فى الأصل : الأول . والكلام هنا عن الآية ٣٨ سورة الأحزاب .

(٣) فى الأصل : يؤخذ .

(٤) فى الأصل : فالأول . والإشارة فيما يلى من الكلام إلى الآية ٧٦ من سورة الإسراء وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهى التى تسبق آية ٧٧ من سورة الإسراء التى ذكرها أولا .

الأولى إنهم لو استفزُّوه فأخرجوه لم يلبثوا خلفه إلا قليلا كسنة من أرسل قبله من الرسل ؛ فإما أن يُقال : وقع هذا الإخراج بالهجرة ولم يلبثوا خلفه إلا قليلا ، وهو ما أصابهم يوم بدر ، وإما أن يقال : لم يقع .

الثانية والثانية : قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ الآية [سورة الأحزاب : ٦٠] [1] ، كما أصاب من قبلهم من أهل الكتاب ، فإن الله أخرجهم ، فإن لم ينته غيُّ[2] هؤلاء ، بل أظهروا الكفر كما أظهره أولئك ـ أخرجناهم كما أخرجناهم / بخلاف ما إذا كتموه .

ص ٦٥

وهذه السنة تتضمن أن كل من جاور الرسول صلى الله عليه وسلم متى أظهر مخالفته مكّن الله الرسول من إخراجه . وهذه فى أهل العَهْدِ والمنافقين ، وقد يقال : هى لهم مع المؤمنين أبداً .

الثالثة والثالثة : فى أهل المكر السيىء ، وأن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا على أعدائهم وينتقم منهم . وقال هنا : ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾[3] .

الرابعة والرابعة : فى حال الكفار مع المؤمنين[4] .

---

(١) الآية بتمامها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والْمُرْجِفُونَ فى المدينةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بهم ثم لا يُجَاوِرُونَكَ فيها إلا قليلا ﴾ .

(٢) الكلمة فى الأصل مطموسة وكذا استظهرتها .

(٣) الكلام يتضح هنا إذا أوردنا الآيتين ٤٢ ، ٤٣ من سورة فاطر بتمامهما . يقول تعالى: ﴿ وأقسموا باللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِم لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِن إحدى الأمم فلما جاءهم نذيرٌ ما زادهم إلا نفورا * استكباراً فى الأرضِ ومَكْرَ السَّيِّءِ ولا يَحِيقُ المكرُ السيء إلا بأَهْلِهِ فهل ينظرونَ إلا سنةَ الأوَّلينَ فلن تجدَ لسنةِ اللهِ تبديلاً ولن تجدَ لسنةِ اللهِ تحويلا ﴾ .

(٤) السنة الرابعة هى التى ذكر أمثلة لها الآيات : ٨٥ من سورة غافر ؛ ٢٢ ، ٢٣ من سورة الفتح ؛ ١٣٧ من سورة آل عمران ؛ ٥٥ من سورة الكهف .

السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية ينقضها الله إذا شاء

وهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته فى الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات ، فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاء من الحِكَم : كما حبس الشمس على يوشع ، وكما شقَّ القمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكما ملأ السماء بالشهب ، وكما أحيا الموتى غير مرة ، وكما جعل العصا حيَّةً ، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا ، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر بعض هذه الآيات السهروردى فى المنقول فى « الألواح العمادية » وفى « المبدأ والمعاد »[١] محتجًّا بها على ما يقوله هو وأمثاله من المتفلسفة : أن العالم لم يزل ولا يزال هكذا ، بناء على أن هذه سنة الربِّ عز وجل وعادته وهى لا تبديل [لها][٢] ، إذ كان عندهم ليس فاعلاً بمشيئته واختياره ، بل موجب بذاته .

فيقال لهم : احتجاجكم على هذا بالقرآن فى غاية الفساد ، فإن القرآن يصرح بنقيض مذهبكم فى جميع المواضع ، وقد عُلم بالاضطرار أن ما يقولونه مخالف لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاحتجاجكم بهذا أفسد من احتجاج النصارى على أن محمداً شهد بأن دينهم بعد النسخ والتبديل حق بآيات من القرآن حرَّفوها عن مواضعها ، قد تكلمنا عليها فى « الجواب الصحيح لمن بدَّل

---

(١) فى الأصل : « فى الألواح العادية فى المبدأ والمعاد » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته ، فإن للسهروردى كتابا عنوانه « الألواح العمادية » فى العلوم الحكمية ومصطلحاتها (وقد ألفه إجابة لطلب الملك عماد الدين قره أرسلان بن داود) ، وآخر بعنوان « المبدأ والمعاد » .
انظر ما ذكره الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى فى مقالة : آثار السهروردى المقتول ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، مايو سنة ١٩٥١ م وانظر له أيضاً : التعليق على مقالة « السهروردى » فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) لها : زيادة يقتضيها السياق .

دين المسيح »[1] فإن النصارى وإن كانوا كفَّاراً بتبديل الكتاب الأول وتكذيب الثانى ، فهم خير منكم من وجوه كثيرة ، فإنهم يقولون بالأصول الكليّة التى اتفقت عليها الرسل ، وإن كانوا حرَّفوا بعض ذلك ، كالإيمان بأن الله خالق كل شىء ، وأنه بكل شىء عليم وعلى كل شىء قدير ، والإيمان بملائكته ورسله واليوم الآخر والجنة والنار وغير ذلك مما تكذِّبون أنتم به .

الأدلة على ذلك

وأما بيان الدلالة فمن وجوه :

الأول

أحدها : أن يُقال : العادات الطبيعية ليس للربِّ فيها سنة لازمة ، فإنه قد عُرف بالدلائل اليقينية أن الشمس والقمر والكواكب مخلوقة بعد أن لم تكن ، فهذا تبديل وقع . وقد قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٤٨] .

الثانى

وأيضاً ، فقد عُرف انتقاض عامة العادات ، فالعادة فى بنى آدم ألاَّ يُخلقوا إلا من أبوين ، وقد خُلق المسيح من أم ، وحوّاء من أب ، وآدم من غير أم ولا أب ، / وإحياء الموتى متواتر مرات مُتعدِّدة[2] ، وكذلك تكثير الطعام والشراب لغير واحد من الأنبياء والصالحين عليهم السلام .

ظ ٦٥

الثالث

وأيضا ، فعندكم تغيّرات وقعت فى العالم كالطوفانات الكبار فيها تغيير العادة .

وهذا خلاف عادته التى وعد بها وأخبر أنها لا تتغير لنصرة أوليائه وإهانة أعدائه ، فإن هذا عُلم بخبره وحكمته .

أما خبره فإنه أخبر بذلك ووعد به ، وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد ،

---

(١) كتاب « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » ، ويسمى أحيانا « الرد على النصارى » يقع فى ٤ أجزاء ، وقد طبع بمطبعة النيل سنة ١٣٢٣ / ١٩٠٥ ، وطبع مرة ثانية بمطبعة المدنى سنة ١٣٧٩/١٩٥٩ .

(٢) فى الأصل : معددة .

وهذا يوافق طرق جميع طوائف أهل الملل ، ويقولون : مقتضى حكمته أن يكون العاقبة والنصر لأوليائه دون أعدائه ، كما قد بُسط ذلك فى مواضع .

وأما الأمور الطبيعية فإما أن تقع بمحض المشيئة على قولٍ ، وإما أن تقع بحسب الحكمة والمصلحة على قول . وعلى كلا التقديرين فتبديلها وتحويلها ليس ممتنعاً كما فى نسخ الشرائع وتبديل آيةٍ بآيةٍ ، فإنّه إن علّق الآية بمحض المشيئة فهو يفعل ما يشاء ، وإن علقها بالحكمة مع المشيئة ، فالحكمة تقتضى[1] تبديل بعض ما فى العالم ، كما وقع كثير من ذلك فى الماضى وسيقع فى المستقبل ؛ فعُلم أن هذه السنن دينيات لا طبيعيات .

ولكن فى قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ حُجة للجمهور القائلين بالحكمة ، فإن أصحاب المشيئة المجردة يجوِّزون نقض كل عادةٍ ، ولكن يقولون : إنما نعلم ما يكون بالخبر .

سنته تعالى مطردة فى الدينيات والطبيعيات

وقوله تعالى : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ دليلٌ على أن هذا من مقتضى حكمته ، وأنه يقضى فى الأمور المتماثلة بقضاء متماثل لا بقضاء مخالف[2] ، فإذا كان قد نصر المؤمنين لأنهم مؤمنون كان هذا موجباً لنصرهم حيث وجد هذا الوصف ، بخلاف ما إذا عَصَوْا ونقضوا إيمانهم كيوم أُحُد فإن الذنب كان لهم ، ولهذا قال : ﴿ ولَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ فعمَّ كل سنة له ، وهو يعمُّ سنته فى خلقه وأمره ، فى الطبيعيات والدينيات .

نقض العادة لاختصاص معين

لكن الشأن أن تُعرف[3] سنته ، وحقيقة هذا أنه إذا نقض العادة فإنما ينقضها لاختصاص تلك[4] الحال بوصف امتازت به عن غيره ، فلم تكن سنته

---

(١) فى الأصل : يقتضى .
(٢) فى الأصل : وأنه يقضى فى الأمور المتماثلة مقضى متماثل لا يقضى مخالف
(٣) فى الأصل : يعرف ، وهو جائز .
(٤) فى الأصل : ذلك .

مع ذلك ، والاختصاص بسنته مع عدمه ، كما نقول إذا خُصَّت العلة لفوات شرط أو وجود مانع ، وكما نقول[1] فى الاستحسان الصحيح ، وهو تخصيص بعض أفراد العام بحكم يختص به لامتيازه عن نظائره بوصف يختص به .

السنة هى العادة

والسُّنَّةُ هى العادة فى الأشياء المتماثلة ، و « سُنّة » هنا تجرى على «سَنَهَ» ، هذا فى الاشتقاق الأكبر ، و « السَّنَةُ » من هذا الباب ، سواء كان أصله « سَنْوَة » أو « سَنْهَة » وهما لغتان فى السَّنة[2] .

و « السنن » و « أسنان المشط » ونحو ذلك بلفظ « السُّنَّة » يدل على التماثل ، فإنه سبحانه إذا حكم فى الأمور المتماثلة بحكم / فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول ، بل هو سبحانه لا يُفَوِّت بين المتماثلَيْن ، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل ؛ وهذا القول أشبه بأصول الجمهور القائلين بالحكمة فى الخلق والأمر ، وأنه سبحانه يسوِّى بين المتماثلَيْن ويفرِّق بين المختلفَيْن ، كما دلّ القرآن على هذا فى مواضع كقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة القلم : ٣٥] .

ص ٦٦

ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرةً لنا ، ولولا القياس واطّراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها . والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشىء حكم نظيره ، كالأمثال المضروبة فى القرآن ، وهى كثيرة .

وذكر لفظ التبديل والتحويل كقوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦] ، فالتبديل أن تُبدَّل بخلافه ، والتحويل أن تحوِّل من محلٍ إلى محل[3] ،

(١) فى الأصل : وكما يقول .
(٢) فى الأصل : « وسنة هذا تجرى على سنة هذا فى الاشتقاق الأكبر والسنة من هذا الباب سواء كان أصله سنوه أو سنهة وهى لغتان فى السنة » . وأرجو أن يكون ما أثبته مبيناً المقصود .
(٣) فى الأصل : عمل .

مثل استفزازه من الأرض ليخرجوه فإنهم لايلبثون خلفه إلا قليلا ، ولا تتحول هذه السنة بأن يكون هو المخرَج وهم اللابثون ، بل متى أخرجوه خرجوا خلفه ، ولو مكث لكان هذا استصحاب حال ، بخلاف ظهور الكفّار فإنه كان تبديلا لظهور المؤمنين وظهور الكفّار إذ كان لابد من أحدهما .

وأمّا أهل المكر السّيّئ والكفّار فهى سنة تبديل ، لابد لهم من العقوبة لايُبدَّلون بها غيرها ولاتتحول[1] عنهم إلى المؤمنين ، وهو وعيد لأهل المكر السيء أنه لايحيق إلا بأهله ولن يتبدّلوا به خيراً : يتضمن نفيًا وإثباتاً ، فلهذا نَفَى عنه التبديل والتحويل .

﴿ فصـــل ﴾

والقرآن قد دلّ على هذا الأصل فى مواضع كقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٧] ، وقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [سورة هود : ١٠٢] ، وقوله : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰئِكُمْ ﴾ [سورة القمر : ٤٣] . ومنه قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] ، وقوله:﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ﴾ [سورة آل عمران : ١٣] إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣] .

﴿ فصـــل ﴾

وقد أخبر سبحانه أنه تارة يعاقبهم عَقِبَ السرّاء وتارة يعاقبهم عقب

---

(١) فى الأصل : ولا يتحول .

الضرَّاء إذا لم يتضرعوا، فقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى قوله : ﴿مُبْلِسُونَ﴾ [سورة المؤمنون : ٧٦ ــ ٧٧] فهنا أخبر أنهم بالعذاب الأدنى مااستكانوا وما تضرعوا حتى أخذهم بالإهلاك كما قال : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة السجدة:٢١] ، وقال : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٦] ، والضمير يكون عائداً على الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقال فى سورة الأنعام : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّاءِ﴾إلى قوله ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنعام:٤٢ـ٤٥] . فهذه نظيرها فى الأعراف فى قوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ الآيات [سورة الأعراف : ٩٤ــ٩٥] ، فقد ذمهم أنهم لم يتضرعوا لمَّا أخذهم بالبأساء والضرَّاء / فإنه بعد هذا بدَّل الحالة السيئة بالحالة الحسنة فلم يطيعوا فأخذهم بالعذاب بغتةً ، فهنا أخذهم أولاً بالضراء ليضَّرَّعوا فلم يتضرعوا ، فابتلاهم الله بالسرَّاء ليطيعوا فلم يطيعوا ، فأخذهم بالعذاب . وهذا كقوله تعالى : ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[سورة الأعراف:١٦٨] ، فهؤلاء ابتلوا بالضرَّاء أولاً ثم بالسراء ثانيا[1] . وقد أخبر أنه ما أرسل فى قريةٍ من نبيٍّ إلا كانوا هكذا .

ظ ٦٦

---

(١) فكرة ابن تيمية هنا لا تتضح تماما إلا إذا ذكرنا الآيات بتمامها ، ففى سورة الأنعام : (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) . وفى سورة الأعراف : (وماأرسلنافى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون * ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهملايشعرون) .

وهذا كما ذكره سبحانه فى حال قوم فرعون وغيرهم ، وهذا ذمٌّ لمن لم يستقم لافى الضراء ولافى السرّاء ، لادعَا بالضرّاء ولا بالسرّاء ، ولا تضرّع فى الضرّاء ، ولاشكر ولا آمن فى السرّاء ؛ ابتلاهم بالحسنات : وهى النعم ، والسيئات : وهى المصائب ، فما أطاعوا لافى هذا ولا فى هذا .

وأما آية المؤمنين فأمراؤهم[1] لم يستكينوا ولم يتضرعوا حتى فَتَح عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون . وهؤلاء قد يكون تقدم لهم ابتلاء بالحسنات أولا ، فإنه قال فى أول الكلام : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١] إلى قوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ [الآية : ٦٤] إلى قوله : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ [الآيتان : ٧٥ ، ٧٦] .

فهؤلاء كانوا فى حالةٍ حسنةٍ فلما[2] لم يتقوه أخذ مترفيهم بالعذاب ، ثم أخذهم بالعذاب ليتضرعوا ، فلما لم يتضرعوا[3] ابتلاهم بالحسنات أولا ، فلما لم يتّقوه استحقوا العذاب ؛ فيُعتبر الفرق بين هؤلاء وهؤلاء .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلّم تسليما .

---

(١) فى الأصل : فأمرائهم .
(٢) فى الأصل : فما .
(٣) فى الأصل : فلم يتضرعوا .

رسالة في قصة شعيب عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

أما بعد ، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى قصة شعيب النبي صلى الله عليه وسلم فى غير موضع من كتابه وإرساله إلى أهل مدين ، وقال فى موضع آخر : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ١٧٦] ، فأكثر الناس يقولون : إنهم أهل مدين ، ومن الناس من يجعلها قصتين .

شيخ مدين لم يكن شعيباً

وذكر فى قصة موسى أنه : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ الآية [سورة القصص : ٢٣] إلى آخر القصة . فموسى عليه السلام قضى أكمل الأجلين ، ولم يُذكر عن هذا الشيخ أنه كان شعيباً ولا أنه كان نبيًا ، ولا عند أهل الكتابين أنه كان نبيًا ، ولا نُقل[1] عن أحد من الصحابة أن هذا الشيخ الذى صاهر موسى كان شعيباً النبي : لا عن ابن عباس ولا غيره ، بل المنقول عن الصحابة أنه لم يكن هو شعيب .

قال سُنَيْد بن داود شيخ البخارى فى تفسيره[2] بإسناده عن ابن عباس

---

(١) فى الأصل : ولا يقل ، وهو تحريف .

(٢) أبو على سنيد (الحسين) بن داود المصيصى المحتسب الحافظ . قال الذهبي فى تذكرة الحفاظ : « اسمه الحسين كان أحد أوعية العلم ... مات سنيد سنة ست وعشرين ومائتين . وقفت على تفسيره » . وانظر ترجمة سنيد فى : تذكرة الحفاظ ٢/٤٥٩ ـ ٤٦٠ ؛ ميزان الاعتدال ٢/٢٣٦ ؛ تقريب التهذيب ١/٣٣٥ .

قال : اسمه يثرى . قال حجّاج[1] وقال غيره : يثرون . وعن شعيب الجبائى[2] أنه قال : اسم الجاريتين ليّا وصَفُوره[3] . وامرأة موسى صَفُوره ابنة يثرون كاهن مدين ، والـكاهن الحبر . وفى رواية عن ابن عباس أن اسمه يثرون أو يثرى .

وقال ابن جرير[4] : اسم إحدى[5] الجاريتين ليا ، ويقال : شرفا ، والأخرى صفورة . وقال أيضاً : وأما أبوهما فمختلف فى اسمه ، فقال بعضهم : اسمه يثرون . وقال ابن مسعود : الذى استأجر موسى ابن أخى شعيب يثرون . وقال أبو عبيدة : هو يثرون ابن أخى شعيب النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال آخرون : اسمه يثرى . وهو منقول عن ابن عباس .

وقال الحسن : يقولون : هو شعيب النبى ، لا ، ولـكنه سيد أهل الماء يومئذ.

قال ابن جرير : « وهذا لا يُدرك علمه إلا بخبر عن معصوم ، ولا خبر فى ذلك »[6] .

---

(١) هو أبو محمد حجاج بن محمد الأعور المتوفى سنة ٢٠٦ . قال ابن سعد : « وكان ثقة صدوقا إن شاء الله ، وكان قد تغير فى آخر عمره حين رجع إلى بغداد » . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٧/٣٣٣ ، ٤٨٩ ؛ الجرح والتعديل جـ ١ ، ق ٢ ، ص١٦٦ .

(٢) رسم الاسم فى الأصل : « شعيب الحبايى » . وهو شعيب الجبائى ، وكذا ورد اسمه فى : تفسير الطبرى (ط . بولاق) ٢٠ / ٢٩ ؛ تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٥ ؛ العلل ومعرفة الرجال لأحمد بن حنبل ١/٦٩ ــ ٧٢ . وقال عنه ابن أبى حاتم (الجرح والتعديل جـ ٢ ، ق ١ ، ص ٣٥٣) : « يمانى يروى عن الـكتب . روى عنه سلمة بن وهرام ، سمعت أبى يقول ذلك . قال أبو محمد : هو شعيب بن الأسود » .

(٣) صفوره : كذا فى الأصل ، والذى فى تفسير الطبرى ٢٠ / ٣٩ ، ٤٠ ؛ وفى تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٥ ؛ وفى الدر المنثور ٥ / ١٢٥ : « صفورا » . وأورد السيوطى فى الدر المنثور ٥/١٢٦ رواية أخرى جاء فيها : صفيرا .

(٤) انظر تفسير الطبرى (ط . بولاق) ٢٠/٣٩ ، ٤٠ .

(٥) فى الأصل : أحد .

(٦) الذى فى تفسير الطبرى ٢٠ / ٤٠ : « وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ، ولا خبر بذلك تجب حجته » .

وقيل : اسمه أثرون[١] .

فهذه كتب التفسير التى تروى بالأسانيد المعروفة عن النبى صلى الله عليه وسلم والتابعين لم يذكر فيها عن أحد أنه شعيب النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقلوا بالأسانيد الثابتة عن الحسن البصرى أنه قال : « يقولون إنه شعيب وليس بشعيب ، ولكنه سيد الماء يومئذ »[٢] .

فالحسن يذكر أنه شعيب عمّن لايعرف ، ويرد عليهم ذلك ، ويقول : ليس هو شعيب .

وإن كان الثعلبى قد ذكر أنه شعيب فلا يُلتفت إلى قوله ، فإنه ينقل الغث والسمين . فمن جزم بأنه شعيب النبى فقد قال ماليس له به علم وما لم ينقل / عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عمّن يُحتج بقوله من علماء المسلمين ، وخالف فى ذلك ماثبت عن ابن عباس والحسن البصرى ، مع مخالفته أيضا لأهل الكتابين فإنهم متفقون على أنه ليس هو شعيب النبى ، فإن مافى التوراة التى عند اليهود والإنجيل الذى عند النصارى أن اسمه يثرون ، وليس لشعيب النبى عندهم ذكر فى التوراة .

ظ ٧٩

كان شعيب عربيا وموسى عبرانياً

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن شعيباً كان عربيًا ، بل قد رُوى عن أبى ذر مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم - رواه أبو حاتم وغيره - أن شعيباً كان عربيًا ، وكذلك هود وصالح ، وموسى كان عبرانيا ، فلم يكن يعرف لسانه[٣] ،

---

(١) فى الدر المنثور ٥/١٢٦ : « وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة قال : كان صاحب موسى عليه السلام أثرون ابن أخى شعيب عليه السلام » .

(٢) قال السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٢٦ : « وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن رضى الله عنه قال : يقول ناس إنه شعيب وليس بشعيب ولكن سيد الماء يومئذ » . وأخرجه الطبرى فى تفسيره ٢٠/٤٠ .

(٣) فى الأصل : بلسانه .

وظاهر القرآن يدل على مخاطبة موسى للمرأتين وأبيهما بغير ترجمان .

وإنما شبهة من ظن ذلك أنه وجد فى القرآن قصة شعيب وإرساله إلى أهل مدين ، ووجد فى القرآن مجىء موسى إلى مدين ومصاهرته لهذا ، فظن أنه هو .

والقرآن يدل أن الله أهلك قوم شعيب بالظُّلَّة ، فحينئذ لم يبق فى مدين من قوم شعيب أحد ، وشعيب لايقيم بقرية ليس بها أحد . وقد ذكروا أن الأنبياء كانوا إذا هلكت أممهم ذهبوا إلى مكة فأقاموا بها إلى الموت ، كما ذُكر أن قبر شعيب بمكة ، وقبر هود بمكة ، وكذلك غيرهما .

وموسى لما جاء إلى مدين كانت معمورة بهذا الشيخ الذى صاهره ، ولم يكن هؤلاء قوم شعيب المذكورين[1] فى القرآن ، بل ومن قال : إنه كان ابن أخى شعيب أو ابن عمه لم ينقل ذلك عن ثبت ، والنقل الثابت عن ابن عباس لايعارض بمثل قول هؤلاء .

وما يذكرونه فى عصا موسى ، وأن شعيباً أعطاه إياها ، وقيل : أعطاه إياها هذا الشيخ ، وقيل : جبريل . وكل ذلك لا يثبت .

وعن أبى بكر ــ أظنه الهذلى ــ قال : سألت عكرمة عن عصا موسى ، قال : هى عصا خرج بها آدم من الجنة ، ثم قبضها بعد ذلك جبريل فلقى بها موسى ليلاً فدفعها إليه .

وقال السُّدى فى تفسيره المعروف : أمر أبو المرأتين ابنته أن يأتى موسى بعصا ، وكانت تلك العصا عصا استودعها مَلَكٌ فى صورة رجل ، إلى آخر القصة ، استودعه إياها مَلَكٌ فى سورة رجل ، وأن حماه[2] خاصمه ، وحكّما بينهما رجلاً ،

---

(١) فى الأصل : المذكورون ، وهو خطأ .
(٢) فى الأصل : حموه ، وهو خطأ .

وأن موسى أطاق حملها دون حميه[١] ، وذكر عن موسى أنه أحق بالوفاء من حميه[١] .

ولو كان هذا هو شعيبا النبي لم ينازع موسى ، ولم يندم على إعطائه إياها ، ولم يحاكمه . ولم يكن موسى قبل أن يُنبَّأ أحق بالوفاء منه ، فإن شعيباً كان نبيًا / وموسى لم يكن نبيًا ؛ فلم يكن موسى قبل أن يُنَبَّأ أكمل من نبي ، وما ذكره زيد من أنه كان يعرف أن موسى نبي : إن كان ثابتاً ، فالأحبار والرهبان كانت عندهم علامات الأنبياء ، وكانوا يخبرون بأخبارهم قبل أن يبعثوا ، والله سبحانه أعلم .

ص ٨٠

﴿ فصـــل ﴾

وأما شِياع[٢] كون حمى[٣] موسى شعيباً النبي عند كثير من الناس الذين لاخبرة لهم بحقائق العلم ودلائله وطرقه السمعية والعقلية ، فهذا مما لا يغتر به عاقل، فإن غاية مثل ذلك أن يكون منقولاً عن بعض المنتسبين إلى العلم ، وقد خالفه غيره من أهل العلم . وقول العالم الذى يخالفه نظيره ليس حجة ، بل يجب رد ما تنازعا فيه إلى الأدلة .

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم ، أو كثير منهم ، من أن الرسل المذكورين فى سورة يٰس هم من حواريي المسيح عليه السلام ، وأن حبيب النجار آمن بهم. وهذا أمر باطل عند أجلَّاء علماء المسلمين وعند أهل الكتاب ، فإن الله قد أخبر عن هذه القرية التى جاءها المرسلون أنه قد أهلك أهلها فقال تعالى : ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [الآية : ٢٩] .

---

(١) فى الأصل فى الموضعين : حموه ، وهو خطأ .

(٢) فى اللسان : « شاع الشيب شيعا وشياعا (بكسر الشين) وشيعانا وشيوعا وشيوعة ومشيعا : ظهر وتفرق » .

(٣) فى الأصل : حمو ، وهو خطأ .

وأنطاكية لما جاءها اثنان من الحواريين بعد رفع المسيح آمنوا بهما ، وهى أول مدينة اتبعت المسيح ، ولم يهلكهم الله بعد المسيح باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، فكيف يجوز أن يُقال : هؤلاء هم رسل المسيح ؟ !

وأيضاً ، فإن الذين أتَوْهم كانا اثنين من الحواريين ، وأهل الكتاب معترفون بذلك ، ولم يكن حبيب النجار موجوداً حينئذ ، بل هؤلاء رسل أرسلهم الله قبل المسيح ، وأهلك أهل تلك القرية ـ وقد قيل : إنها أنطاكية ـ وآمن حبيب بأولئك الرسل . ثم بعد هذا عمرت أنطاكية وجاءتهم رسل المسيح بعد ذلك .

والحواريون ليسوا رسل الله عند المسلمين ، بل هم رسل المسيح ، كالصحابة الذين كان النبى صلى الله عليه وسلم يرسلهم إلى الملوك . ومن زعم أن هؤلاء حواريون[1] فقد جعل للنصارى حجة لا يُحسِن أن يجيب عنها ، وقد بسطنا ذلك فى « الرد على النصارى » وبيّنا أن الحواريين لم يكونوا رسلاً ، فإن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل إبراهيم وموسى ، وقد يفضِّلونهم على إبراهيم وموسى ، وهذا كفر عند المسلمين ، وقد بينا ضلال النصارى فى ذلك .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه .

---

(١) فى الأصل : حواريين ، وهو خطأ .

رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الانسان

ظ ١١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿فصـــل﴾

تفسير السورة إجمالا

اعلم أن سورة «هل أتى على الإنسان» سورة عجيبة الشأن من سور القرآن على اختصارها ، فإن الله سبحانه ابتدأها بذكر كيفية خلق الإنسان من النطفة ذات الأمشاج والأخلاط التى لم يزل بقدرته ولطفه وحكمته يصرّفه عليها أطواراً ، وينقله من حالٍ إلى حال ، إلى أن تمت خلقته وكملت صورته ، فأخرجه إنساناً سويّاً ، سميعاً بصيراً[1] ، ثم لما تكامل تمييزه وإدراكه هداه طريق الخير والشر ، والهدى والضلال ، وأنه بعد هذه الهداية إما أن يشكر ربَّه وإما أن يكفره[2] . ثم ذكر مآل أهل الشكر والكفر ، وما أعدّ لهؤلاء وهؤلاء ، وبدأ أولاً بذكر عاقبة أهل الكفر ، ثم عاقبة أهل الشكر[3] ، وفى آخر السورة ذكر أولاً أهل الرحمة ثم أهل العذاب[4] ، فبدأ السورة بأول أحوال الإنسان ــ وهى النطفة ــ وختمها بآخر أحواله ــ وهى كونه من

الآيتان : ١، ٢

الآية الثالثة

---

(١) وهذا متضمن فى الآية الأولى والثانية وهو قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) .

(٢) فى الآية الثالثة : (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) .

(٣) فى قوله تعالى : (إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) [الآيات : ٤ ــ ٦] .

(٤) فى قوله تعالى : (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليما) [الآية ٣١] .

الآية الرابعة

أهل الرحمة أوالعذاب ـ ووسَّطها بأعمال الفريقين ، فذكر أعمال أهل العذاب مجملة فى قوله : ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة الإنسان : ٤] ، وأعمال أهل الرحمة مفصَّلةً وجزاءهم مفصَّلاً .

فتضمنت السورة خلق الإنسان وهدايته ، ومبدأه وتوسطه ونهايته ، وتضمنت المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر : وهما القدرة والشرع ، وتضمنت إثبات السبب وكون العبد فاعلا مريداً حقيقةً ، وأن فاعليته ومشيئته إنما هى بمشيئة الله ، ففيها الرد على طائفتين : القدرية والجبرية ، وفيها ذكر أقسام بنى آدم كلهم ، فإنهم إما أهل شمالٍ ـ وهم الكفَّار ـ أوأهل يمين : وهم[1] نوعان : أبرار ومقرَّبون،

الآية الخامسة

وذكر سبحانه أن شراب الأبرار يُمزج من شراب عباده المقربين لأنهم مزجوا أعمالهم ، ويشربه المقرَّبون صِرفاً خالصاً كما أخلصوا أعمالهم ، وجعل سبحانه شراب المقربين من الكافور الذى فيه من التبريد والقوة ما يناسب برد اليقين وقوته لما حصل لقلوبهم ووصل إليها فى الدنيا ، مع مافى ذلك من مقابلته للسعير .

وأخبر سبحانه أن لهم شراباً آخر ممزوجاً من الزنجبيل[2] لما فيه من طيب الرائحة ولذة الطعم ، والحرارة التى توجب تغيير برد الكافور وإذابة الفضلات وتطهير الأجواف ، ولهذا وصفه سبحانه بكونه شراباً طهوراً ـ أى أى مطهراً لبطونهم[3] .

فوصفهم سبحانه بجمال الظاهر والباطن ، كما قال : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الآية ١١] ، فالنضرة جمال وجوههم ، والسرور / جمال قلوبهم ، كما قال : ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [سورة المطففين : ٢٤] .

ص ١١١

---

(١) فى الأصل : وهما .
(٢) فى قوله تعالى : (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا) [الآية ١٧] .
(٣) فى الآية ٢١ : (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) .

وقريب من هذا قول امرأة العزيز فى يوسف : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الذِى لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ [سورة يوسف : ٣٢] ، فأخبرت بجمال ظاهره حين أشارت إليه بالخروج عليهن ثم ضمت إلى ذلك إخبارها بأن باطنه أجمل من ظاهره : بأنى روادته فأبى إلا العفة والحياء والاستعصام .

ثم ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ماينبّه سامعه على جمعهم لأعمال البر كلها ، فذكر سبحانه وفاءهم بالنذر ، وخوفهم من ربهم ، وإطعامهم الطعام على محبتهم له ، وإخلاصهم لربهم فى طاعتهم[1] .

الآية السابعة

وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات ، فإن العبد هو الذى أوجبه على نفسه بالتزامه ، فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه ، فإذا [وفى][2] لله بأضعف الواجبَيْن الذى التزمه هو ، فهو بأن يوفى بالواجب الأعظم الذى أوجبه الله عليه أولى وأحرى .

ومن هٰهنا قال من قال من المفسرين : المقرَّبون يوفون بطاعة الله ويقومون بحقه عليهم[3] ؛ وذلك أن العبد إذا نذر لله طاعةً فوفى بها فإنما يفعل ذلك لكونها صارت حقًّا لله يجب الوفاء بها ، وهذا موجود فى حقوقه كلها ، فهى فى ذلك سواء .

ثم أخبر عنهم بأنهم يخافون اليوم العسير القمطرير[4] ، وهو يوم القيامة .

---

(١) فى قوله تعالى : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيراً * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكورا) [الآيات : ٧-٩] .

(٢) وفى : ساقطة من الأصل .

(٣) فى الدر المنثور للسيوطى ٦/٢٩٨ . « وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة : يوفون بالنذر ، قال : كانوا يوفون بطاعة الله من الصلاة والزكاة والحج والعمرة وما افترض عليهم فسماهم الله الأبرار لذلك .

(٤) وهو قوله تعالى: (إنا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قطريرا) [الآية ١٠] .

فنى ضمن هـذا الخوف إيمانهم باليوم الآخر ، وكفهم عن المعاصى التى تضرهم فى ذلك اليوم ، وقيامهم بالطاعات التى ينفعهم فعلها ويضرهم تركها فى ذلك اليوم .

الآية الثامنة

ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له ، وذلك يدل على نفاسته عندهم وحاجتهم إليه ، وما كان كذلك فالنفوس به أشح ، والقلوب به أعلق ، واليد له أمسك ، فإذا بذلوه فى هذه الحال ، فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل .

فذكر من حقوق العباد بذل قوت النفس على نفاسته وشدة الحاجة منبهاً على الوفاء بما دونه ، كما ذكر من حقوقه الوفاء بالنذر منبها على الوفاء بما هو فوقه وأوجب منه ، ونبَّه بقوله : ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الآية : ٨] أنه لولا أن الله سبحانه أحب إليهم منه لما آثروه على ما يحبونه ، فآثروا المحبوب الأعلى على الأدنى .

الآية التاسعة

ثم ذكر أن مصرف طعامهم إلى المسكين واليتيم والأسير الذين لا قوة لهم ينصرونهم بها ، ولا مال لهم يكافئونهم به ، ولا أهل ولا عشيرة يتوقعون[١] منهم مكافأتهم كما يقصده أهل الدنيا والمعاوضون بإنفاقهم وإطعامهم .

ثم أخبر عنهم أنهم إنما فعلوا ذلك لوجه الله ، وأنهم لا يريدون ممن أطعموه عوضاً من أموالهم ولا ثناء عليهم بألسنتهم ، كما يريده من لا إخلاص له بإحسانه إلى / الناس من معاوضتهم أو الشُّكور منهم ؛ فتضمن ذلك المحبة والإخلاص والإحسان .

ظ ١١١

الآية العاشرة

ثم أخبر سبحانه عنهم بما صدقهم عليه قبل أن يقولوه حيث قالوا : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الآية ١٠] فصدقهم قبل قولهم ،

---

(١) فى الأصل : يتوقعوا .

إذ يقول تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الآية : ٧]، ثم أخبر سبحانه بأنه وقاهم شر مايخافونه ولقَّاهم فوق ماكانوا يأملونه. الآية : ١١

وذكر سبحانه أصناف النعيم الذى حيَّاهُمْ به[1] من المساكن والملابس والمجالس والثمار والشراب والخدم والنعيم والملك الكبير[2] . الآيات : ١٢ ـ ٢٠

ولما كان فى الصبر من حبس النفس والخشونة التى تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة مافيه كان الجزاء عليه بالجنة التى فيها السعة ، والحرير الذى فيه اللين والنعومة ، والاتكاء الذى يتضمن الراحة ، والظلال المنافية للحر .

ثم ذكر سبحانه لون ملابس [الأبرار][3] وأنها ثياب سندسٍ خضرٍ وإستبرق ، وحليتَهم وأنها أساور من فضة ، فهذه زينة ظواهرهم . ثم ذكر زينة بواطنهم ، وهو الشراب الطهور ، وهو بمعنى التطهير[4] . الآية : ٢١

فإن قيل : فلم اقتصر من آنيتهم وحليتهم على الفضة دون الذهب ؟ ومعلوم أن الجنان جنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما .

قيل : سياق هذه الآيات إنما هو فى وصف الأبرار ونعيمهم مفصَّلا دون تفصيل جزاء للقربين ، فإنه سبحانه إنما أشار إليه أشارة تنبِّه على ماسكت عنه ، وهو أن شراب الأبرار يمزج من شرابهم .

فالسورة مسوقة بصفة الأبرار وجزائهم على التفصيل . وذلك ـ والله أعلم ـ

---

(١) حياهم به : كذا بالأصل ولماوجه ، وأخشى أن تكون : حباهم به .

(٢) فى الآيات : ١٢ ـ ٢٠ .

(٣) الأبرار : زدتها ليستقيم الكلام .

(٤) فى قوله تعالى : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً) [الآية ٢١] .

لأنهم أعمّ من المقرّبين وأ كثر منهم . ولهذا يخبر سبحانه عنهم بأنهم ثُلَّةٌ من الأوّلين وثلة من الآخرين[١] ، وعن المقرّبين السابقين بأنهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين[٢] .

وأيضاً فإن فى ذكر جزاء الأبرار تنبيهاً على أن جزاء المقرّبين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وأيضاً ، فإنه سبحانه ذكر أهل الكفر وأهل الشكر . وأهل الشكر نوعان: أبرار أهل يمين ، ومقرّبون سابقون ، وكل مقرّب سابق فهو من الأبرار ، ولا ينعكس . فاسم الأبرار والمقربين كاسم الإسلام والإيمان أحدهما أعم من الآخر.

الآية : ٢٢

وأيضاً ، فإنه سبحانه أخبر أن هذا جزاء سعيهم المشكور[٣] ، وكل من الأبرار والمقربين سعيهم مشكور ، فذكر سبحانه السعى المشكور والسعى المسخوط

ص ١١٢

الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

ثم ذكَّر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بما أنعم / عليه من تنزيل القرآن عليه ، وأمره بأن يصبر لحكمه[٤] ، وهو[٥] يَعمُّ الحكم الدينى الذى أمره به فى نفسه وأمره بتبليغه ، والحكم الكونى الذى يجرى عليه من ربِّه ، فإنه سبحانه امتحن عباده وابتلاهم بأمره ونهيه ، وهو حكمه الدينى ، وابتلاهم بقضائه وقدره ، وهو حكمه الكونى ، وفرض عليهم الصبر على كل واحدٍ من الحكمين ، وإن

---

(١) هذه إشارة إلى الآيات ١١ ــ ١٤ من سورة الواقعة .

(٢) وهى إشارة إلى الآيات ٣٨ ــ ٤٠ من سورة الواقعة .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : (إن هــذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) [الآية ٢٢] .

(٤) وذلك فى الآيتين ٢٣ ، ٢٤ : (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا * فاصبر لحكم ربك) .

(٥) فى الأصل : وهم .

كان الحكم الدينى فى هذه الآية أظهر إرادة ، وأنه أمرٌ بالصبر على تبليغه والقيام بحقوقه .

ولما كان صبره عليه لايتم إلا بمخالفته لمن دعاه إلى خلافه من كل آثم أو كفور ، نهاه عن طاعة هذا وهذا ، وأتى بحرف « أو » دون « الواو » ليدل على أنه منهى عن طاعة أيهما كان : إما هذا وإما هذا[١] ، فكأنه قيل له : لاتطع أحدهما ، وهو أعم فى النهى من كونه منهيًّا[٢] عن طاعتهما ، فإنه لوقيل له : لاتطعهما ، أو لاتطع آثماً وكفوراً لم يكن صريحاً فى النهى عن طاعة كل منهما بمفرده .

الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

ولمّا كان لاسبيل إلى الصبر إلا بتعويض القلب بشىء هو أحب إليه من فوات مايصبر على فوته أمره بأن يذكر ربَّه سبحانه بكرة وأصيلا ـ فإن ذكره أعظم العون على تحمل مشاق الصبر ـ وأن يصبر لربه بالليل فيكون قيامه بالليل عوناً على ماهو بصدده بالنهار[٣] ، ومادةً لقوته ظاهراً وباطناً ، ولنعيمه عاجلاً وآجلا .

الآية : ٢٧

ثم أخبر سبحانه عمَّا يمنع العبد من إيثار مافيه سعادته فى الدنيا والآخرة ، وهو حب العاجلة وإيثارها على الآخرة تقديماً لداعى الحس على داعى العقل[٤] .

الآية : ٢٨

ثم ذكر سبحانه خلقهم وإحكامه وإتقانه بما شدَّ من أسرهم[٥] ، وهو ائتلاف الأعضاء والمفاصل والأوصال وما بينها[٦] من الرباطات وشد بعضها

---

(١) وذلك فى بقية آية ٢٤ : (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) .

(٢) فى الأصل : منهى .

(٣) فى قوله تعالى : (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا * ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) [الآيتان : ٢٥ ، ٢٦] .

(٤) قال تعالى : (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) [الآية ٢٧] .

(٥) وذلك فى أول آية ٢٨ : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) .

(٦) فى الأصل : وما بينهما .

ببعض ، وحقيقته[1] القوة ، ومنه قول الشاعر :

من كل مُجْتَنِبٍ شديدٍ أَسْرُهُ   سَلِسِ القِيادِ تَخَالُهُ مختالا[2]

ولا يكون ذلك إلا فيما له شد ورباط ، ومنه الإسار ، وهو الحبل الذى يُشد به الأسير .

ثم أخبر سبحانه أنه قادر على أن يبدِّل أمثالهم بعد موتهم ، وأنه إذا شاء ذلك فعله[3] . و « إذا » للمُحَقق ، فهذا التبديل واقع لامحالة ، فهو الإعادة التى هى مثل البداءة .

هذا هو معنى الآية ، ومن قال غير ذلك لم يصب معناها ، ولا توحشك لفظة « المثل » ، فإن المعاد مِثْلٌ للمبدوء وإن كان هو بعينه ، فهو مُعادٌ ، أو هو مثله من جهة المغايرة بين كونه مبدءًا ومعاداً .وهذا كالدار إذا تهدمت وأعيدت بعينها فهى الأولى ، وكذلك الصلاة المعادة هى الأولى وهى مثلها .

---

(١) فى الأصل : وحقيقية ـ بتشديد الياء الثانية ـ والوجه ما أثبت لأن الضمير فى قوله « حقيقته » عائد على الأسر.

(٢) البيت للأخطل فى ديوانه ، ص ٤٦ (ط . بيروت ، ١٨٩١) ؛ وتفسير الطبرى ٢٩ / ١٣٩ . وهو من قصيدته التى مطلعها :

كذبتك عينُك أم رأيتَ بوَاسطٍ   غلسَ الظّلام من الرّباب خيالا

وقبل بيت الشاهد :

أَبَنِي كُلَيبٍ إن عَمَّيَّ اللذا   قتلا الملوكَ وفككا الأغلالا

وأخوهما السفّاح ظمَّأ خيلَه   حتى وردْنَ جِبَى الكُلاَبِ نِهالا

يخرجن من ثُغَرِ الكُلابِ عليهمُ   خَبَبَ السِّباعِ تبادر الأوشالا

من كل مجتنب ... .

قال شارح الديوان : « مجتنب : مفتعل من الجنيبة ، وكانوا يركبون الإبل ويجنبون الخيل ، فإذا صاروا إلى الحرب ركبوا الخيل . وأسره : خلقه ، ومنه قوله جل وعز : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) ومختال : كان فيه اختيالا من فرحه ونشاطه » .

(٣) وذلك فى باقى آية ٢٨ : (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا)

ظ ١١٢ وقد نطق القرآن بأنه سبحانه/ يعيدهم و يعيد أمثالهم إذ شاء ، وكلاهما واحد فقال : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [سورة الروم : ٢٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة يس : ٨١]، وقال إنّا لقادرون: ﴿ عَلَى أَن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الواقعة : ٦١ ، ٦٢]

فهذا كله معاد الأبدان ، وقد صرح سبحانه بأنه خلق جديد في موضعين من كتابه[1] . وهذا الخلق الجديد هو « المثل » .

الآية : ٢٩ ثم ختم سبحانه السورة بالشرع والقدر كما افتتحها بالخلق والهداية ، فقال: ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [الآية ٢٩] ، فهذا شرعه ومحل أمره ونهيه ؛

الآية الثلاثون ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الاية ٣٠] ، فهذا قضاؤه وقدره ؛ ثم ذكر الاسمين المُوجِبَيْن للتخصيص وهما اسم : العليم الحكيم[2] .

وقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، فأخبر أن مشيئتهم موقوفة على مشيئته ، ومع هذا فلا يوجب ذلك حصول الفعل منهم ، إذ أكثر ما فيه أنه جعلهم شائين ، ولا يقع الفعل إلا حين يشاؤه منهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة المدثر: ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [سورة التكوير: ٢٨ ، ٢٩] ، ومع هذا فلا يقع الفعل منهم حتى يريد من نفسه إعانتهم وتوفيقهم.

فهنا أربع إرادات : إرادة البيان ، وإرادة المشيئة ، وإرادة الفعل ، وإرادة الإعانة ، والله أعلم .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما.

---

(١) لعله يقصد الآية ١٩ من سورة إبراهيم والآية ١٦ من سورة فاطر ونص كل منهما : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) .

(٢) وهو فى باقى الآية ٣٠ : (إن الله كان عليما حكيما) .



رِسَالة فِي قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾

﴿ فصـــل ﴾

قال الله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [سورة البقرة : ٧٥] . ٤٥

قال على بن أبى طالب : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا انقطع الرأس بَارَ الجسد ، ألا لا إيمان لمن لاصبر له » .(١)

فالصبر على أداء الواجبات واجب ، ولهذا قرنه بالصلاة فى أكثر من خمسين موضعاً ، فمن كان لايصلى من جميع الناس ـ رجالهم ونسائهم ـ فإنه يؤمر ، فإن امتنع عوقب(٢) بإجماع المسلمين . ثم أكثرهم يوجبون قتل تارك الصلاة ، وهل يقتل كافراً مرتدًا أو فاسقاً ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره . والمنقول عن أكثر السلف يقتضى كفره ، وهذا مع الإقرار بالوجوب ، فأما [مع] جحود الوجوب(٣) فهو كافر بالاتفاق .

ومن ذلك تعاهد مساجد المسلمين وأئمتهم ، وأمرهم بأن يصلوا بهم صلاة النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى » رواه البخارى(٤) . وصلَّى مرةً بأصحابه على طرف المنبر وقال : إنما فعلت هذا لتأتموا بى ولتعلموا صلاتى .

فعلى إمام الصلاة أن يصلِّى بالناس صلاةً كاملة ، لايقتصر على مايجوز للمنفرد

---

(١) جاء فى « شرح نهج البلاغة » لابن أبى الحديد (ط . المعارف) ١/٣٢٤: « من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : ... وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فكما لا خير فى جسد لا رأس له ، لا خير فى إيمان لا صبر معه » .

(٢) فى الأصل : عوقبوا . (٣) فى الأصل: فأما جحود الوجوب .

(٤) هذا جزء من حديث رواه البخارى فى صحيحه ١/١٢٤ (كتاب الصلاة ، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة والإقامة . . الخ) وأوله : « حدثنا مالك : أتينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون .. الخ» ، ورواه مرة أخرى ٩/٨٦ ـ ٨٧ (كتاب خبر الواحد ، باب ما جاء فى إجازة خبر الواحد .. الخ) وروى الحديث عن مالك بن الحويرث أحمد فى مسنده (ط . الحلبى) ٥/٥٣ .

الاقتصار عليه إلا لعذر ، وكذلك على إمامهم فى الحج وأميرهم فى الحرب . ألا ترى الوكيل والولى فى البيع والشراء عليه أن يتصرف لموكله ولموليِّه على الوجه الأصلح له فى ماله ، وهو فى مال نفسه يفوت [على] نفسه[1] ماشاء ، فأمر الدين أهم ، ومتى اهتمت[2] الولاة بإصلاح دين الناس صلح الدين للطائفتين والدنيا، وإلا اضطربت الأمور عليهم جميعاً .

وملاك ذلك حسن النية للرعية ، وإخلاص الدين كله لله عز وجل ، والتوكل عليه ، فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة ، كما أمرنا أن نقول فى صلاتنا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فهاتان الكلمتان[3] قد قيل إنهما تجمعان معانى الكتب المنزلة من السماء .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان مرة فى غزاة فقال : « يامالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين » فجعلت الرءوس تندر عن كواهلها[4] .

وقد ذكر ذلك فى غير موضع من كتابه كقوله عز وجل : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [سورة هود : ١٢٣] ، وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود : ٨٨] ، [سورة الشورى : ١٠]. وكان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته قال : « منك وإليك »[5] .

---

(١) فى الأصل : يفوت نفسه .

(٢) فى الأصل : اهمت .

(٣) فى الأصل : فهاتان الكلمتين .

(٤) ندر الشىء يندر ندوراً سقط . وفى الدر المنثور ١/١٤ : «وأخرج أبوالقاسم البغوى والماوردى معاً فى معرفة الصحابة ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن أنس بن مالك عن أبى طلحة قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة فلقى العدو ، فسمعته يقول : يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين . قال : فلقد رأيت الرجال تصدع ، تضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها » .

(٥) أخرج أبو داود فى سننه ٣ / ١٢٦ عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ذبح يوم الذبح كبشين أقرنين وأن مما قاله عند ذلك : « اللهم منك ولك عن محمد وأمته » . وانظر جامع الأصول ٤ / ١٤٨ - ١٤٩ .

وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن ، والإحسان إلى الناس بالنفع والمال الذى هو الزكاة ، والصبر / على أذى الخلق وغيره من النوائب . ط٥ ٢٠ فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعى والرعية ، وإذا عرف الإنسان ما يدخل فى هذه الأسماء الجامعة عرف [ما] يدخل فى الصلاة[١] من ذكر الله تعالى ودعائه وتلاوة كتابه وإخلاص الدين له والتوكل عليه ، وفى الزكاة [من][٢] الإحسان إلى الخلق بالمال والنفع : من نصر المظلوم وإغاثة الملهوف وقضاء حاجة المحتاج . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل معروف صدقة »[٣] ، فيدخل فيه كل إحسان ولو ببسط الوجه والكلمة الطيبة .

ففى الصحيح عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربُّه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حاجب ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا شيئاً قدّمه ، وينظر أمامه فيستقبل النار ، فمن استطاع منكم أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل ، فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[٤] .

وفى السنن « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه

---

(١) فى الأصل : إذا عرف الإنسان ... عرف يدخل فى الصلاة .. الخ .

(٢) من : ليست فى الأصل .

(٣) الحديث عن جابر فى البخارى ٨/١١ (كتاب الأدب ، باب كل معروف صدقة) ؛ وعن حذيفة فى : مسلم ٣/٨٢ (كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف) .

(٤) الحديث فى البخارى ٨/١١٢ (كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب) ؛ مسلم ٣/٨٦ (كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار) ؛ سنن ابن ماجة ١/٦٦ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية) ، ص ٥٩٠ (كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة) .

طلق »[١] . وفى رواية : « ووجهك إليه منبسط ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى » .

وفى الصبر احتمال الأذى وكظم الغيظ والعفو عن الناس ومخالفة الهوى وترك الأشر والبطر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية [سورة هود : ٩ ـ ١١] .

وقال الحسن البصرى : « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من بطنان العرش[٢] : ألا ليقم مَنْ أَجْرُه على الله ؛ فلايقوم إلامن عفا وأصلح » .

وليس من حسن النية للرعية والإحسان إليهم أن يُفعل مايهوونه ويُترك مايكرهونه[٣] . قال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [سورة المؤمنون : ٧١] . وقال لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [سورة الحجرات : ٧] .

---

(١) الحديث عن أبى ذر رضى الله عنه فى: مسلم ٨/٣٧ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء) ؛ وهو عن جابر رضى الله عنه فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٨/١٤٦ ـ ١٤٧ (كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى طلاقة الوجه وحسن البشر) وفيه : « وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك » . وقال الترمذى : « وفى الباب عن أبى ذر » وقال : « هذا حديث حسن » .

(٢) فى لسان العرب (بطن) . « وفى الحديث : ينادى مناد من بطنان العرش ، أى من وسطه ، وقيل : من أصله ، وقيل : البطنان جمع بطن وهو الغامض من الأرض ، يريد : من دواخل العرش » .

(٣) فى الأصل : أنه تفعل ما يهوونه ويتركون ما يكرهونه .

رسالة في تحقيق التوكل



ص ٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما . أما بعد ، فهذا :

﴿ فصل فى التوكل ﴾

التوكل عند طائفة مجرد عبادة لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة

قد ظن طائفة ممن تكلم فى أعمال القلوب أن التوكل لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرّة ، بل ما كان مقدّراً بدون التوكل فهو مقدّر مع التوكل ، ولكن التوكل عبادة يُثاب عليها من جنس الرضا بالقضاء ، وذكر ذلك أبو عبدالله بن بطّة فيما صنّفه فىهذا الباب[1] . وقول هؤلاء يشبه قول من قال: إن الدعاء لايحصل به جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل هو عبادة يُثاب عليها كرمى الجمار ، وآخرون يقولون : بل الدعاء علامة وأمارة ، ويقولون ذلك فى جميع العبادات ، وهذا قول من ينفى الأسباب فى الخلق والأمر ويقول : إن الله يفعل عندها لابها ، وهو قول طائفة من متكلمى أهل الإثبات للقدر كالأشعرى وغيره ، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية .

---

(١) هو أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العكبرى المعروف بابن بطة ، ولد سنة ٣٠٤ وتوفى سنة ٣٨٧ ، من كبار فقهاء الحنابلة والمحدثين ومن أهم مصنفاته : الإبانه الكبرى والإبانة الصغرى . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابله ٢ / ١٤٤ ـ ١٥٣ ؛ شذرات الذهب ٣ / ١٢٢ـ ١٢٤ ؛ الأعلام ٤ / ٣٥٤ .

ولعل الإشارة هنا إلى كتاب « الإبانة الكبرى » إذ أن المجلد الثانى منه يحتوى على أربعة أجزاء فى القدر . انظر تعليق الأستاذ فؤاد سيد على ترجمة ابن بطة فى العبر للذهبى ٣ / ٣٥ ؛ وانظر فهرس الخزانة التيمورية ٣/٤ (مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩/١٩٥٠).

وأصل هذه البدعة من قول جهم ، فإنه كان غالياً[1] فى نفى الصفات وفى الجبر ، فجعل من تمام توحيد الذات نفى الصفات ، ومن تمام توحيد الأفعال نفى الأسباب ، حتى أنكر تأثير قدرة العبد ، بل نفى كونه قادراً ، وأنكر الحكمة والرحمة ، وكان يخرج إلى الجذمى فيقول : أرحم الراحمين يفعل كل هذا ؟ ! يعنى أنه يفعل بمحض المشيئة بلا رحمة ، وقوله فى القدر قد يقرب إليه الأشعرى ومن وافقه من الطوائف .

والذى عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام إثبات الأسباب ، كما دلّ على ذلك الكتاب والسنة مع دلالة الحس والعقل ، والكلام على هؤلاء مبسوط فى مواضع أخر .

التوكل عند الجمهور يجلب المنفعة ويدفع المضرة وهو سبب عند الأكثرين

والمقصود هنا الكلام على التوكل ، فإن الذى عليه الجمهور أن المتوكل يحصل له بتوكله من جلب المنفعة ودفع المضرة مالا يحصل لغيره ، وكذلك الداعى ؛ والقرآن يدل على ذلك فى مواضع كثيرة . ثم هو سبب عند الأكثرين ، وعلامة عند من ينفى الأسباب ، قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] ، والحَسْبُ الكافى فبين أنه كافٍ مَنْ توكل عليه ، وفى الدعاء : ياحَسْبَ المتوكل ، فلا يُقال : هو حسب غير المتوكل كما هو حسب المتوكل ، لأنه علّق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط ، فيمتنع فى مثل ذلك أن يكون وجود الشرط كعدمه ، ولأنه رتّب الحكم على الوصف المناسب له ، فعُلم أن توكله هو سبب كونه حسباً له ، ولأنه ذكر ذلك فى سياق الترغيب فى التوكل كما رغّب فى التقوى ، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية

ظ ٧٤

توكل المؤمن على الله هو سبب كونه حسباً له

(١) فى الأصل : غالبا .

ما لا يحصل لغيره لم يكن ذلك مرغبًا فى التوكل ، كما جعل التقوى سببًا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب . وقد قال تعالى : ﴿ الذِينَ قَالَ لهمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣] ، فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل لمّا توكلوا عليه بقولهم : حسبنا الله ، أى كافينا الله : لا يستحق المدح إن لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ويدفع عنه مضرة ، والله خير من توكل العباد عليه ، فهو نعم الوكيل : يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم(١) كل شر .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَٰهَ إلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [سورة المزمل : ٨ ، ٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً ﴾ [سورة الإسراء : ٢] فأمر أن يُتخذ وكيلا ، ونهى أن يُتخذ من دونه وكيلا ، لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد ، والوكالة الجائزة أن يوَكّل الإنسان فى فعل يقدر عليه ، فيحصل للموكِّل بذلك بعض مطلوبه ، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله ، وذلك الذى يوكِّله لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته ، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكّله ، بل يعتمد على الله فى تيسير ما وكّله فيه ، فلو كان الذى يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره ، أو يحصل بلا توكل ، لكان اتخاذ بعض المخلوقين وكيلا أنفع من اتخاذ الخالق وكيلا ، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٦٤] ، أى الله كافيك وكافى من اتبعك من

---

(١) فى الأصل : لهم .

ص ٧٠ المؤمنين ، فلو كانت كفايته / للمؤمنين المتّبعين للرسول - سواء اتبعوه أو لم يتبعوه - لم يكن للإيمان واتباع الرسول ثمّ [أثر][1] فى هذه الكفاية، ولا كان لتخصصهم بذلك معنى ، وكان هذا نظير أن يقال : هوخالقك وخالق من اتّبعك من المؤمنين ، ومعلوم أن المراد خلاف ذلك .

وإذا كان الحسب معنى[2] يختص به بعض الناس ، علم أن قول المتوكل : حسبى الله ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [سورة الطلاق : ٣] أمر مختص لا مشترك ، وأن التوكل سبب ذلك الاختصاص، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعد أوخصّ أهله بكرامة ، فلابد أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق فى حصول تلك الكرامة ، وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر ، فقد يكفى الله بعض من لم يتوكل عليه كالأطفال، لكن لابد أن يكون للتوكل أثر فى حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين ، فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلا مطلقا و إن عدم التوكل ،

التوكل سبب نعمة الله وفضله

وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] ، فعقّب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهى تفيد السبب ، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل .

وفى الأثر : من سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، فلو كان التوكل لايجلب منفعة ولا يدفع مضرة لم يكن المتوكل أقوى من غيره .

---

(١) كلمة (أثر) ليست فى الأصل ، وزدتها ليستقيم الكلام .

(٢) كلمة « معنى » لم يظهر منها غير الحروف الثلاثة الأخيرة ، ورجحت أن تكون كما أثبت

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [سورة الأحزاب : ١ - ٣] .

وقال فى أثناء السورة : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الآية ٤٨] .

فأمره سبحانه بتقواه واتباع ما يوحى إليه وأمره بالتوكل ، كما جمع بين هذين الأصلين فى غير موضع كقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [سورة هود : ١٢٣] وقوله : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [سورة المزمل : ٨ ، ٩] ، وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [سورة هود : ٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة الممتحنة : ٤] ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [سورة الرعد : ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق : ٢ ، ٣] .

وقوله تعالى فى الفاتحة : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وعلم القرآن جمع فى الفاتحة ، وعلم الفاتحة فى هذين الأصلين : عبادة الله والتوكل عليه . ظ ٧٥

وإذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل ، فإنه من عبادة الله تعالى كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [سورة البقرة : ٢١] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات : ٥٦] ، وإذا قرن به التوكل كان مأموراً به بخصوصه .

وهذا كلفظ الإسلام والإيمان والعمل ، ولفظ الصلاة مع العبادة ومع اتباع

الـكتاب ، ولفظ الفحشاء والبغى مع المنـكر ، ونظائر ذلك متعددة

فـكون اللفظ عند تجرده وإفراده يتناول أنواعاً ، وقد يُعطف بعض تلك الأنواع عليه فيـكون مأموراً به بخصوصه ، ثم قد يُقال : إذا عُطف لم يدخل فى المعطوف عليه ، وقد يُقال : بل أُمر به خاصًا وعامًا ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَلَائِـكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [سورة البقرة : ٩٨] ، وإذا كان الله أمره بالتوكل على الله ، ثم قال : ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ [سورة الأحزاب:٣] عُلم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه ، كما يقال فى الخطبة والدعاء : الحمد لله كافى من توكل عليه .

وإذا كان كفى به وكيلا فهذا مختص به سبحانه ، ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلا ، فإن من يتخذ وكيلاً من المخلوقين غايته أن يفعل بعض الأمور ، وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له ، وهو عاجز عن أكثر المطالب .

فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا ، عُلم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره فى جلب المنافع ودفع المضار ، إذ لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلا . وهذا يقتضى بطلان ظن من ظن[1] أن المتوكل عليه لا يحصل له بتوكله عليه جلب منفعة ولا دفع مضرة ، بل يجرى عليه من القضايا ما كان يجرى لو لم يتوكل عليه .

والذين ظنوا هذا أصل شبهتهم أنهم لما أثبتوا أن الله إذا قضى شيئا فلابد أن يكون ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن ما سبق به علمه فهو كائن لامحالة ، صاروا يظنون ما يوجد بسبب يوجد بدونه ، وما يوجد مع عدم المانع يوجد مع المانع .

---

(١) فى الأصل : وهذا يقتضى قول ظن لمن ظن ، وهى بينة التحريف .

وهذا غلط عظيم ضل فيه طوائف . طائفة قالت : لا حاجة إلى الأعمال المأمور بها ، فإن من خُلق للجنة فهو يدخلها وإن لم يؤمن ، ومن خُلق للنار فهو يدخلها و إن آمن .

وهذه الشبهة سئل عنها النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد عُلِمَ مقعده من الجنة والنار . قالوا : أَوَلا / ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا ، اعملوا فكل مُيَسَّر لما خلق له ؛ أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فسييسر إلى عمل أهل الشقاء »[1] .

س ٧٦

الأسباب ـ ومنها التوكل ـ من قدر الله

وهذا المعنى قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيح فى مواضع تبين أن ما سبق به الكتاب سُبق بالأسباب التى تفضى إليه ، فالسعادة سُبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به سعيداً ، والشقاوة سبقت بأن صاحبها يُستعمل فيما يصير به شقيا ، فالقدر يتضمن الغاية وسببها ، لم يتضمن غاية بلا سبب ، كما تضمن أن هذا يُولد له بأن يتزوج و يطأ المرأة ، وهذا ينبت أرضه بأن يزرع ويسقى الزرع وأمثال ذلك .

وكذلك فى السنن أنه قيل له : «يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ورُقى نسترقيها وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا ؟[2] فقال : هى من قدر الله»[3] ،

---

(١) هذا الحديث مروى مع اختلاف فى اللفظ عن على رضى الله عنه فى أكثر كتب السنة وفى عدة مواضع . انظر مثلا : البخارى ٨/١٢٣ ـ ١٢٤ (كتاب القدر ، باب وكان أمر الله قدراً مقدورا) ؛ مسلم ٨/٤٦ (كتاب القدر ، باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه . . الخ) ؛ سنن أبى داود ٤ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ (كتاب السنة ، باب القدر) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٦٢١ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١١١٠ ، ١١٨١ ، ١٣٤٨ ، وانظر مفتاح كنوز السنة : القدر .

(٢) فى الأصل : هل ترد من قدر الله فينا ، وأكثر الروايات التى رأيتها فيها : . . من قدر الله شيئا .

(٣) الحديث مروى عن أبى خزامة رضى الله عنه فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٨/٢٢٤ (كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى والأدوية) وقال الترمذى : هذا حديث =

بيّن أن الأسباب التى تُدفع بها المكاره هى من قدر الله ، ليس القدر مجرد دفع المكروه بلا سبب .

وكذلك قول من قال : إن الدعاء لا يؤثر شيئا والتوكل لا يؤثر شيئا هو من هذا الجنس ، لكن إنكار ما أُمر به من الأعمال كفر ظاهر ، بخلاف تأثير التوكل[1] ، لكن الأصل واحد ، وهو النظر إلى المقدور مجرّداً عن أسبابه ولوازمه . ومن هذا الباب أن المقتول يموت بأجَله عند عامة المسلمين ، إلا فرقة من القدرية قالوا إن القاتل قطع أجله ، ثم تكلم الجمهور : لو لم يقتل ؟ فقال : بعضهم : كان يموت لأن الأجل قد فرغ ، وقال بعضهم : لا يموت لانتفاء السبب .

وكلا القولين قد قاله من ينتسب إلى السنة ، وكلاهما خطأ ، فإن القدر سبق بأنه يموت فبهذا السبب لا بغيره ، فإذا قُدِّر انتفاء هذا السبب كان فرض خلاف ما فى المقدور ، ولو كان المقدور أنه لايموت بهذا السبب أمكن أن يكون المقدّر أنه يموت بغيره ، وأمكن أن يكون المقدر أنه لا يموت ، فالجزمَ بأحدهما جهل ، فما تعددت أسبابه لم يُجزم بعدمه عند عدم بعضها ، ولو لم يُجزم بثبوته إن لم يعرف له سبب آخر ، بخلاف ما ليس له إلا سبب واحد ، مثل دخول النار فإنه لا يدخلها إلا من عصى ، فإذا قُدِّر أنه لم يعص لم يدخلها .

نصر الله مع التوكل عليه

قال تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩ ، ١٦٠] ، فأمره إذا عزم أن

ظ ٧٦

= حسن صحيح ، ٨/٣١٥ (كتاب القدر ، باب ماجاء لاترد الرقى ولا الدواء من قدر الله شيئا) ؛ سنن ابن ماجه ٢ / ١١٣٧ (كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٣ / ٤٢١ .

(١) فى الأصل : المتوكل .

يتوكل على الله ، فلو كان المتوكل لا يعينه على مثل ما عزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة ، يبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره فقال : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فنهى عن التوكل على غيره ، وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذى لا يقدر عليه غيره ، وإلا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر ، فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكن لذكر انفراده بالنصر معنى ، فإنه على هذا القول نَصْرُه لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه ، وهذا يناقض مقصود الآية ، بل عند هؤلاء قد ينصر من يتوكل على غيره ولا ينصر من توكل عليه ! فكيف يأمر بالتوكل عليه دون غيره مقرونا بقوله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [سورة الزمر : ٣٦] ، إلى قوله : ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٨] ، فبيَّن أن الله يكفى عبده : الذى يعبده ، الذى هو من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، الذين هم من عباده المخلصين ، الذين هم من عباد الرحمن ، الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، الذين هم من عباد الله الذين يشربون من عين يفجِّرونها تفجيرا .

ومثل هذا قوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [سورة الإسراء : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [سورة الجن : ١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٣] ونظائر ذلك متعددة ، ثم أمره بقوله : ﴿ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

توكل المرسلين يدفع عنهم شر أعدائهم

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [سورة يونس : ٧١] .

وكذلك قال عن هود لما قال لقومه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة هود : ٥٤ ـ ٥٦] ، فهذا من كلام المرسلين مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه .

فنوح يقول : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ ، فدعاهم إذا استعظموا ما يفعله كارهين له أن يجتمعوا ثم يفعلوا به ما يريدونه من الإهلاك ، وقال تعالى : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فلولا أن[1] تحقيقه هذه الكلمة ، وهو توكله على الله ، يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزاً لهم من مناجزته ، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه ، وهذا لا يجوز ، وهذا طلب تعجيز لهم ، فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به .

وكذلك هود يُشهد الله وإياهم أنه برىء مما يشركون بالله ، ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى

---

(١) فى الأصل : أنه .

الله رَبِّي وَرَبُّكُم مَّا مِن دَابة إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ ، بيّن أنه توكّل على من أخذ بنواصي الأنفس و بسائر الدواب ، فهو يدفعكم عنى لأنى متوكل عليه ، ولو كان وجود التوكل كعدمه فى هذا لكان قد أغراهم بالإيقاع به ، ولم يكن لذكر توكله فائدة ، إذ كان حقيقة الأمر عند هؤلاء أنه لا فرق بين من توكل ومن لم يتوكل فى وصول العذاب عليه ، وهم كانوا أكثر وأقوى منه ، فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله عليه ، فإن التوكل إن لم يعطه قوة فهم أقوى منه ، وهو لو قال بأن الله مولاى وناصرى ونحو ذلك لعُلم أنه [قاله] مخبراً[1] ، فالله يدفعهم عنه ، وإنما يدفعهم لإيمانه وتقواه ، ولأنه عبده ورسوله .

والله تعالى مع رسله وأوليائه ، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع الله عن المؤمنين المتقين كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة الحج : ٣٨] ، عُلم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة يجلب بها المنفعة و يدفع بها المضرة ، فالتوكل من أعظم ذلك ، وعُلم أن من ظن أن المقدور من المنافع والمضار ليس معلقًا بالأسباب بل يحصل بدونها فهو غلط .

غلط من أنكر الأسباب أو جعلها مجرد أمارة وعلامة

وكذلك قول من جعل ذلك مجرد أمارة وعلامة ، لاقتران هذا بهذا فى غير موضع من القرآن فى خلقه وأمره ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [سورة الحاقة : ٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة : ١٧][3] .

---

(١) فى الأصل : لعلم أنه مخبرا .
(٢) فى الأصل : سبب .
(٣) فى الأصل : (جزاء بما كنتم تعملون) وهو سهو من الناسخ أو المؤلف .

ظ ٧٧ / وأنكر تعالى على من ظن وجود الأسباب كعدمها فى قوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة القلم : ٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٨] ، وأمثال ذلك .

وهؤلاء الذين يقولون بالجبر قالوا بالأمر والنهى : حقيقته أنه إعلام بوقوع العذاب بالمعاصى بمحض المشيئة لا لسبب ولا لحكمة ، فقلبوا حقيقة الأمر[1] والنهى إلى الجبر ، كما أبطلوا الأسباب والحِكَم وأبطلوا قُدَر العباد ، وهم وإن كانوا يردون على القدرية ، ويذكرون من تناقضهم ما يبين به فساد قول القدرية ، فردوا باطلا بباطل ، وقابلوا بدعة ببدعة ، كرد اليهود على النصارى ، والنصارى على اليهود مقالتهم فى المسيح ، وكلا المقالتين باطلة ، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة فى علىّ ، كلاهما باطل على باطل ، ونظائره متعددة .

فرض الله الدعاء على العباد لافتقارهم إلى هدايته

﴿ فصل ﴾

وإن ما[2] فرض عليه من الدعاء الراتب الذى يتكرر [فى] الصلوات[3] ، بل الركعات ، فرضها ونفلها ، هو الدعاء الذى تضمنته أم القرآن ، وهو قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، لأن كل عبد فهو مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء ، وهو هداية الصراط المستقيم ، فإنه لا نجاة من العذاب إلا بهذه الهداية ، ولا وصول

---

(١) فى الأصل : الآية ، وهو تحريف .
(٢) رسمت فى الأصل : وإنما ، موصولة .
(٣) فى الأصل : من الدعاء الراتب التى يتكرر الصلوات .

إلى السعادة إلا به ، فمن فاته هذا الهدى فهو إما من المغضوب عليهم وإما من الضالين .

وهذا الاهتداء لايحصل إلا بهدى الله ، فمن يهده[1] الله فهو المهتدى ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [سورة الكهف : ١٧] .
وهذه الآية مما يتبين بها فساد مذهب القدرية الذين يزعمون أن العبد لايفتقر فى حصول هذا الاهتداء إلى الله ، بل كل عبد عندهم معه مايحصل به الاهتداء ، والكلام عليهم مبسوط فى موضع آخر .

والمقصود هنا أن كل عبد فهو مفتقر دائماً إلى حصول هذه الهداية .
وأما سؤال من يقول : فقد هداهم إلى الإيمان فلاحاجة إلى الهدى ، وجواب من يجيب بأن المطلوب دوام الهدى ، فكلام من لم يعرف حقيقة حال الأسباب وما أمر به ، فإن الصراط المستقيم أن تفعل فى كل وقت ما أُمرت به فى ذلك الوقت من علم وعمل ولا تفعل مانهيت عنه ، وهذا يحتاج إليه فى كل وقت/: إلى أن يعلم ما أمر به فى ذلك الوقت وما نهى عنه ، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور ، وكراهة جازمة لترك المحظور . وهذا[2] العلم المفصَّل والإرادة المفصَّلة لايتصور أن تحصل للعبد فى وقت واحد ، بل فى كل وقت يحتاج أن يجعل الله فى قلبه من العلوم والإرادات مايُهدى به فى ذلك الوقت . نعم حصل له هدى مجمل ، فإن القرآن حق ، ودين الإسلام حق ، والرسول ونحو ذلك ، ولكن هذا الهدى المجمل لايعينه إن لم يحصل له هدى مفصل فى كل مايأتيه و يدبِّره من الجزئيات التى يحار فى كثيرمنها أكثر عقول الخلق ، ويغلب الهوى أكثر الخلق لغلبة الشبهات والشهوات على النفوس .

ص ٧٨

---

(١) فى الأصل : فمن يهديه .
(٢) فى الأصل : وهذه .

والإنسان خلق ظلوماً جهولا ، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى مايهواه من الشر ، فيحتاج دائما إلى علم مفصل يزول به جهله ، وعدل فى محبته وبغضه ، ورضاه وغضبه ، وفعله وتركه ، وإعطائه ومنعه ، وكل ما يقوله و يعمله يحتاج فيه إلى عدل ينافى ظلمه ، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصَّل والعدل المفصَّل ، وإلا كان فيه من الجهل والظلم مايخرج به عن الصراط المستقيم ، وقد قال تعالى لنبيه بعد صلح الحديبية و بيعة الرضوان : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَيَنصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزاً ﴾ [سورة الفتح : ١-٣] ، فأخبر أنه فعل هذا ليهديه صراطاً مستقيما ، فإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟ .

والصراط المستقيم قد فُسِّر بالقرآن ، والإسلام ، وطريق العبودية ، وكل هذا حق ، فهو موصوف بهذا وبغيره ، فحاجته إلى هذه الهداية ضرورية فى سعادته ونجاته ، بخلاف الحاجة إلى الرزق والنصر ، فإن الله يرزقه ، وإذا انقطع رزقه مات ، والموت لابد منه ، فإن كان من أهل الهداية كان سعيدا ، وإن كان بعد الموت ، وكان الموت موصلا له إلى السعادة الدائمة الأبدية ، فيكون رحمة فى حقه وكذلك النصر إذا قُدِّر أنه قُهر وغُلب حتى قتل ، فإذا كان من أهل الهداية إلى الاستقامة مات شهيداً ، وكان القتل من تمام نعمة الله عليه . فتبين أن حاجة العباد إلى الهدى أعظم من حاجتهم إلى الرزق ، بل لا نسبة بينهما ، فلهذا كان هذا الدعاء هو المفروض عليهم .

وأيضا ، فإن الدعاء يتضمن الرزق والنصر ، لأنه إذا هُدِىَ الصراط المستقيم كان من المتقين ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، وكان ممن ينصر الله ورسوله ، ومن نصر الله نصره وكان من جند الله ، وجند الله هم الغالبون ، فالهدى التام يتضمن حصول أعظم مايحصل به الرزق والنصر .

رسالة في تحقيق الشكر



﴿ فصـــل ﴾

يتعلـــق بالشكر[1]

المجبرة والقدرية والملاحدة لا يحمدون الله ولا يشكرونه

اعلم أن أهل البدع القدرية من الجهمية المجبرة والقدرية النافية لا يحمدون الله ولا يشكرونه كما أنهم لا يعبدونه ، وأما أهل الإلحاد من المتفلسفة والباطنية فهم أبعد عن حمده وشكره .

مقالة المجبرة

وذلك أن المجبرة حقيقة قولهم أنه ليس برحيم ولا مُنعم ، بل ولا إله يستحق أن يُعبد ويُحب ، بل صدور الإحسان عنه كصدور الإساءة ، وإنما هو يفعل بمحض مشيئة ترجِّح الشيء على مثله لا لمرجِّح ، وكل الممكنات عندهم متماثلة ، فلا فرق بين أن يريد رحمة الخلق ونفعهم والإحسان إليهم ، أو يريد فسادهم وهلاكهم وإضرارهم ؛ يقولون : هذا كله عنده سواء .

ومعلوم أن الإنعام إنما يكون إنعاماً إذا قَصد به المُنعِم نفع المنعَم عليه دون إضراره ، وأما إذا قصد الأمرين ، فهذا ليس جعله منعماً مصلحاً بأولى من جعله معتدياً مفسداً ، كمن بيده سيف يضرب به صديق الإنسان تارة وعدوه أخرى ، أو معه دراهم يقوِّى بها تارة ويقوِّيه بها تارة[2] ، فهذا ليس كونه محسناً إليه بأولى من كونه ضارًّا له ومحسناً إلى عدوه .

مقالة القدرية النافية

وأما النافية فعندهم أن هذا كله واجب عليه : البيان ، وخلق القدرة ، وإزاحة العلل ، والجزاء . ومن فعل الواجب الذى يستحقه غيره عليه لم يستحق الشكر المطلق .

---

(١) يتعلق بالشكر : زيادة فى (ع) .

(٢) الكلام فيه اختصار والمقصود : يقوى بها صديقه تارة ويقوى بها عدوه تارة .

وأيضا ، إنعامه بالهدى على المؤمنين (١ والكفار سواء ، فشكر المؤمنين له على الهدى كشكر الكفّار عليه ، إذ لم ينعم على المؤمنين ١) بنفس الهدى بل هم اهتدوا بقدرتهم ومشيئتهم ، وإذن كان إنعامه على النوعين سواء ، ولكن هؤلاء هم الذين فعلوا ما يسعدون به .

مقالة المتفلسفة

والمتفلسفة : أرسطو وأتباعه ـ عندهم أنه لايفعل شيئاً ولا يريد شيئاً ولايعلم شيئاً ولا يخلق شيئاً ، فعلى أى شيء يُشكر ، أم على أى [٢] شيء يُحمد ويُعبد ؟!

مقالة باطنية الشيعة والتصوفة

والباطنية : باطنية الشيعة والمتصوفة كابن سبعين [٣] وابن عربى [٤] ـ هم فى الباطن كذلك ، بل يقولون : الوجود واحد : وجود المخلوق هو وجود الخالق ، فيجب أن يكون كل موجود عابداً لنفسه شاكراً لنفسه حامداً لنفسه .

مقالة ابن عربى

وابن عربى يجعل الأعيان ثابتة فى العدم ، وقد صرّح بأن الله لم يُعْط أحداً شيئاً ، وأن جميع ما للعباد فهو منهم لا منه ، وهو مفتقر إليهم لظهور وجوده فى أعيانهم ، وهم مفتقرون إليه لكون أعيانهم ظهرت فى وجوده ؛ فالربُّ إن ظهر

(١ ـ ١) : ساقط من (ك) .

(٢) أى : ساقطة من (ع) .

(٣) أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المعروف بابن سبعين ، ولد سنة ٦١٣ وتوفى سنة ٦٦٩ . انظر ترجمته فى : شذرات الذهب ٥ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ١٧٧ ؛ لسان الميزان ٣/٣٩٢ ؛ فوات الوفيات ١/٥١٦ ـ ٥١٨ ؛ نفح الطيب ٢ / ٣٩٥ ـ ٤٠٦ ؛ الأعلام ٤ / ٥١ .

(٤) أبو بكر محي الدين محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى المعروف بابن عربى أو ابن العربى . ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠ وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ . انظر ترجمته ومصنفاته فى : نفح الطيب ٢ / ٣٦١ ـ ٣٨٤ ؛ شذرات الذهب ٥ / ١٩٠ ـ ٢٠٢ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ١٦٣ ؛ ميزان الاعتدال ٣ / ٦٥٩ ـ ٦٦٠ ؛ لسان الميزان ٥/٣١١ ـ ٣١٥ ؛ فوات الوفيات ٣/٤٧٨ ـ ٤٨٢ ؛ إبراهيم بن عبدالله القارىء : مناقب ابن عربى ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، بيروت ، ١٩٥٩ ؛ الأعلام ٧/١٧٠ ـ ١٧١ .

فهو العبد ، والعبد إن بطن فهو الرب»[١] . ولهذا قال : لا تحمد ولا تشكر إلا نفسك ، فما فى أحد من الله شىء ، ولا فى أحد من نفسه شىء[٢] . ولهذا قال : إنه يستحيل من العبد أن يدعوه لأنه يشهد أحدية العين ، / (ص ١٣٧) فالداعى هو المدعو ، فكيف يدعو نفسه ؟[٣] وزعم أن هذا هو خلاصة غاية الغاية ، فما بعد هذا شىء . وقال : فلا تطمع أن ترقى فى أعلى من هذه الدرج ، فما ثَمَّ شىء أصلا ، وإن هذا إنما يعرفه خلاصة خاصة الخاصة من أهل الله .

فصرَّح بأنه ليس بعد وجود المخلوقات وجود يَخْلُق ويرزق ويُعبد . ولهذا كان صاحبه القاضى يقول :

ما الأمر إلا نسقٌ واحدٌ ما فيه من حمدٍ ولا ذمٍّ
وإنما العادةُ قد خصَّصت والطبعُ والشارعُ بالحكمِ[٤]

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ

---

(١) انظر مثلا ما يذكره فى « فصوص الحكم » ١ / ٧٧ : « فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فهو عين ماظهر ، وهو عين مابطن فى حال ظهوره ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من يبطن عنه ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمى أبا سعيد الخراز وغير ذلك من أسماء المحدثات . . الخ » .

(٢) انظر مثلا ما يذكره فى المرجع السابق ١ / ٨٣ : « فلا تحمد إلا نفسك ولا تذم إلا نفسك ، وما يبقى للحق إلا حمد إفاضة الوجود لأن ذلك له لا لك ، فأنت غذاؤه بالأحكام وهو غذاؤك بالوجود . . الخ» . وانظر كذلك ١/٩٦ : «فما أعطاه الخير سواه ، ولا أعطاه ضد الخير غيره ، بل هو منعم ذاته ومعذبها ، فلا يذمن إلا نفسه ولا يحمدن إلا نفسه . . وليس وجود إلا وجود الحق بصور أحوال ماهى عليه الممكنات فى أنفسها وأعيانها » .

(٣) انظر مثلا المرجع السابق ١/١٨٣ : «قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) إذ لا يكون مجيباً إلا إذا كان من يدعوه ، وإن كان عين الداعى عين المجيب ، فلا خلاف فى اختلاف الصور ... الخ » .

(٤) أورد ابن تيمية هذين البيتين فى مواضع من رسائله ولم أتبين من كلامه من هو قائلهما . انظر : مجموعة الرسائل والمسائل ١ / ١٧٨ ـ ١٧٩ (وفيها : والشارع فى الحكم). وقارن ذلك بما فى نفس المجموعة ٤ / ٢٣ ؛ مجموع فتاوى شيخ الإسلام (ط . الرياض) ٢ / ٩٩ .

كفر باطنية المتصوفة أعظم من كفر الفلاسفة

﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾ الآية [سورة النحل: ٥٣، ٥٤] إلى قوله سبحانه : ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الآية : ٥٧] . وهذه الآيات كما تناولت ذم الذين جعلوا له شريكا وولداً ، فتناولها لقدم هؤلاء الملاحدة أعظم . فإن القائلين بقدم العالم وأنه معلول جعلوه كله والدلالة[١] قديماً أزليًا معه ، وهذا أعظم من قول أولئك . والذين لم يجعلوه معلولا له قالوا : إنه قديم معه واجب الوجود[٢] مماثل له ، بل وجعلوا الفلك هو الذى[٣] تحدث عنه الحوادث ، لكن حركته للتشبه به[٤] . وهذا أعظم من كل شركٍ فى العالم ، ومن شرك المجوس والحرنانيين ، فإن أولئك وإن جعلوا معه قديماً : إما الظلمة - وهى إبليس - عند المجوس ، وإما النفس والهيولى عند الحرنانيين ، فهم يقولون : إنه أحدث العالم ، وأنه ركّبه من النفس والهيولى القديمَيْن ، وركّبه من أجزاء النور والظلمة[٥] .

ولهذا ذكر محمد بن كعب[٦] وغيره عن المجوس والصابئة أنهم قالوا عن الله : لولا أولياؤه لذل . فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ [سورة الإسراء : ١١١][٧] ، فإنهم يجعلونه محتاجاً إلى من يعاونه إذ كان

---

(١) والدلالة : كذا فى النسختين .

(٢) الوجود : ساقطة من (ك) .

(٣) عبارة « هو الذى » : ساقطة من (ك) .

(٤) ع : كتشبيه به ؛ ك : لتشبيه به .

(٥) انظر مقالة المجوس والحرنانيين فى : الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ١ / ٣٤ ومابعدها ؛ الملل والنحل للشهرستانى ١ / ٢١٠ ومابعدها ، ٢ / ٥٢ - ٦١ .

(٦) قال ابن حجر فى « تقريب التهذيب » ٢ / ٢٠٣ : « محمد بن كعب بن سليم بن أسد ، أبو حمزة القرظى المدنى ، وكان قد نزل الكوفة مدة ، ثقة عالم ، من الثالثة ، ولد سنة أربعين على الصحيح . . مات محمد سنة عشرين (ومائة) وقيل قبل ذلك » .

(٧) أخرج الطبرى فى تفسيره (ط . بولاق) ١٥ / ١٢٦ : « .. عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية : (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) الآية . قال : إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً . وقالت العرب لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك . وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله لذل الله . فأنزل الله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) وكبره أنت يامحمد على مايقولون تكبيراً » .

مغلوباً من وجهٍ مع القدماء معه ، كما هو غالبٌ من وجهٍ .

وكفر أولئك أعظم ، فإنهم لم يجعلوا له تأثيراً فى الفلك ولا تصرفاً بوجه من الوجوه ، فهؤلاء تنقّصوه وسلبوه الربوبية والإلهية أعظم من أولئك ، وجعلوه مع الفلك مغلوباً من كل وجهٍ لا يقدر أن يفعل فيه شيئاً ، وكقول عبدة الأوثان : هو أجلُّ من أن نعبده بل نعبد الوسائط ، وهو أجلُّ من أن يبعث بشراً رسولا ؛ فجحدوا توحيده ورسالته على وجه التعظيم له . وكذلك المجوس الثنوية أثبتوا الظلمة تنزيهاً له عن فعل الشر ، والحَرْنَانِيُّون أثبتوا معه النفس والهيولى ، قديمَيْن تنزيهاً له عن إحداث العالم بلا سبب ؛ فالأمم كلهم يعظّمونه ، لكن تعظيما يستلزم شبهةً وسبَّةً .

كل ما بالخلق من نعمة فمن الله

والمقصود هنا قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [سورة النحل : ٥٣]، وقوله عز وجل : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ [سورة الجاثية : ١٣] [١] ، فالأمر ضد ما قاله هؤلاء الملاحدة : ابن عربى ونحوه ــ حيث قالوا : ما فى أحد من الله شىء . فيقال لهم : بل كل ما بالخلق من نعمة فمن الله وحده .

ظ ١٣٧

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من قال إذا أصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، فقد أدى شكر ذلك [اليوم] ، ومن قال إذا أمسى : اللهم ما أمسى بى من نعمة أو بأحد من خلقك ، فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، فقد أدّى شكر تلك الليلة » رواه أبو داود وغيره [٢] .

---

(١) فى (ع) كتبت كلمة « السموات » فى الآية ثم شطبت ولم تكتب عبارة « وما فى » بعدها ، و (ك) لم يكتب الناسخ عبارة « السموات وما فى » كلها ، مما يرجح أن نسخة (ك) نقلت عن (ع) أو أنهما نقلتا عن نسخة ثالثة .

(٢) اليوم : ساقطة من النسختين . والحديث مع اختلاف فى اللفظ عن عبدالله بن غنام البياضى رضى الله عنه فى سنن أبى داود ٤/٤٣٥ (كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح) وهو فى الأذكار للنووى ، ص ٧٤ (ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٧١/١٩٥٢) وقال إن إسناده جيد .

فكل ما بالخلق من النعم فمنه وحده لا شريك له ، ولهذا هو سبحانه يجمع بين الشكر والتوحيد ، ففي الصلاة أول الفاتحة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وأوسطها : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . والخُطَب وكل أمرٍ ذى بال لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم[1]. وعن ابن عباس : إذا قلت : لا إله إلا الله ، فقل : الحمد لله ، فإن الله يقول : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة غافر : ٦٥][2] .

وفى حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يصبح : الحمد لله ربِّى لا أشرك به شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله ، ظلَّ تُغفر له ذنوبه حتى يمسى ، ومن قالها حين يُمسى غُفرت له[3] ذنوبه حتى يصبح » . رواه أبان المحاربى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، كما ذكره ابن عبد البر وغيره[4] .

فالحمد أول الأمر : كل أمر ذى بالٍ لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم ، والتوحيد نهايته . ولهذا كان النصف من الفاتحة الذى هو لله أوله[5] حمد وآخره توحيد : إياك نعبد .

والحمد رأس الشكر ، فالحامد يشكره أولا على نعمه[6] ، ثم يعبده وحده ، فإن العبد أول ما يعرف ما يحصل له من النعمة ، مثل خلقه حيًّا ، وخلق طرق العلم : السمع والبصر والعقل .

---

(١) فى النسختين : والخطب كل أمر .. الخ . وكأن ابن تيمية قد جمع بين معنى أحاديث فى الباب رواها أبو داود وابن ماجة والترمذى . انظر الأذكار للنووى ، ص ٢٤٩ .

(٢) ذكر هذا الأثر بمعناه السيوطى فى الدر المنثور ٣٥٧/٥ وقال أخرجه ابن جرير وابن المنذر والحاكم – وصححه – وابن مردويه والبيهقى فى « الأسماء والصفات » .

(٣) له : ساقطة من (ع) .

(٤) ذكر ابن عبد البر الحديث فى ترجمة أبان المحاربى رضى عنه الله فى « الاستيعاب » ١ / ٤٨ (بذيل الإصابة ، ط . التجارية ، ١٣٥٨ / ١٩٣٩) . وذكره ابن السنى فى « عمل اليوم والليلة » ، ص ٢١ (ط. حيدرآباد) وفيهما : ما من مسلم يقول إذا أصبح . . الخ .

(٥) فى النسختين : أول ، وهو تحريف . (٦) ع : على نعمة .

وقد تنازع الناس فى أول ما أنعم الله على العبد ، فقيل : هو خلقه حيًّا أو خلق الحياة ؛ كما قال ذلك من قاله من المعتزلة . وقيل : بل إدراك اللذات ونيل الشهوات ، كما يقوله الأشعرى ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيره ، كالقاضى أبى يعلى فى أحد قوليه . ومن أصحاب أحمد وغيرهم من قال : بل أولها هو الإيمان ، ولم يجعل ما قبل الإيمان نعمة بناء على أن[1] تلك لا تصير نعماً إلا بالإيمان ، وأن الكافر ليس عليه نعمة . وهذا أحد قولى الأشعرى وأحد القولين لمتأخرى أصحاب أحمد وغيرهم كأبى الفرج .

نعمة الله على الكفار وغيرهم ولكن نعمته المطلقة على المؤمنين

والصحيح أن نعمة الله على كل أحد : على الكفّار وغيرهم ، لكن النعمة المطلقة التامة هى على الذين أنعم الله عليهم من النبيِّن والصدِّيقين والشهداء والصالحين الذين أُمرنا أن نقول فى صلاتنا : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فإن جُعلت « غير » صفة لا استثناء فيها لم يدخل المغضوب عليهم ولا الضالون فى المنعَم عليهم ، وإن جعلت استثناء فقد دخلوا فى المنعَم عليهم ، لكن رجَّحوا الأول فقالوا ـ واللفظ للبغوى ـ « : غير ههنا بمعنى[2] لا ، ولا[3] بمعنى غير ، ولذلك[4] جاز العطف [عليها][5] ، / كما يُقال : فلان غير محسن ولا مجمل ، فإذا كان « غير » بمعنى « سوى » فلا يجوز العطف عليها بلا . لا يجوز فى الكلام : عندى سوى عبد الله ولا زيد[6] . وقد رُوى عن عمر أنه قرأ[7] : صراط من أنعمت عليهم غير

ص ١٣٨

(١) أن : ساقطة من (ع) .
(٢) بمعنى : ساقطة من (ك) .
(٣) فى النسختين « لا » والتصويب من تفسير البغوى ١ / ٥٤ .
(٤) ك : وكذلك .
(٥) عليها : ساقطة من النسختين وزدتها من تفسير البغوى .
(٦) المنقول عن البغوى إلى هذا الموضع هو نص كلام الكوفيين . انظر معانى القرآن للفراء ١ / ٨ ، ط . دار الكتب ، ١٣٧٤/١٩٥٥ .
(٧) فى تفسير البغوى : وقرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

المغضوب عليهم وغير الضالين » .

وهذا قد ذكره غير واحد من أهل العربية ومثَّلوه بقول القائل : إنى لأمر بالصادق غير الكاذب . قالوا : و « غير » هنا صفة ليست للاستثناء ، وأصل « غير » أن تكون صفة ، وهى فى الآية صفة ، ولهذا خُفضت كأنه قيل : صراط المنعم عليهم المغايرين لهؤلاء وهؤلاء .

فهذه هى النعمة المطلقة التامة ، والقرآن مملوء من ذكر نعمه على الكفّار . وقد قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨] ، فالحياة نعمة ، وإدراك اللذات نعمة . وأما الإيمان فهو أعظم النعم ، وبه تتم النعم .

فالإنسان بجِبِلَّته يطلب ما يوافقه ويتنعَّم به ــ من الغذاء وغيره ــ على هذا فُطِر ، فيعرف النعمة ، فيعرف[1] المنعم ، فيشكره . فلهذا كان الحمد هو الابتداء ، فإن شعوره بنفسه وبما يحتاج إليه ويتنعم به قبل شعوره بكل شىء ، وهو[2] من حين خرج من بطن أمه شعر باللبن الذى يحتاج إليه ويتنعم به وبما يخرج منه وهو الثدى ، فلهذا تعرّف الله إليه[3] بالنعم ليشكره ، وشكره ابتداء معرفته بالله ، فإذا عرف الله أحبه فعبده وتنعم بعبادته وحده لاشريك له ، وعرف مافى التألّه له من اللذة العظيمة التى لا يعدلها لذة ؛ فلهذا كان التوحيد نهايته ؛ أوله الحمد ، وآخره إياك نعبد .

وكذلك فى الجنة ، كما فى صحيح مسلم عن صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) ك : فيعرف النعم ويعرف .. الخ.
(٢) ك : كل شىء هو .. الخ .
(٣) إليه : ساقطة من (ك) .

أنه قال : « إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيّض وجوهنا و يدخلنا الجنة ويُجِرْنا من النار ؟ قال : فيُكشف الحجاب فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزياده »[1] . فالنظر إليه أكمل اللذات وآخرها ، كما قال : « فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» . ولهذا قيل : أطيب مافى الدنيا معرفته ، وأطيب مافى الآخرة مشاهدته .

وعبادته وحده بمحبته وقصد رؤيته هو لأهل السنة الذين يقرّون بإلاهيته وحكمته ، وأنه يستحق المحبة ، وأن يكون هو أحب إلى العبد من كل شىء .

الجهمية والمعتزلة ينكرون محبته تعالى ويقرون بوجوب الشكر

وأما الجهمية والمعتزلة فينكرون محبته وحقيقة إلاهيته ، وعلى قولهم تمتنع عبادته . لكن المعتزلة تقر بالنعمة ووجوب الشكر[2] وعلى هذا بنَوْا دينهم ؛ وغاية الواجبات هى الشكر ؛ ولهذا قالوا : الشكر يجب عقلا . وأما العبادة والمحبة فلم يعرفوها ولم يصلوا إليها بل أنكروها .

وأما الجهمية المجبرة : لاهذا ولا هذا ، لكن يعترفون بقدرته وأنه يفعل مايشاء . ولهذا كانوا فى الواجبات وترك المحرمات/أبعد من المعتزلة ، فإنهم مرجئة مجبرة فلا يجزمون بالوعيد ـ وهذا نصف الحرف الباعث على العمل ، ويقولون بالجبر ـ وهذا نصف الاعتراف بحق الله على العبد ووجوب شكره ، فتضعف دواعيهم من جهة الخوف ومن جهة الشكر ، لايشكرون نعمه الماضية ،

ظ ١٣٨

(١) الحديث فى مسلم ١/١١٢ (كتاب الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى) مع اختلاف فى لفظه عما ذكره ابن تيمية . وهو أيضا فى : سنن ابن ماجه ١ / ٦٧ (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية) ؛ جامع الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٠/١٨ ـ ١٩ (أبواب صفة الجنة ، باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى) .

(٢) فى الأصل فى النسختين : تقر بالنعمة وجوب الشكر .

الجهمية المجبرة يضعف شكرهم وخوفهم ويقوى رجاؤهم

ولا يخافون عقوبته المستقبلة. ولكن لما آمن من آمن منهم بالرسل صار عندهم خوفٌ ما ورجاء وصاروا يُوجِبون الشكر شرعاً، وعندهم داعى الرجاء، فالرجاء عندهم أغلب من الخوف، وهو أحد المعنيين فى تسميتهم مرجئة. قيل: إنه من الرجاء، أى يجعلون الناس رَاجين، فهم مُرْجِيَة لا مُخَيِّفة. لكن الصحيح أنهم مرجئة بالهمز من الإرجاء، لكن يشارك الرجاء فى الاشتقاق الأكبر[1].

المؤمن يخاف الله ويرجوه ويحبه

ولهذا قيل: «من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى[2]، ومن عبده بالحب فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحّد»

وذلك أن الحب الذى ليس معه رجاء ولا خوف يبعث النفس على اتباع هواها؛ وصاحبه إنما يحب فى الحقيقة نفسه؛ وقد اتخذ إلاهه هواه، فلهذا كان زنديقاً.

القائلون بوحدة الوجود يحبون بدون خوف أو رجاء

ومن هنا دخلت الملاحدة الباطنية كالقائلين بوحدة الوجود، فإن هؤلاء سلوكهم عن هوى ومحبة فقط، ليس معه رجاء ولا خوف، ولهذا يتنوعون[3]

---

(١) قال الشهرستانى فى «الملل والنحل» ١/١٢٥: «الإرجاء على معنيين: أحدهما بمعنى التأخير، كما فى قوله تعالى: قالوا أرجه وأخاه، أى: أمهله وأخره. والثانى: إعطاء الرجاء. أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثانى فظاهر، فإنهم كانوا يقولون: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة».

(٢) فى «اللباب فى تهذيب الأنساب» لابن الأثير ١ / ٢٩٤: «الحرورى بفتح الحاء وضم الراء وسكون الواو وفى آخرها راء ثانية، هذه النسبة إلى حروراء، وهو موضع على ميلين من الكوفة كان أول اجتماع الخوارج به فنسبوا إليه». وانظر «معجم البلدان» لياقوت: مادة «حروراء».

(٣) يتنوعون: كذا فى النسختين، ولعل الصواب: يبتدعون.

فهم من الذين قال الله فيهم : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [سورة الجاثية : ٢٣] . ولهذا يجوّزون الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية وما بعدها إلى قوله : ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠-٣٢] .

وهم فى الحقيقة ينكرون محبة الله ، ولكن يقولون : الحكمة هى التشبه به . ولهذا كان ابن عربى يجعل الولى هو المتشبِّه به فى التخلق بأسمائه ، و ينكر اللذة بالمشاهدة والخطاب ، و يقول : ما التذ عارف قط بالمشاهدة ؛ لأنها على أصله مشاهدة وجود مطلق ولا لذه فيها .

ووقع بينه وبين شهاب الدين السهروردى[1] منازعة : هل حين يتجلى[2] لهم يخاطبهم ؟ فأثبت شهاب الدين ذلك ، كما جاءت به الآثار . وأنكر ذلك ابن عربى وقال : مسكين هذا السهروردى ، نحن نقول له عن تجلى الذات ، وهو يقول عن تجلى الصفات[3] .

---

(١) كلام ابن تيمية هنا عن : شهاب الدين أبى حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه ، وهو غير شهاب الدين السهروردى المقتول . من شيوخ الصوفية ومن فقهاء الشافعية ومن أشهر كتبه « عوارف المعارف » ولد سنة ٥٣٩ وتوفى سنة ٦٣٢ . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٥/١٤٣ - ١٤٤ ؛ وفيات الأعيان ٣/١١٩-١٢٠ ؛ شذرات الذهب ٥/١٥٣-١٥٥ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٤ / ٧٩ - ٨٢ ؛ تاريخ ابن الوردى ٢ / ١٦١ ؛ البداية والنهاية ١٣/١٤٣ ، ١٨٣ ؛ النجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٣ - ٢٨٤ ؛ معجم البلدان: سهرورد ؛ الأعلام ٥ / ٢٢٣ .

(٢) فى الأصل : يتلى ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، وانظر قوله بعد قليل : فيستحيل عند تجليها خطاب .

(٣) لم أجد هذه القصة فيما بين يدى من مراجع ، ولكن ذكر المقرى فى نفح الطيب ٢ / ٣٨٢ ما يلى : « وذكر الإمام سيدى عبد الله بن سعد اليافعى اليمنى فى « الإرشاد » أنه اجتمع مع الشهاب السهروردى فأطرق كل واحد منهما ساعة ، ثم افترقا من غير كلام ، فقيل للشيخ ابن عربى : ما تقول فى السهروردى ؟ فقال : مملوء سنة من قرنه إلى قدمه . وقيل للسهروردى : ما تقول فى الشيخ محي الدين ؟ فقال : بحر الحقائق » . وذكر الشيخ ابراهيم ابن عبد الله القارىء فى كتابه « مناقب ابن عربى » (ص ٢٩) قصة مماثلة . وانظر مرآة الجنان لليافعى ٤ / ١٠٠ .

وهذا بناء على أصله الفاسد ، وهو أن الذات وجود مطلق لا تقوم به صفات : لا كلام ولا غيره فيستحيل عند تجليها خطاب .

وشهاب الدين كان أتبع للسنة والشرع منه ، ولهذا كان صاحبهما ابن حمويه[١] يقول : « ابن عربى بحر لا تكدِّره الدلاء ، ولكن نور المتابعة المحمدية على وجه الشيخ شهاب الدين شيء آخر »[٢] . لكنه كان ضعيف الإثبات للصفات والعلو لما فيه من التجهم الأشعرى[٣] . وكان يقول عن الرب : لا إشارة ولا تعيين .

ص ١٣٩ وهؤلاء مخانيث / الجهمية ، وابن عربى من ذكورهم . فهم يستطيلون على من دخل معهم فى التجهم . وإنما يقهرهم[٤] أهل السنة المثبتون العارفون بما جاء به الرسول وبمخالفتهم له و ببطلان ما يناقض السنة من المعقولات الفاسدة . ولم يكن السهروردى من هؤلاء ؛ وكذلك الحريرى[٥] قال : « كنت أثبت المحبة أولا ، ثم رأيت أن المحبة ما تكون إلا من غير لغير[٦] ، وما ثمَّ غير » .

---

(١) سعد الدين محمد بن عبد الله بن حمويه الحموى ، زاهد متصوف ، توفى سنة ٦٥٢ . انظر ترجمته فى : النجوم الزاهرة ٧ / ٣١ .

(٢) فى « مناقب ابن عربى » ص ٢٩ - ٣٠ أن ابن حمويه « لما رجع من الشام إلى بلاده سأله أشراف أترابه وخواص أصحابه : من تركت بالشام من العلماء ؟ قال رضى الله عنه : تركت بها بحراً زخاراً لا قعر له ولا ساحل . يعنى الشيخ محي الدين رضى الله عنه » .

(٣) ك : لما فيه من التجهم وكان الأشعرى يقول عن الرب .. الخ ، وهو خطأ . وفى (ع) : لما فيه من التجهم ، وتحت كلمة التجهم ، كتبت كلمة « الأشعرى » وعليها علامة الصحة . والمعنى : أن فى السهروردى تجهما مثل تجهم بعض الأشاعرة الذين تاثروا بالجهمية فى مسائل منها ميلهم إلى الجبر ونفى بعض الصفات . ولا يجوز أن تكون العبارة التالية من قول الأشعرى بل هى من قول السهروردى .

(٤) ك : يقرهم ، وهو تحريف ظاهر .

(٥) أبو الحسن على بن الحسين بن المنصور الحريرى ، صوفى من القائلين بوحدة الوجود وممن يظهر الزندقة ويستهزىء بأوامر الشرع ونواهيه وينتهك المحرمات ، توفى سنة ٦٤٥ . انظر ترجمته فى : فوات الوفيات ٢ / ٨٨ - ٩٤ ؛ النجوم الزاهرة ٦ / ٣٥٩ ، ٣٦٠ ؛ الأعلام ٥ / ٩٠ .

(٦) ع : لعين .

فهؤلاء منتهاهم إنكار المحبة التى يستحقها الرب ، ولهذا لايتابعون رسوله ، ولا يجاهدون فى سبيله ، والله وصف [المؤمنين][1] بهذا و بهذا ؛ فمحبة هؤلاء تجر إلى الزندقة .

وأيضا ، فقد يقولون : إن المحب لا تضره الذنوب ، وصنّف ابن حمويه فى ذلك مصنَّفـاً بناه على ما يُقال : إذا أحب الله عبداً لا تضره الذنوب . وهذا إذا قاله المحق فقصده أنه لا يتركه مصرًّا عليها بل يتوب عليه منها فلا تضره ، فأَخَذَه هؤلاء وقالوا : إن الذنوب لا تضر المحبوبين ، وأحدهم يقول عن نفسه : إنه محجوب فلا تضره الذنوب . فصاروا مثل اليهود والنصارى الذين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [سورة المائدة: ١٨] ، فصار فيهم زندقة من هذا الوجه ومن غيره .

بيان مقالة أهل السنة

وقد قال تعالى عن يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [سورةالنساء : ١٢٣] . وسيد المحبِّين المحبوبين خاتم الرسل وقد قال : « إنى أعلمكم بالله وأشدكم خشية له »[2] .

وهو سبحانه لايحب إلا الحسنات ولا يحب السيئات ، وهو يحب المتقين والمحسنين والصابرين والتوّابين والمتطهرين ، ولايحب كل مختال فخور ولايحب

---

(١) المؤمنين : زدتها ليتضح بها الكلام .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه ٨ / ٢٦ (كتاب الأدب ، باب من لم يواجه الناس بالعتاب) ؛ ومسلم فى صحيحه ٧ / ٩٠ (كتاب الفضائل ، باب علمه صلى الله عليه وسلم بالله تعالى وشدة خشيته) عن عائشة رضى الله عنها قالت (واللفظ للبخارى) : «صنع النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ؛ فإذا أحب عبداً وأذنب كان من التوّابين المتطهرين .

وبعض الناس يقول : الشاب التائب حبيب الله ، والشيخ التائب عتيقه . وليس ذلك ، بل كل من تاب فهو حبيب الله ، سواء كان شيخاً أو شابًّا ، وقد رُوى : أهل ذكرى أهل مجالستى ، وأهل شكرى أهل زيادتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أويسهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب .

وهذا فعله مع عباده : إذا أذنبوا إما أن يتوب عليهم ، وإما أن يبتليهم بما يطهرهم إذا لم يحمل السيئات تخفض درجتهم ، وإن لم يكن هذا ولا هذا انخفضت درجتهم بحسب سيئاتهم عن درجات من ساواهم فى الحسنات وسَلِمَ من تلك السيئات ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٢] : لأهل الجنة ولأهل النار درجات من أعمالهم بحسبها ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والعبد هو فقير دائماً إلى الله من كل وجه : من جهة أنه معبودُه وأنه مستعانُه ، فلا يأتى بالنعم إلا هو ، ولا يَصْلُح حال العبد إلا بعبادته . وهو مذنب أيضا ، لابد له من الذنوب ، فهو دائما فقير مذنب ، فيحتاج دائماً إلى الغفور الرحيم /: الغفور الذى يغفر ذنوبه ، والرحيم الذى يرحمه فينعم عليه ويحسن إليه ، فهو دائماً بين إنعام الرب وذنوب نفسه ، كما قال أبو إسماعيل الأنصارى [1] إنه يسير بين مطالعة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل . وكما قال ذلك العارف للحسن البصرى : إنى أصبح بين نعمة وذنب ، فأريد أن أحدث للنعمة شكراً وللذنب استغفارا .

ظ ١٣٩

---

(١) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن على الهروى الأنصارى ، كان يدعى شيخ الإسلام وكان إمام أهل السنة بهراه ، توفى سنة ٤٨١ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢/٢٤٧ ـ ٢٤٨ ؛ الذيل لابن رجب ١/ ٥٠ ـ ٦٨ ؛ الأعلام ٤/ ٢٦٧ .

وفى سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي»[(١)]. وفى الحديث الإلهى[(٢)] : « فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» . وكان يقول فى خطبته : «الحمدلله نستعينه ونستغفره»[(٣)]. وفى القنوت : «اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك» إلى آخره[(٤)] . وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع يحمدالله ثم يستغفره فيقول: «ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ـ وكلنا لك عبد ـ : لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد. اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبَرَد . اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»[(٥)] .

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه ٨ / ٧١ (كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا أصبح) وفى كتاب « الأدب المفرد » ص ١٦١ (ط . السلفية) (باب سيد الاستغفار). عن شداد بن أوس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي » الحديث ، ورواه النووى فى « الأذكار » ص ٧١ .

(٢) وهو الحديث القدسى المروى عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبىصلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .. الحديث ، ورواه مسلم فى صحيحه ٨ / ١٦ ـ ١٨ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) .

(٣) روى أحمد فى مسنده (ط . المعارف) ٥ / ٢٧١ (رقم ٣٧٢٠) عن عبد الله ابن مسعود رضىالله عنه عنالنبى صلى الله عليه وسلم قال : علمنا خطبة الحاجة : الحمد لله نستعينه ونستغفره . . الحديث . وانظرأرقام : ٣٢٧٥ ، ٣٧٢١ ، ٤١١٥ ، ٤١١٦ . قال المحقق رحمه الله إن الحديث قد رواه الترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم . وانظر الأذكار للنووى ، ص ٢٥٠ ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٤) قال النووى فى «الأذكار» ، ص ٥٨ : «قال أصحابنا : وإن قنت بما جاء عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان حسناً ، وهو أنه قنت فى الصبح بعد الركوع فقال : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ولانكفرك .. الحديث » . وقد أورد الشيخ على المتقى فى كتابه « كنز العمال » الروايات المختلفة عن هذا القنوت . انظر جـ ٨ ص ٤٧ ـ ٥١ ، ط . حيدرآباد ، ١٣٨٠ / ١٩٦٠ .

(٥) ماورواه ابن تيمية فيه جمع بين بعض أحاديث مروية فيما يقال عندرفع الرأس من الركوع. انظر : مسلم ٢ / ٤٦ ـ ٤٨ (كتاب الصلاة ، باب مايقول إذا رفع رأسه من الركوع) ؛ الأذكار للنووى ، ص ٥٢ ـ٥٣ (باب مايقوله فى رفع رأسه من الركوع وفى اعتداله) .

والاستغفار مقرون بالحمد كما قرن بالتوحيد ، وكما قرن الحمد بالتحميد .
وقد جمعت الثلاثة فى مثل كفَّارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك »[١] .

وكان المقصود أن الجهمية المجبرة لما آمن منهم من آمن بالرسل صار عندهم خوفٌ ما ورجاء ما ، وصاروا يوجبون الشكر شرعاً ، فالداعى عندهم جزء من الشرع . وأما داعى المعتزلة فهو أقوى من داعيهم ، فهم أحسن أعمالا وأعبد وأطوع وأورع ، كأهل السنة والمعرفة : فهم يعبدونه مع الخوف والرجاء والشكر بداعى المحبة ومعرفة الحكمة والإلهية ، وهذه ملة إبراهيم الخليل ؛ فهم فوق هؤلاء كلهم . والله تعالى أعلم .

[٢] آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد وآله وسلم[٢] .

---

(١) الحديث مروى فى سنن أبى داود ٤ / ٣٦٥ – ٣٦٦ (كتاب الأدب ، باب فى كفارة المسجد) . وانظر الأذكار ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .
(٢ – ٢) : زيادة فى (ع) .

رسالة في معنى كون الرب عادلاً وفي تنزهه عن الظلم

ص ٣٩

﴿ قاعـــدة ﴾

فى معنى كون الرب عادلا ، وفى تنزهه عن الظلم
وفى إثبات عدله وإحسانه

تأليف شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ، مما ألفه فى محبسه الأخير بالقلعة بدمشق ، قدّس الله روحه .

ظ ٣٩

/ بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليما .

﴿ فصـــل ﴾ [1]

اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله تعالى عدل قائم بالقسط لا يظلم شيئاً ، بل هو منزّه عن الظلم .

تنازع طوائف المسلمين فى معنى الظلم الذى ينزه الله عنه

ثم لما خاضوا فى القدر تنازعوا فى معنى كونه عدلا فى الظلم الذى هو منزّه عنه .

مقالة الجهمية والأشاعرة

فقالت طائفة : الظلم ليس بممكن الوجود، بل كل ممكن إذا قُدِّر وجوده منه فإنه عدل ، والظلم هو الممتنع : مثل الجمع بين الضدين وكون الشىء موجوداً معدوما ؛ فإن الظلم : إما التصرف فى ملك الغير ـ وكل ماسواه ملكه ، وإما مخالفة الآمر[2] الذى تجب طاعته ـ وليس فوق الله تعالى آمر تجب عليه طاعته .

وهؤلاء يقولون : مهما تُصوِّر وجوده وقُدِّر وجوده فهو عدل . وإذا قالوا: كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، فهذا أمر أوهم .

---

(١) فصل : زيادة فى (ع) .
(٢) ع : الأمراء ، وهو تحريف .

وهذا قول الجبرة ، مثل جهم ومن اتبعه ، وهو قول الأشعرى وأمثاله من أهل الـكلام ، وقول من وافقهم من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية .

وقد رُوى عن بعض المتقدمين كلمات مطلقه تشبه هذا المذهب ، مثل قول إياس بن معاوية[١] : «ماناظرت بعقلى كله إلا القدرية ، قلت لهم: ما الظلم؟ قالوا: أن تأخذ ما ليس لك . قلت : فلله كل شيء » . ومثل قول أبى الأسود لعمران ابن حصين لما سأله فقال عمران: «أرأيت مايكدح الناس اليوم ويعملون فيه،أشيء قُضِيَ عليهم ومضى من قدر قد سبق ، أوفيما يستقبلون فيما أتاهم به نبيهم فاتخذت به عليهم الحجة ؟ قال : قلت : بل شيء قد قضى عليهم ومضى عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت من ذلك فزعاشديداً ،وقلت له :إنه ليس شيء إلا وهو خلق الله وملك يده ، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون . فقال : سدَّدك الله ، إنى والله ماسألتك إلا لأحرز عقلك »[٢] .

وهذا قول كثير من أصحاب مالك والشافعى وأحمد ، كالقاضى أبى يعلى[٣]

---

(١) إياس بن معاوية بن قرة المزنى ، أبو واثلة ، يضرب به المثل فى الذكاء . قال ابن سعد : « كان ثقة ، وكان قاضياً على البصرة ، وله أحاديث ، وكان عاقلا من الرجال فطناً» . وقد توفى إياس سنة ١٢٢ . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٧ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ وفيات الأعيان ١/٢٢٣ ـ ٢٢٦ ؛ تهذيب التهذيب ١ / ٣٩ ؛ الأعلام للزركلى ١/٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٢) هذه المحاورة بين عمران بن حصين رضى الله عنه وبين أبى الأسود الدئلى رواها مسلم فى صحيحه ٨ / ٤٨ ـ ٤٩ (كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمى . . الخ) ، ويذكر عمران بعد هذا الـكلام حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم . وبعض ألفاظ الخبر كما رواه ابن تيمية مخالف لما فى مسلم .

(٣) أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء من كبار الحنابلة وعالم عصره فى الأصول والفروع . ولد سنة ٣٨٠ وتوفى سنة ٤٥٨ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة (لابنه أبى الحسين محمد بن محمد) ٢ / ١٩٣ ـ ٢٣٠ ؛ تاريخ بغداد ٢/٢٥٦ ؛ شذرات الذهب ٤/٣٠٦ ـ ٣٠٧ ؛ الوافى بالوفيات ٣ / ٧ ؛ الأعلام ٦ / ٣٣١ .

وأتباعه ، وأبى المعالى الجوينى[١] وأتباعه ، وأبى الوليد الباجى[٢] وأتباعه ، وغيرهم .

مقالة المعتزلة

والقول الثانى : أنه عدل لا يظلم لأنه لم يُرد وجود شىء من الذنوب : لا الكفر ولا الفسوق ولا العصيان ، بل العباد فعلوا ذلك بغير مشيئته كما فعلوه عاصين لأمره ، وهو لم يخلق شيئا من أفعال العباد : لا خيراً ولا شرًّا ، بل هم أحدثوا أفعالهم ، فلما أحدثوا معاصيهم استحقوا العقوبة عليها ، فعاقبهم بأفعالهم ، لم يظلمهم .

ص ٤٠

/ هذا قول القدرية من المعتزلة وغيرهم . وهؤلاء عندهم لا يتم تنزيهه عن الظلم إن لم يُجعل غير خالقٍ لشىء من أفعال العباد ، بل ولا قادر على ذلك ، وإن لم يجعل غير شاء لجميع الكائنات ، بل يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، إذ المشيئة عندهم بمعنى الأمر .

وهؤلاء والذين قبلهم يتناقضون تناقضاً عظيماً ، ولكل من الطائفتين مباحث ومصنفات فى الرد على الأخرى ، وكل من الطائفتين تسمى الأخرى القدريةَّ ، وقد رُوى عن طائفة من التابعين موافقة هؤلاء .

مقالة أهل السنة

والقول الثالث : أن الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، والعدل وضع كل شىء فى موضعه ، وهو سبحانه حَكَمٌ عَدلٌ يضع الأشياء مواضعها ، ولا

---

(١) أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى ويلقب بإمام الحرمين . ولد بنيسابور سنة ٤١٩ وتوفى بها سنة ٤٧٨ . وهو من أعظم أئمة الأشاعرة وقد تتلمذ عليه الغزالى . انظر ترجمته فى : تبيين كذب المفترى لابن عساكر ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٥ ؛ طبقات الشافعية ٤ / ٢٤٩ـ٢٨٢ ؛ شذرات الذهب ٣/٣٥٨ـ٣٦٢ ؛ وفيات الأعيان ٢/٣٤١ـ٣٤٣ ؛ الأعلام ٤ / ٣٠٦ .

(٢) أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجى ، من كبار علماء المالكية ، ولد بالأندلس سنة ٤٠٣ وتوفى سنة ٤٧٤ . انظر ترجمته فى : الديباج المذهب لابن فرحون ، ص ١٢٠ ـ ١٢٢ ؛ وفيات الأعيان ٢/١٤٢ ـ ١٤٣ ؛ تاريخ ابن الوردى ١/٣٦١ ؛ الأعلام ٣/١٨٦ .

يضع شيئاً إلا فى موضعه الذى يناسبه وتقتضيه الحكمة والعدل ، ولا يفرِّق بين متماثلَيْن ، ولا يسوِّى بين مختلفين ، ولا يعاقب إلا من يستحق العقوبة فيضعها موضعها لما فى ذلك من الحكمة والعدل .

وأما أهل البر والتقوى فلا يعاقبهم ألبتة . قال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [سورة القلم : ٣٥ ، ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية [سورة الجاثية : ٢١] .

قال أبو بكر بن الأنبارى : الظلم وضع الشىء فى غير موضعه . يقال[١] : ظلم الرجل سِقاءَهُ ، إذا سقا منه قبل أن يخرج زُبْدَه . قال الشاعر :

وصاحبِ صدْقٍ لم تَنَلْنِى شَكَاتُهُ ظلمتُ ، وفى ظَلْمِى له عامِداً أجرُ[٢]

أراد بالصاحب وَطْبَ اللبن[٣] ، وظَلْمُه إياه أن يسقيه قبل أن يخرج زُبْدَهُ . والعرب تقول : هو أظلم من حيَّةٍ لأنها تأتى الحفرَ الذى لم تحفره فتسكنه . ويقال : قد ظلم الماء الوادى إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى ، ذكر ذلك أبو الفرج . وكذلك قال البغوى : أصل الظلم وضع

---

(١) يقال : رسمت فى الأصل فى النسختين « مقال » .

(٢) البيت فى اللسان مادة : (ظلم) : « لم تربنى شكاته » . وفى مجالس ثعلب ، ص ١٠٦ ؛ والأساس : (ظلم) : « لم تنلنى أذاته » ، وجاء البيت غير منسوب فى هذه المراجع . وفى اللسان (ظلم) : « والظليمة والظليم : اللبن يشرب منه قبل أن يروب ويخرج زبده .. قال (فى شرح البيت) : هذا سقاء سقى منه قبل أن يخرج زبده ، وظلم وطبه ظلما (بفتح الظاء) إذا سقى منه قبل أن يروب ويخرج زبده » .

(٣) الوطب : سقاء اللبن .

الشىء فى غير موضعه ، وكذلك ذكر غير واحد . قالوا : والعرب تقول : من أشبه أباه فما ظلم ، أى ما وضع الشبه فى غير موضعه .

وهذا الأصل ، وهو عدل الرب ، يتعلق بجميع أنواع العلم والدين ، فإن جميع أفعال الرب ومخلوقاته داخلة فى ذلك ، وكذلك أقواله وشرائعه وكتبه المنزّلة ، وما يدخل فى ذلك من مسائل المبدأ والمعاد ، ومسائل النبوات وآياتهم ، والثواب والعقاب ، ومسائل التعديل والتجوير وغير ذلك ، وهذه الأمور مما خاض فيه جميع الأمم ، كما قد بسط فى مواضع .

وأهل الملل كلهم يقرون بعدله ، لأن الكتب الإلهية نطقت بعدله ، وأنه قائم بالقسط ، وأنه لا يظلم الناس مثقال ذرة . / لكن كثير من الناس فى نفسه ضغن من[1] ذلك ، وقد يقوله بلسانه و يعرِّض به فى نظمه ونثره ، وهؤلاء أكثر ما يكونون فى المجبرة الذين لا يجعلون العدل قسيماً لظلم ممكن لا يفعله ، بل يقولون : الظلم ممتنع ، و يجوِّزون تعذيب الأطفال وغير الأطفال بلا ذنب أصلا ، وأن يخلق خلقاً يعذبهم بالنار أبداً لا لحكمةٍ أصلا ، ويرى أحدهم أنه خلق فيه الذنوب وعذّب بالنار لا لحكمةٍ ولا لرعاية عدل ، فتفيض نفوسهم إذا وقعت منهم الذنوب وأصيبوا بعقوباتها بأقوال يكونون فيها خصماء الله تعالى ، وقد وقع من هذا قطعة فى كلام طائفة من الشيوخ وأهل الكلام ، ليس هذا موضع حكاية أعيانهم .

ظ ٤٠

وما ذكرناه من الأقوال الثلاثة نضبط أصول الناس فيه ، ونبين أن القول الثالث هو الصواب ، و به يتبين أن كل ما يفعله الرب فهو عدل ، وأنه لا يضع

---

(١) فى الأصل فى النسختين رسمت العبارة «ظعن من» وكتب فى الهامش « طعن فى » وفوقها « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

الأشياء فى غير موضعها : فلا يظلم مثقال ذرة ، ولا يجزى أحداً إلا بذنبه ، ولا يخاف أحد ظلماً ولا هضما : لا يُهضم من حسناته ، ولا يُظلم فيزاد عليه فى سيئاته ، لا من سيئات غيره ولا من غيرها ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى[1] ، أى لا يملك ذلك ولا يستحقه ، وإن كان قد يحصل له نفع بفضل الله ورحمته و بدعاء غيره وعمله ، فذاك قد عرف أن الله يرحم كثيراً من الناس من غير جهة عمله ، لكنه ليس له إلا ما سعى . قال الله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [سورة النجم : ٣٦ ـ ٤١] . وقوله : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ يقتضى أن المنبأ بذلك يجب عليه تصديق ذلك والإيمان به ، فكان هذا مما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم مُصَدِّقاً لإبراهيم وموسى ، كما قال فى آخر «سبّح» : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [سورة الأعلى : ١٨ ، ١٩] .

﴿ فصـــل ﴾

ومما يبيّن عدل الرب وإحسانه وأن الخير بيديه والشر ليس إليه ، كما كان عليه السلام يثنى على ربه بذلك فى مناجاته له فى دعاء الاستفتاح[2] ،

---

(١) فى هامش (ع) فقط كلمات ظهر منها : .. .. على قوله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ما سعى) .

(٢) روى مسلم فى صحيحه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ٢/١٨٥ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه) : « عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض » .... =

وأنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة ، بل مع غاية عدله فهو أرحم الراحمين ، وهو أرحم من الوالدة بولدها ، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح[1] ، وهو سبحانه أحكم الحاكمين ، كما قال نوح فى مناجاته : ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٥][2] ، وأن الظلم قد ذكرنا فى غير موضع أن للناس فى تفسيره ثلاثة أقوال : قيل : هو التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، أو مخالفة الآمر الذى تجب طاعته ؛ وكلاهما منتفٍ فى حق الله تعالى .

ص ٤١

وهذا تفسير المجبرة القدرية من الجهمية وغيرهم/وكثير ممن ينتسب إلى السنة، وهو تفسير الأشعرى وأصحابه ومن وافقهم ، كالقاضى أبى يعلى وأتباعه ، وأبى الفرج ابن الجوزى ، وغيرهم .

والثانى : أنه إضرار غير مستحق ؛ وهذا أيضاً منتفٍ عن الله تعالى . وهذا تفسير المعتزلة وغيرهم .

وهؤلاء يقولون : لو قَدَّر الذنوب وعذَّب عليها لكان إضراراً غير مستحق ، والله منزّه عنه ؛ وأولئك يقولون : الظلم ممتنع لذاته غير ممكن ولا مقدور ، بل كل ما يمكن فهو عدل غير ظلم ، وإذا عذَّب جميع الخلق بلا

= الحديث وفيه : « لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك » . وروى أحمد الحديث فى مسنده (ط . المعارف) ٢ / ١٣٤ ـ ١٣٥ (الأرقام ٨٠٣ ـ ٨٠٥) . وانظر مشكاة المصابيح للتبريزى ١ / ٢٥٥ ـ ٢٥٧ (ط . دمشق) ؛ الأذكار للنووى ، ص ٤٣ ؛

(١) روى البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صحيحه ٨/٨ (كتاب الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته) : « قدم على النبى صلى الله عليه وسلم سبى فإذا امرأة من السبى قد تحلب ثديها تسقى ، إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته . فقال لنا النبى صلى الله عليه وسلم : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قلنا : لا ، وهى تقدر على أن لا تطرحه . فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها » . وانظر حديثا آخر بهذا المعنى فى سنن ابن ماجة ١٤٣٦/٢ .

(٢) تمام الآية : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) .

ذنب أصلاً لم يكن ظلماً عند هؤلاء ، وإذا فعل ما يشاء بمقتضى حكمته وقدرته كان ظلماً عند أولئك ، فإنهم يجعلون ظلمه من جنس ظلم العباد ، وعدله من جنس عدلم ، وهم مشبِّهة الأفعال .

والسيد إذا ترك مماليكه يظلمون ويفسدون مع قدرته على منعهم كان ظالماً ، (١ وإذا كان قد أمرهم ونهاهم وهو يعلم أنهم يعصونه وهو قادر على منعهم كان ظالماً ١) ، وإذا قال : مقصودى أن أعرِّضهم لثواب الطاعة ولذلك اقتنيتهم — وقد علم أنهم لا يطيعونه — كان سفيهاً ظالماً(٢) . وهم يقولون : إن الرب خلق الخلق وليس مراده إلا أن ينفعهم ، وأمرهم وليس مراده إلا نفعهم بالثواب ، مع علمه أنهم يعصونه ولا ينتفعون .

ولهذا طائفة منهم نفت علمه ، وآخرون قالوا : ما يمكنه أن يجعلهم مطيعين ، وهو قول جمهورهم ، فنفوا قدرته . وإن أثبتوه عالماً قادراً ولم يفعل ما أراده من الخير جعلوه : غير حكيم ، ولا رحيم ، بل ولا عادل .

وأما الطائفة الأخرى فهم معطِّلة فى الأفعال ، كما أن أولئك مشبِّهة الأفعال ، فإنهم يعطلون فعل العبد ويقولون : ليس بفاعل ولا قادر على الفعل ولا له قدرة مؤثرة فى المقدور . وأما الرب فيقولون : خلق ما خلق لا لحكمة أصلاً ، فعطَّلوا حكمته ، وقال : إنه يجوز أن يعذِّب جميع الخلق بلا ذنب ، فعطلوا عدله . والعدل هو فعله ، وهو سبحانه قائم بالقسط ، فمن نفى عدله وحكمته فإما أن ينفى فعله وإما أن يصفه بضد ذلك من الظلم والسفه ؛ كما أن الكلام على الطائفتين فى غير هذا الموضع .

(١ــ١) : ساقط من (ع).
(٢) هذه الفكرة التى يعرضها ابن تيمية هنا تشبه إلى حد كبير فكرة الأشعرى فى كتابه « الإبانة » ص ٤٨ ، باب الكلام فى الإرادة ، المطبعة المنيرية ، بدون تاريخ .

والصواب القول الثالث : وهو أن الظلم وضع الأشياء فى غير مواضعها ، وكذلك ذكره أبو بكر بن الأنبارى وغيره من أهل اللغة ، وذكروا على ذلك عدة شواهد ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وحينئذ فليس فى الوجود ظلم من الله سبحانه ، بل قد وضع كل شىء موضعه مع قدرته على أن يفعل خلاف ذلك ، فهو سبحانه يفعل باختياره ومشيئته ، ويستحق الحمد والثناء على أن يعدل ولا يظلم ، خلاف قول المجبرة الذين يقولون : لا يقدر على الظلم ، وقد وافقهم بعض المعتزلة كالنظَّام ، لـكن الظلم عنده غير الظلم عندهم ، فأولئك يقولون : الظلم هو الممتنع لذاته ، وهذا يقول : هو ممكن لـكن لايقدر عليه . والقدرية النفاة يقولون : ليس فى الوجود ظلم من الله لأنه عندهم / لم يخلق شيئاً من أفعال العباد ولا يقدر على ذلك ، فما نزَّهوه عن الظلم إلا بسلبه القدرة وخلقَ كل شىء ، كما أن أولئك ماأثبتوا قدرته وخلقه كل شىء حتى قالوا إنه لاينزَّه أن يفعل ما يمكن كتعذيب البُرَآء بلا ذنبٍ ، فأولئك أثبتوا له حمداً بلا ملك ، وهؤلاء أثبتوا له ملكا بلا حمد ، وأهل السنة أثبتوا ما أثبته لنفسه : له الملك والحمد ، فهو على كل شىء قدير ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو خالق كل شىء ، وهو عادل فى كل ماخلقه ، واضعٌ للأشياء مواضعَها ، وهو قادر على أن يظلم ، لـكنه سبحانه منزَّه عن ذلك لايفعله لأنه السلام القُدُّوس المستحق للتنزية عن السوء ، وهو سبحانه سبُّوح قدُّوس يسبح له ما فى السماوات والأرض ، وسبحان الله كلمة ـ كما قال ميمون بن مهران[1] : هى كلمة يُعَظَّم بها الربُّ ويُحَاشَى بها من السوء .

ظ ٤١

(١) أبو عمرو ميمون بن مهران من ثقات التابعين ولد سنة ٤٠ وتوفى سنة ١١٧ . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٧ / ٤٧٧ ـ ٤٧٩ ؛ الجرح والتعديل ، حـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

وكذلك قال ابن عباس وغير واحد من السلف : إنها تنزيه الله من السوء . وقال قتادة فى اسمه « المتكبر » : إنه الذى تكبر عن السوء ؛ وعنه أيضاً : إنه الذى تكبر عن السيئات .

فهو سبحانه منزّه عن فعل القبائح ، لايفعل السوء ولا السيئات ، مع أنه سبحانه خالق كل شىء : أفعال العباد وغيرها . والعبد إذا فعل القبيح المنهىّ عنه كان قد فعل سوءاً وظلماً وقبيحاً وشرّاً ، والرب قد جعله فاعلاً لذلك ، وذلك منه سبحانه عدل وحكمة وصواب ووضع للأشياء مواضعها ، فخلقه سبحانه لما فيه نقص أو عيب للحكمة التى خلقه لها هو محمودٌ عليه ، وهو منه عدل وحكمةٌ وصوابٌ وإن كان فى المخلوق عيباً ، ومثل هذا مفعول فى الفاعلين المخلوقين ، فإن الصانع إذا أخذ الخشبةَ المعوجّةَ والحجرَ الردىّ واللبِنةَ الناقصة فوضعها فى موضع يليق بها ويناسبها كان ذلك منه عدلاً واستقامة وصواباً وهو محمود ، وإن كان فى تلك عوجٌ وعيب هى به مذمومة ، ومن أخذ الخبائث فجعلها فى المحلّ الذى يليق بها كان ذلك حكمةً وعدلاً ، وإنما السّفَهُ والظلم أن يضعها فى غير موضعها ، ومن وضع العمامة على الرأس والنعلين فى الرجلين فقد وضع كل شىء موضعه ، ولم يظلم النعلين إذ هذا محلهما المناسب لهما ، فهو سبحانه لايضع شيئاً إلا موضعه ، فلا يكون إلا عدلا ، ولا يفعل إلا خيراً ، فلا يكون إلا محسناً جواداً رحيما ، وهو سبحانه له الخلق والأمر ، فكما أنه فى أمره لايأمر إلا بأرجح الأمرين ، ويأمر بتحصيل المصالح وتكميلها ، وبتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإذا تعارض أمران رجّح أحسنهما ، وليس فى الشريعة أمرٌ بفعل إلا ووجوده للمأمور خير من عدمه ، ولا نهى عن فعل إلا وعدمه خير من وجوده ، وهو فيما يأمر به قد أراده إرادةً دينيةً شرعيةً وأحبه[1] / ورضِيَه ، فلا يحب ويرضى شيئاً إلا ووجوده خير من عدمه ، ولهذا أمر عباده أن يأخذوا

ص ٤٢

(١) فى النسختين : واجبه ، والصواب ما أثبته وهو الذى يدل عليه السياق .

بأحسن ما أُنزل إليهم من ربهم ، فإن الأحسن هو المأمور [به][١] ، وهو خير من المنهى عنه .

الخير بيديه سبحانه والشر ليس إليه

كذلك هو سبحانه فى خلقه وفعله ، فما أراد أن يخلقه ويفعله كان أن يخلقه ويفعله خيراً من أن لايخلقه ويفعله ، ومالم يرد أن يخلقه ويفعله كان أن لا يخلقه ويفعله خيراً من أن يخلقه ويفعله ، فهو لايفعل إلا الخير ، وهو ماوجوده خير من عدمه ، فكل ما كان عدمه خيراً من وجوده ، فوجوده شر ، فهو لايفعله ، بل هو منزّه عنه ، والشر ليس إليه ، فالشر – وهوما كان وجوده شرًّا من عدمه – ليس إليه ، إذ كان هذا مستحقًّا[٢] للعدم لايشاؤه ولا يخلقه ، والمعدوم لايضاف إلى فاعل فليس إليه ، ولكن الخير بيديه – وهوما كان وجوده خيراً من عدمه .

التعليق على قول بعضهم : الخير كله فى الوجود والشر كله فى العدم

ومن الناس من يقول : الخير كله فى الوجود ، والشر كله فى العدم ، والوجود خير ، والشر المحض لايكون إلا معدوماً . وهذا لفظ مجمل ، فإذا أُريد بذلك أن كل ماخلقه الله وأوجده ففيه الخير ووجوده خير من عدمه فهذا صحيح ، وكذلك ما لم يخلقه ولم يشأه ، وهو المعدوم الباقى على عدمه ، لاخير فيه ، إذ لوكان فيه خير لفعله سبحانه ، فإنه سبحانه بيده الخير ، فالشر العدمى هو عدم الخير ، لا أن فى العدم شرًّا وجوديًّا[٣] . وأما إذا أُريد أن كل ما يُقدّر وجوده فوجوده خير ، وكل مايقدّر عدمه فعدمه شر فليس بصحيح ، بل من الأشياء ماوجوده شر[٤] من عدمه ، ولكن هذا لايخلقه الرب فيبقى معدوما ، وعدمه خير ، فهذا خير من هذا العدم ، بمعنى أن عدمه خير من وجوده ، إذ كان وجوده فيه ضرر راجح ، وعدم الضرر الراجح خير ، فهو خير عدمى فى العدم ،

---

(١) به : ساقطة من النسختين .

(٢) فى النسختين : مستحق ، وهو خطأ .

(٣) فى النسختين : شر وجودى ، وهو خطأ .

(٤) فى النسختين : شراً ، وهو خطأ .

إذ العدم لا يكون فيه وجود ، فالشر ليس إليه ، وهو ما كان وجوده شرًّا من عدمه ، فإنه لا يخلق هذا ، وما لم يخلقه فإنه ليس إليه ، وكل ما خلقه فوجوده خير من عدمه ، وهو سبحانه بيده الخير ، وذلك الذى وجوده شر من عدمه فإنه سبحانه يدفعه ويمنعه أن يكون مع القيام المقتضى له ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [سورة الحج : ٣٨][(١)] ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٧] ، ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة الرعد : ١١] ، ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [سورة المؤمنون : ٨٨] .

فدفعه الشرَّ الذى تريده النفوس الشريرة هو من الخير وهو بيديه ، ولو مكَّن تلك النفوس لفعلته ، فهو سبحانه لا يمكنها بل يمنعها إذا أرادته ، مع أنها لو خُلِّيَت لفعلته ، فهو تارة يمنع الشر بإزالة سببه ومقتضيه ، وتارة يخلق ما يضادّه وينافيه : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [سورة النحل : ٥٣] .

وقول القائل : خير وشر ، أى هذا خير من هذا ، وهذا شر من هذا ، ولهذا غالب استعمال هذين الاسمين كذلك ، كقوله : / ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة النمل : ٥٩] ، ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [سورة الفرقان : ٢٤] ، ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] .

ظ ٤٢

---

(١) فى (ك) : (إن الله يدفع عن الذين آمنوا) و « يدفع » قراءه ابن كثير ونافع وأبى عمرو – انظر « البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة » لعبد الفتاح القاضى ، ط. مصطفى الحلبى ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

وقالت السحرة : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [سورة طه : ٧٣] . وقال : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٦٠] ، وقال يوسف : ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ [سورة يوسف : ٧٧] .

وقال حسّان :

فشركما لخيركما الفداء (١)

الخير والشر درجات

فالخير ما كان خيراً من غيره ، والشر ما كان شرًّا من غيره ، والخير والشر درجات . ولهذا قال تعالى لما ذكر أهل الجنة وأهل النار ، قال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [سورة الأنعام : ١٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٦٢ ، ١٦٣] وكذلك ذكر تعالى فى الأنعام والأحقاف بعد ذكر الطائفتين(٢) .

ولهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات الجنة تذهب علوا ، ودرجات النار تذهب سفولا ، فدرجات الجنة كلها فيها النعيم ، وبعضها خير من بعض ، ودرجات النار كلها فيها العذاب ، وبعضها شر من بعض .

---

(١) صدره كما فى الديوان ، ص ٨ (ط . التجارية ، ١٣٤٧ / ١٩٢٩) :

* أتهجوه ولست له بكفء *

والبيت من قصيدة يرد فيها على أبى سفيان الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ، وكان قد هجا الرسول صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه . وانظر تفسير الطبرى ١ / ٣٦٨ .

(٢) انظر : سورة الأنعام : ١٦٥ ؛ سورة الأحقاف : ١٩ .

وإذا قيل : إن الله سبحانه هو خالق الخير والشر ، فالمراد ماهو شر من غيره وفيه أذى لبعض الناس ، ولكن خلقه لحكمةٍ ، وماخُلق لحكمةٍ مطلوبةٍ محبوبةٍ فوجوده خير من عدمه ، فلم يخلق شيئاً يكون شرًّا ، أى يكون وجوده شرًّا من عدمه ، لكن يخلق ما هو[1] شر من غيره وغيره خير منه للحكمة المطلوبة، وما فيه أذًى لبعض الناس للحكمة المطلوبة .

لا يعذب الله أحداً إلا بذنبه

وهو سبحانه لايعذِّب أحداً إلا بذنبه ، بمقتضى الحكمة والعدل ، وفى تعذيبه أنواع الحكمة والرحمة . وهذا ظاهر فيما يبتلى به المؤمنين فى الدنيا من المصائب التى هى جزاء سيئاتهم ، فإن [فى][2] ذلك من الحكمة والرحمة والعدل ما هو بيّن لمن تأمله ، ولا يُعاقِب أحداً[3] إلا بذنبه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [سورة الشورى : ٣٠] ، و ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [سورة النساء : ٧٩]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٣]، فلا يسلبهم إلا إذا غيّروا ما فى أنفسهم بالمعاصى والذنوب ، فلا يجزى بالسيئات إلا من فعل السيئات ، ولا يُوقع النقم ويسلب النعم إلا من أتى[4] بالسيئات المقتضيه لذلك ، كما فعل بمن خالف رسله من جميع الأمم ، كما قال فى العذاب : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ

---

(١) هو : ساقطة من (ع) .

(٢) فى : ليست فى النسختين وزدتها ليستقيم الكلام .

(٣) فى (ع) : ولا يعاقب (بالبناء للمجهول) أحد ...

(٤) ع : إلا لمن أتى .

بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٢] ثم قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ الآية وما بعدها إلى قوله : ﴿ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٣ ـ ٥٤] فذكر تمثيلاً لزوال النعم عليهم لمّا كذّبوا بآياته .

ولهذا قال : ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٤] / ، وذكر الأول تمثيلا لعذابهم بعد الموت كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الأنفال : ٥٠ ـ ٥٢] ، فقال هنا : ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فإن أخذه يتضمن أخذهم ليصلوا بعد الموت إلى العذاب . ولفظ « الهلاك » يقتضى هلاكهم فى الدنيا وزوال النعمة عنهم ، فذكر هلاكهم بزوال النعم وذكر أخذهم بالنقم كما قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [سورة هود : ١٠٢] .

ص ٤٣

ولفظ « المؤاخذة » من الأخذ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] . وقوله : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [سورة البروج : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ الآية [سورة الأنعام : ٤٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ٧٦] فهذا تعذيب لهم فى الدنيا ليتضرعوا إليه وليتوبوا . وذكر هنا أنه أخذهم

بالعذاب ولم يقل بالذنوب ، كأنه ـ والله أعلم ـ ضمَّن ذلك معنى جذبناهم إلينا ليُنيبُوا وليتوبوا . وإذا قال : فأخذهم الله بذنوبهم ، يكون قد أهلكهم فأخذهم إليه بالهلاك ، وبسط هذا له موضع آخر .

الله يفعل الخير والأحسن

والمقصود هنا أن كل ما يفعله الرب ويخلقه فوجوده خير من عدمه ، وهو أيضاً خير من غيره ، أى من موجود غيره يُقدَّر موجوداً بدله ، فكما أن وجوده خير من عدمه فهو أيضاً خير من موجود آخر يُقدَّر مخلوقاً بدله ، كما ذكرنا فيما يأمر به أنَّ فعله خير من تركه وأنه خير من أفعالٍ غيره يشتغل بها عنه كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الجمعة : ٩] .

وقولنا : فعله خير من تركه ، سواء جعل الترك وجوديًّا أو عدميًّا ، والرب تعالى له المثل الأعلى ، وهو أعلى من غيره ، وأحق بالمدح والثناء من كل ما سواه ، وأولى بصفات الكمال ، وأبعد عن صفات النقص ، فمن الممتنع أن يكون المخلوق متصفاً بكمال لا نقص فيه ، والرب لا يتصف إلا بالكمال الذى لا نقص فيه ، وإذا كان يأمر عبده أن يفعل الأحسن والخير فيمتنع أن لا يفعل هو إلا ما هو الأحسن والخير ، فإن فعل الأحسن والخير مدح وكمال لا نقص فيه ، فهو أحق بالمدح والكمال الذى لا نقص فيه من غيره .

قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٥] . وقال : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [سورة الزمر : ١٨] ، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ

مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٥٥] ، وقال : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة الحج : ٧٧] .

ظ ٤٣

وقد قال تعالى فى مدح نفسه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ إلى قوله : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة آل عمران : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ [سورة الزمر : ٢٣] فكلامه أحسن الكلام . وقال تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ الآية [سورة السجدة : ٧] فقد أحسن كلّ شىء خلقه ، وقال : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [سورة النمل : ٨٨] .

وهو سبحانه الرحمن الرحيم ، الغفور الودود ، الجواد الماجد ، وهو سبحانه الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ، وهو أرحم الراحمين وخير الراحمين ، كما قال أيوب : ﴿ مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٣] ، وقال لنبيه : ﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١١٨] ، فهو أحق بالرحمة والجود والإحسان من كل أحد .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ [سورة القصص: ٦٨] فأخبر أنه يخلق مايشاء ويختار .

والاختيار فى لغة القرآن[1] يراد به التفضيل والانتقاء والاصطفاء ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [سورة طه : ١١-١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا

---

(١) ك : والاختيار فى اللغة القرآن .

بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سورة الدخان : ٣٠] إلى قوله : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة الدخان : ٣٢ ، ٣٣] . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ الآية [سورة الجاثية : ١٦] . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٥] . ومنه فى الحديث : « إن الله اختار من الأيام يوم الجمعة ، ومن الشهور شهر رمضان ، واختار الليالى فاختار ليلة القدر ، واختار الساعات فاختار ساعات الصلوات » رواه ابن عساكر فى كتاب « تشريف يوم الجمعة وتعظيمه »[1] عن كعب الأحبار .

﴿ فصل مختصر ﴾[2]

قال الشيخ رحمه الله فى آخر هذا الفصل من هذه القاعدة :

بيان حقيقة إرادة الله

فإذا أراد سبحانه أن يخلق كان الخلق عقب الإرادة ، والمخلوق عقب التكوين والخلق ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سوره يس : ٨٢] .

والجهمية والمعتزلة لا يقولون بذلك فى الفعل ، بل يقولون : يفعل مع جواز أن لا يفعل . إلى أن قال :

---

(١) أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ، المحدث الفقيه المؤرخ ، ولد سنة ٤٩٩ ، وتوفى سنة ٥٧١ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢ / ٤٧١ - ٤٧٣ ؛ تذكرة الحفاظ ٤ / ١٣٢٨ - ١٣٣٤ (وذكر من كتبه : فضل الجمعة أربعة أجزاء) ؛ مقدمة تبيين كذب المفترى ؛ الأعلام ٥ / ٨٢ - ٨٣ .

(٢) فى هامش (ع) : « هذا الفصل مختصر من فصل الاختيار من هذه القاعدة اختصرته لما فى ذلك من الكلام مع المعتزلة والجهمية وغيرهم » .

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا [ذلك][1] – و بيّنوه للناس – وعرفوا أن حدوث الحوادث اليومية المشهودة تدل على أن العالم مخلوق ، وأن له ربًّا خلقه ويُحدث فيه الحوادث . وقد ذكر ذلك الحسن البصرى ، كما رواه أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب « المطر »[2] ، ورواه أبو الشيخ الأصبهانى فى كتاب « العظمة »[3] ، وذكره أبو الفرج بن الجوزى فى « تفسيره » .

قال أبو بكر بن أبى الدنيا : « حدثنى هارون ، حدثنى عفّان ، عن مبارك ابن فضالة قال : سمعت الحسن يقول : كانوا يقولون – يعنى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – : الحمد لله الرفيق الذى لو جعل هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاكُّ فى الله : لو كان لهذا الخلق ربٌّ لحادثه ، وإن الله قد حادثه بما ترون من الآيات : إنه جاء بضوء طبق ما بين الخافقين ، وجعل فيها معاشاً وسراجاً وهاّجاً ، ثم إذا شاء ذهب بذلك الخلق وجاء بظلمة طبقت ما بين الخافقين / وجعل فيها[4] سكناً ونجوماً وقمراً منيراً ، وإذا شاء بنى بناء جعل فيه ص ٤٤

---

(١) ذلك : ليست فى النسختين ، وبها يستقيم الكلام .

(٢) أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبى الدنيا ، الحافظ صاحب التصانيف. ولد سنة ٢٠٨ وتوفى سنة ٢٨١ . وذكر بروكلمان (٣ / ١٣١) من كتبه : « كتاب المطر والرعد والبرق والريح » وقال إن منه نسخة خطية فى كوبريلى رقم ٣٨٨ . انظر : تذكرة الحفاظ ٢ / ٦٧٧ – ٦٧٩ ؛ تاريخ بغداد ١٠ / ٨٩ – ٩١ ؛ طبقات الحنابلة ١ / ١٩٢ – ١٩٥ ؛ فوات الوفيات ١ / ٤٩٤ – ٤٩٥ ؛ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣ / ١٢٩–١٣٣ ؛ الأعلام ٤ / ٢٦٠ .

(٣) أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصارى ، ويعرف بأبى الشيخ الأصبهانى. قال عنه الذهبى : « حافظ أصبهان ومسند زمانه » . ولد سنة ٢٧٤ وتوفى سنة ٣٦٩ . ومن كتبه كتاب « العظمة » وقد أشار الزركلى إلى وجود نسخة خطية منه . انظر : تذكرة الحفاظ ٣ / ٩٤٥ – ٩٤٧ ؛ شذرات الذهب ٣ / ٦٩ ؛ اللباب لابن الأثير ١ / ٥٥ ؛ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ط . المعارف) ٣ / ٢٢٦ – ٢٢٧ ؛ الأعلام ٤ / ٢٦٤ .

(٤) فى هامش النسختين « فيه » وعليها « خ » إشارة إلى نسخة أخرى .

من المطر والبرق والرعد والصواعق ما شاء ، وإذا شاء صرف ذلك ، وإذا شاء جاء ببرد يقرقف[1] الناس ، وإذا شاء ذهب بذلك وجاء بحرٍ يأخذ بأنفاس الناس ، ليعلم الناس أن لهذا الخلق ربًا يحادثه بما يرون من الآيات ، كذلك إذا شاء ذهب بالدنيا وجاء بالآخرة » .

فقد ذكر الحسن عن الصحابة الاستدلال بهذه الحوادث المشهودة على وجود الرب سبحانه المحدِث الفاعل بمشيئته وقدرته ، وبطلان أن يكون موجِباً يقارنه موجَبُه ، فإن ذلك يمتنع محادثته ، أى إحداث الحوادث فيه .

وقولهم : « لو كان هذا الخلق خلقاً دائماً لا يتصرف لقال الشاكُّ فى الله : لو كان لهذا الخلق رب لحادثه » يقتضى أن هذه الحوادث آيات الله ، وأنه رب هذا الخلق ، وأن هذا الخلق محدث لكون غيره يحادثه ، أى يحدث فيه الحوادث ، وماصَرَّفه غيره وأحدث فيه الحوادث كان مقهوراً مدبَّراً ، لم يكن واجباً بنفسه ممتنعاً عن غيره .

وقوله : « لو كان له رب لحادثه » ؛ قد يقال : إنهم أنكروا هذا القول لقولهم : « لقال الشاك فى الله » . وقد يقال : بل هم مصدِّقون بهذه القضية الشرطية ؛ ولكن لو لم تكن الحوادث لكان الله يُعرف دون هذه الحوادث ، فإن معرفته حاصلة بالفطرة والضرورة ، ونفس وجود الإنسان مستلزم[2] لوجود الرب ، فكان الصانع يُعلم من غير هذه الطريق ، فلهذا يعاب الشاكّ . ويمكن أنهم لم يقصدوا عيبه على هذا التقدير ، بل على هذا التقدير كان الشك موجوداً فى الناس إذ لا دليل على وجوده ، فكانت هذه الآيات مزيلة للشك وموجبة لليقين .

---

(١) فى اللسان : القرقفة : الرعدة ، وقد قرقفه البرد . ويقال : إنى لأقرقف من البرد أى أرعد .

(٢) فى النسختين : مستلزمة .

والأول أشبه بمرادهم وأولى بالحق ، فإنهم قالوا : « لقال الشاك في الله » ، فدل على أن هناك من ليس بشاكٍّ في الله ، ولم يقولوا : لشك الناس في الله . وبسط هذا القول في إثبات الصانع له موضع غير هذا .

والمقصود أنه سبحانه وتعالى يخلق بمشيئته واختياره ، وأنه يختار الأحسن ، وأن إرادته تُرجِّح الراجح الأحسن ؛ وهذا حقيقة الإرادة ، ولا تعقل إرادة ترجِّح مِثلاً على مِثْل ، ولو قُدِّر وجود مثل هذه الإرادة فتلك أكمل وأفضل ، والخلق متصفون بها ، ويمتنع أن يكون المخلوق[1] أكمل من الخالق ، والمحدث الممكن أكملَ من الواجب القديم ، فوجب أن يكون ما تُوصف به إرادته أكمل مما توصف به إرادة غيره ، فيجب أن يُريد بها ما هو الأولى والأحسن والأفضل . وهو سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته ، فالممتنع لا تتعلق به قدرة فلا يُراد ، والممكن الذي يمكن أن يُفعل ويكون مقدوراً ترجِّح الإرادةُ الأفضلَ الأرجحَ منه .

وما يحكى عن الغزالي أنه قال: «ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم، فإنه لو كان كذلك ولم يخلقه / لكان بخلا يناقض الجود ، أو عجزاً يناقض القدرة »[2] . ط ٤٤

---

(١) في (ع) : أن يكون الخلق، وقبالتها في الهامش كتبت كلمة « المخلوق » . وأخطأ ناسخ (ك) فكتب العبارة : « ويمتنع المخلوق أن يكون الخلق أكمل من الخالق » .

(٢) أنكر البعض أن تكون هذه العبارة من كلام الغزالي ، مع أن الغزالي نفسه أقر بها وحاول أن يبرر سبب قوله بها فقال في « الإملاء في إشكالات الإحياء » (المطبوع مع الإحياء ، ط. لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٧) : « ومعنى بأن ليس في الإمكان أبدع من صورة هذا العالم ولا أحسن ترتيبا ولا أكمل صنعا ، ولو كان ادخره مع القدرة كان ذلك بخلا يناقض الكرم الإلهي وإن لم يكن قادراً عليه كان ذلك عجزاً .. الخ » (انظر ص ٤٩ ـ ٥١) . وانظر مثلا ما يذكره في الإحياء ١٣ / ١٨١ حيث يقول : « . . . بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي ، وكما ينبغي ، وبالقدر الذي ينبغي ، وليس في الإمكان أصلا أحسن منه ولا أتم ولا أكمل ، ولو كان ، وادخره مع القدرة ، ولم يتفضل بفعله ، لكان بخلا يناقض الجود ، وظلما يناقض العدل ... الخ » . وانظر « الغزالي » للدكتور أحمد فريد رفاعي ٢ / ٧٧ ـ ٨٤ (ط . عيسى الحلبي ، ١٣٥٦ / ١٩٣٧) ؛ الأخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك ، ص ٧٩ (ط. التجارية ، بدون تاريخ) .

وقد أنكر عليه طائفة هذا الكلام ، وتفصيله : أن الممكن يُراد به المقدور . ولا ريب أن الله سبحانه يقدر على غير هذا العالم ، وعلى إبداع غيره إلى ما لا يتناهى كثرة ، ويقدر على غير ما فعله ، كما قد بيَّنا ذلك فى غير هذا الموضع ، وبُيِّن ذلك فى غير موضع من القرآن .

وقد يُراد به : إنه ما يمكن أحسن منه ولا أكمل منه ؛ فهذا ليس قدحاً فى القدرة ، بل قد أثبت قدرته على غير ما فعله ، لكن قال : ما فعله أحسن وأكمل مما لم يفعله . وهذا وصف له سبحانه بالكرم والجود والإحسان ، وهو سبحانه الأكرم فلا يتصور أكرم منه ، سبحانه وتعالى عمَّا يقول الظالمون علواً كبيراً .

آخره ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليما .

رسالة في دخول الجنة

هل يدخل أحد الجنة بعمله
أم ينقضه قوله صلى الله عليه وسلم
لا يدخل أحد الجنة بعمله



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على محمد وآله وسلم .

سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية عن قوله تعالى : ﴿ وَنُودُوا أن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٤٣] ، هل يدخل أحد الجنة بعمله ، أم ينقضه قوله صلّى الله عليه وسلم : « لا يدخل أحد الجنة بعمله ، قيل : ولا أنت ؟ ! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

﴿ الجواب ﴾

الحمد لله .

المثبت فى القرآن ليس هو المنفى فى السنة

لا مناقضة بين ما جاء به القرآن وما جاءت به السنة ، إذ المثبت فى القرآن ليس هو المنفى فى السنة . والتناقض إنما يكون إذا كان المثبت هو المنفى ؛ وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [سورة الحاقة : ٢٤] ، وقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة : ١٩] ، وقال : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الواقعة : ٢٢ـ٢٤] . فبيّن بهذه النصوص أن العمل سببٌ للثواب . والباء للسبب ، كما فى مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [سورة الأعراف : ٥٧] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [سورة البقرة : ١٦٤] ، ونحو ذلك مما يبيّن به الأسباب .

العمل سبب للثواب

ولا ريب أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة ، والله قدَّر لعبده المؤمن وجوب الجنة بما ييسره له من العمل الصالح ، كما قدَّر دخول النار لمن يدخلها بعمله السيء ، كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مامنكم من أحدٍ إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار . قالوا : يارسول الله أفلا نتَّكل على الكتاب وندع العمل ؟ قال : لا ، اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له ؛ أما من كان من أهل السعادة فسييسِّره لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسِّره لعمل أهل الشقاوة »[1] ، وقال : « إن الله خلق للجنة أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل الجنة يعملون ، وخلق للنار أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وبعمل أهل النار يعملون »[2] .

السبب لا يستقل بالحكم

وإذا عُرِفَ أن « الباء » هنا للسبب فمعلوم أن السبب لا يستقل بالحكم . فمجرد نزول المطر ليس موجباً للنبات ، بل لا بد من أن يخلق الله أموراً أخرى ويدفع عنه الآفات المانعة ، فيربِّيه بالتراب والشمس والريح ، ويدفع عنه ما يفسده ، فالنبات محتاج - مع هذا السبب - إلى فضل من الله أكبر منه .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟! قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »

---

(١) سبق ورود هذا الحديث من قبل ، وتكلمت عنه هناك (ص ٩٣ ت ١) . وهو أيضاً فى : البخارى ٢ / ٩٦ (كتاب الجنائز ، باب موعظة المحدث عند القبر) ، ٦ / ١٧٠ - ١٧١ (كتاب التفسير ، باب سورة والليل إذا يغشى) ؛ الترمذى (بشرح ابن العربى) ٨ / ٣٠٠ (كتاب القدر ، باب ما جاء فى الشقاء والسعادة) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٣٠ - ٣١ (المقدمة ، باب فى القدر) .

(٢) الحديث فى : مسلم ٨ / ٥٥ (كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ... إلخ) ونصه : « عن عائشة أم المؤمنين : قالت : دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت : يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه . قال : أو غير ذلك : يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » .

فإنه ذكره فى سياق أمره لهم بالإقتصاد . قال : « سدِّدُوا وقاربوا ، واعلموا أن أحدا منكم لن يدخل الجنة بعمله »[١] .

وقال : « إن هذا الدين متينٌ ، وإنه لن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدوا وقاربوا ، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحة وشىء من الدلجة والقصد / تبلغوا »[٢] .

ظ ١٨٨

ليس جزاء الله على سبيل المعاوضة

فنفى بهذا الحديث ما قد تتوهمه النفوس من أن الجزاء من الله عز وجل على سبيل المعاوضة والمقابلة ، كالمعاوضات التى تكون بين الناس فى الدنيا ؛

---

(١) جاء هذا الحديث عن طرق متعددة وبألفاظ مختلفة فى كتب السنة ، والرواية التى أوردها ابن تيمية هنا تقرب من حديث عائشة رضى الله عنها المتفق عليه ، وهو مروى فى البخارى مرتين : ٨ / ٩٨ ، ٩٨ - ٩٩ (كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل) ؛ مسلم ٨ / ١٤١ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى) ونصه - واللفظ لمسلم - « عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها كانت تقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يدخل الجنة أحداً عمله . قالوا ، ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منه برحمة ، واعلموا أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل » .

والحديث متفق عليه أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨ / ٩٨ (نفس الكتاب والباب) ؛ مسلم ٨ / ١٣٩ (نفس الكتاب والباب) وأوله : « لن ينجى أحداً منكم عمله .. إلخ . وجاء الحديث عن أبى هريرة من طرق متعددة وبألفاظ مختلفة فى : البخارى ٧ / ١٢١ (كتاب الطب ، باب تمنى المريض) ؛ مسلم ٨ / ١٣٩ - ١٤١ (نفس الكتاب والباب) ؛ سنن ابن ماجة ٢ / ١٤٠٥ (كتاب الزهد ، باب التوقى على العمل) ؛ مسند أحمد (ط . المعارف) الأرقام : ٧٢٠٢ ، ٧٤٧٣ ، ٧٥٧٧ . وروى الدارمى الحديث فى سننه ٢ / ٣٠٥ - ٣٠٦ (كتاب الرقائق ، باب لا ينجى أحدكم عمله) عن جابر رضى الله عنه . والحديث فى المسند (ط . الحلبى) فى أكثر من عشرين موضعاً . وانظر مفتاح كنوز السنة « الأعمال » .

(٢) فى صحيح البخارى ١ / ١٢ (كتاب الإيمان ، باب الدين يسر) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوه والروحة وشىء من الدلجة » .

وروى السيوطى فى الجامع الصغير حديثا عن أنس رضى الله عنه : « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق » . قال السيوطى إن هذا الحديث فى المسند وصححه . وروى حديثا آخر عن جابر : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » . قال السيوطى أنه فى مسند البزار وضعفه .

فإن الأجير يعمل لمن استأجره فيعطيه أجره بقدر عمله على طريق المعاوضة ، إن زاد زاد أجرته ، وإن نقص نقص أجرته ، وله عليه أجرة يستحقها كما يستحق البائع الثمن . فنفى صلى الله عليه وسلم أن يكون جزاء الله وثوابه على سبيل المعاوضة والمقابلة والمعادلة .

والباء هنا كالباء الداخلة فى المعاوضات ، كما يقال : استأجرت هذا بكذا ، وأخذت أجرتى بعملى .

غلط من توهم ذلك من وجوه الأول

وكثير من الناس قد يتوهم ما يشبه هذا ، وهذا غلط من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى ليس محتاجاً إلى عمل العباد كما يحتاج المخلوق إلى عمل من يستأجره ، بل هو سبحانه كما قال فى الحديث الصحيح : « إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضرِّى فتضرُّونى »(١)

والعباد إنما يعملون لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [سورة فصلت : ٤٦] ، وقال : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [سورة الزمر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ٤٠] ،

---

(١) هذا جزء من الحديث القدسى فى تحريم الظلم ، وأوله : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلاتظالموا » . وفيه « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى » . وقد روى الحديث عن أبى ذر رضى الله عنه: مسلم ٨/١٦ـ١٨ (كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم) ؛ سنن ابن ماجه ٢ / ١٤٢٢ (كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة) .

ولابن تيمية رسالة فى شرح هذا الحديث نشرت فى مجموعة الرسائل المنيرية ٣/٢٠٥ـ٢٤٦ (ط . المطبعة المنيرية ، ١٣٤٦) .

وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران : ٩٧] .

وأما العباد فإنهم محتاجون إلى من يستعملون لجلب منفعة أو دفع مضرّة ، ويعطونه أجرة نفعه لهم .

الثانى

الثانى : أن الله هو الذى مَنَّ على العامل : بأن خلقه أولاً وأحياه ورزقه ، ثم بأن أرسل إليه الرسل وأنزل إليه الكتب ، ثم بأن يسّر له العمل وحبّب إليه الإيمان وزيّنه فى قلبه ، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان .

والمخلوق إذا عمل لغيره لم يكن المستعمِل هو الخالق لعمل أجيره ، فكيف يُتصوّر أن يكون للعبد على الله عوض وهو خلقَه وأحدثه وأنعم على العبد به ؟! وهل تكون إحدى نعمتيه عوضاً [١] عن نعمته الأخرى وهو ينعم بكلتيهما ؟! [٢] .

الثالث

الوجه الثالث : أن عمل العبد لو بلغ ما بلغ ليس هو مما يكون ثواب الله مقابلاً له ومعادلاً حتى يكون عوضاً ، بل أقل أجزاء الثواب يستوجب أضعاف ذلك العمل .

الرابع

الرابع : أن العبد قد يُنعّم ويُمتّع فى الدنيا بما أنعم الله به عليه ، مما يستحق بإزائه [٣] أضعاف ذلك العمل إذا طلبت المعادلة والمقابلة . وإذا كان كذلك لم يبالغوا فى الاجتهاد مبالغة من يضرّه الاجتهاد ، كالمُنبَتّ الذى لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، وزال عنهم العجب ، وشهدوا إحسان الله بالعمل .

---

(١) فى الأصل : عوض .

(٢) فى الأصل : بكليهما .

(٣) فى الأصل : بإزائها .

الخامس : أن العباد لا بدّ لهم من سيئات ، ولا بد فى حياتهم من تقصير . فلولا عفو الله لهم عن السيئات ، وتقبّله أحسن ما عملوا — لما استحقوا ثواباً . / ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « من نُوقشَ الحسابَ عُذِّب . قالت عائشة : يارسول الله ، أليس الله يقول : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ﴾ [سورة الانشقاق : ٧ ، ٨] ؟ قال : ذلك العرْض ، ومن نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب »[١] .

ولهذا جاء فى حديث الشفاعة الصحيح إذا طُلبت الشفاعة من أفضل الخلق : آدم ونوح وإبراهيم وموسى ، واعتذر كل منهم بما فعل — قال لهم عيسى : « اذهبوا إلى محمد ، عبدٍ غُفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »[٢] .

ولهذا قال فى الحديث لما قيل له : ولا أنت يارسول الله ؟ ! قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بعفوه » . فتبين بهذا الحديث أنه لابد من عفو الله وتجاوزه عن العبد ، وإلا فلو ناقشه على عمله لما استحق به الجزاء . قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ [سورة الأحقاف : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣-٣٥] .

---

(١) الحديث مع اختلاف فى الألفاظ فى : البخارى ١ / ٢٨ (كتاب العلم ، باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه) ؛ مسلم ٨ / ١٦٤ (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إثبات الحساب) .

(٢) حديث الشفاعة مروى من وجوه عدة عن عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة . انظر البخارى ٦/٨٤ — ٨٥ (كتاب التفسير ، سورة بنى إسرائيل : باب ذرية من حملنا مع نوح) ؛ مسلم ١/١٢٣ — ١٣٠ (كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة) ؛ المسند (ط. المعارف) ١ / ١٦١ — ١٦٣ (رقم ١٥) . وانظر أيضا : الترغيب والترهيب ٥/ ٣٩٨-٤٠٦ ؛ تيسير الوصول ٤ / ١٠٣ — ١٠٥ .

وإذا تبين ذلك أفاد هذا الحديث ألا يُعجَب العبد بعمله، بل يشهد نعم الله عليه ، وإحسانه إليه فى العمل ، وأنه لا يستكثر العمل ، فإن عمله لو بلغ ما بلغ، إن لم يرحمه الله ويعف عنه ويتفضّل عليه، لم يستحق به شيئاً ، وأنه لا يكلف من العمل ما لا يطيق ظاناً أنه يزداد بذلك أجره ، كما يزداد أجر الأجير الذى يعمل فوق طاقته فإن ذلك يضره ، إذ المُنْبَتّ لا أرضاً [1] قطع ولا ظهراً أبقى .

وأحب العمل ما داوم عليه صاحبه ، فإن الأعمال بالخواتيم ، بخلاف عمل الأُجَرَاء فى الدنيا، فإن الأجرة تتقسّط على المنفعة، فإذا عمل بعض العمل استحق من الأجرة بقدر ما عمل ولو لم يعمل إلا قليلاً . فمن خُتم له بخير استحق الثواب ، وكفّر الله بتوبته سيئاته ، ومن خُتم له بكفر أحبطت رِدّته حسناته . فلهذا كان العمل الذى [داوم][2] عليه صاحبه إلى الموت خيراً ممن أعطى قليلا ثم أكْدَى ، وكلّف نفسه مالا يطيق ، كما يفعله كثير من العمال .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « سدِّدوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخل الجنة بعمله » ينفى المعاوضه والمقابلة التى يولِّد اعتقادها هذه المفاسد.

وقوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يثبت السبب الموجب لأن يفعله العبد . ولهذا قال بعضهم : « اعمل ، وقدِّر أنك لم تعمل » . وقال آخر : « لا بد منك، وبك وحدك لا يجىء شىء » .

لا بد من العمل ومن رجاء رحمة الله

فلا بد من العمل المأمور به ، ولا بد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله ، وشهود العبد لتقصيره ، ولفقره إلى فضل ربه ، وإحسان ربه إليه .

وقد قال سفيان بن عيينة : « كانوا يقولون : ينجون من النار بالعفو ، ويدخلون الجنة بالرحمة ، ويتقاسمون المنازل بالأعمال » .

---

(١) فى الأصل : لا أرضى .

(٢) داوم : ليست فى الأصل ، وزدتها ليتضح المعنى .

فنبّه على أن مقادير الدرجات فى الجنه تكون بالأعمال ، وأن نفس الدخول هو بالرحمة . فإن الله قد يدخل الجنه من يُنْشِئه لها فى الدار الآخرة بخلاف النار ، فإنه أقسم أن يملأها من إبليس وأتباعه .

ظ ١٨٩

الله يدخل الجنة بالعمل وبغيره من الأسباب

/ لـكن مع هذا فالعمل الصالح فى الدنيا سبب للدخول والدرجة ، وإن كان الله يدخل الجنة بدون هذا السبب ، كما يدخل الأبناء تبعاً لآبائهم . وليس كل ما يحصل بسبب لا يحصل بدونه ، كالموت الذى يكون بالقتل ويكون بدون القتل ، ومن فهم أن السبب لا يوجب المسبب ، بل لا بد أن يضمّ الله إليه أموراً أخرى ، وأن يدفع عنه آفات كثيرة ، وأنه قد يخلق المسبَّب بدون السبب ـ انفتح له حقيقة الأمر من هذا وغيره . والله تعالى أعلم .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليم كثيراً .

رسالة في الجواب عمن يقول ان صفات الرب تعالى نسب وإضافات وغير ذلك

(١سؤال عمَّن يقول : إن صفات الرب نسب وإضافات وغير ذلك

ص ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلَّى الله على محمد وآله وسلم تسليما .

أما بعد ، فهذا(١ فصل مختصر من سؤال سُئل عنه شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى .

نص السؤال

مايقول السادة العلماء أئمة الدين ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ فيمن قال : إن صفات الرب لاتتعدد ولا ينفصل بعضها عن بعض إلا فى مراتب العبارات وموارد الإشارات ، فإذا أضيف علمه إلى الاطلاع على ضمير الصغير والكبير يُقال : بصير ، وإذا ابتدر منه الرزق يُقال : رزّاق ، وإذا أفاض من مكنونات علمه على قلب أحدٍ من الناس بأسرار إلاهيته ودقائق جبروت ربوبيته يقال : متكلم ، وليس بعضه آلة السمع وبعضه آلة البصر وبعضه آلة الكلام ، بل كله بكليَّة ذاته ، لايشغله شىء عن شىء .

فهل هذا القول صواب أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

﴿الجواب﴾

هذه مقالة المتفلسفة والقرامطة والاتحادية

الحمد لله رب العالمين . ليس هذا القول صوابا ، وإن كان بعضه صوابا ، بل هذا القول قرع باب الإلحاد ، وتوطئة سبيل الاتحاد ، فإن هذا القول هو قول غُلاة نفاة الصفات الجهمية من متفلسفٍ وقرمطى واتحادى ونحوهم ، وليس

(١ ـ ١) : زيادة فى (ع) .

هو قول المعتزلة والنجّارية[١] والضِّرارية[٢] والشيعة ونحوهم ممّن يقول : القرآن مخلوق ، بل هو شر من قول هؤلاء ، فإن هؤلاء متفقون على أنه خلق فى غيره كلاماً ، وأنه متكلم بذلك الذى خلقه فى غيره ، وأن موسى والملائكة يسمعون ذلك الكلام المخلوق الذى هو كلام الله عند هؤلاء المبتدعة .

قالوا : إنه لايكون متكلما إلا بكلام يقوم به ، وإن الكلام إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل لالغيره ، كسائر الصفات من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر ونحوه ، فيقال : عالم وقادر وسميع وبصير ونحو ذلك .

رد السلف عليهم

ولهذا قال من قال من السلف : من قال : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا ﴾ [سورة طه : ١٤] مخلوق ، فهو بمنزلة من صدّق فرعون فى قوله :

---

(١) النجارية هم أتباع أبى عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله النجار ، ولسنا نعرف تاريخ مولده ووفاته ، ولكن ابن النديم يذكر فى الفهرست (ص ٢٥٤) أنه مات بسبب العلة التى أصابته عندما أفحمه النظام فى جدال جرى بينهما ، فيكون بذلك معاصراً للنظام الذى توفى حوالى سنة ٢٣١ على الأرجح . وعلى الرغم من أن الشهرستانى يعده من الجبرة إلا أنه يقول إنه يوافق الصفاتية فى خلق الأعمال ، بل يذكر أنه قال بالكسب على حسب مايثبته الأشعرى من بعده . والنجارية يوافقون المعتزلة فى نفى الصفات وفى القول بأن المعرفة واجبة بالعقل قبل ورود السمع ، ويعدهم الأشعرى من المرجئة ، وينقل الشهرستانى عن الكعبى قوله إن النجار كان يقول إن البارىء تعالى بكل مكان وجوداً لا على معنى العلم والقدرة . انظر : مقالات الإسلاميين ١/١٩٩ ـ ٢٠٠ ، ٣١٥ ـ ٣١٦ ؛ الملل والنحل ١/٨١ ـ ٨٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ؛ الحور العين للحميرى ، ص ٢٥٧ ، ٢٦٤ ؛ أصول الدين لابن طاهر ، ص ٣٣٤ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ اللباب لابن الأثير ٣ / ٢١٥ ؛ الأعلام للزركلى ٢ / ٢٧٦ .

(٢) الضرارية هم أتباع ضرار بن عمرو (انظر لسان الميزان ٣ / ٢٠٣) وحفص الفرد (انظر لسان الميزان ٢ / ٣٣٠ ـ ٣٣١ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٥) وهم يشبهون النجارية فى الكثير من أقوالهم ، فهم ينفون الصفات ، ويقولون بخلق الله لأفعال العباد ، ويبطلون القول بالتولد ، ولكنهم ينكرون القول بوجوب المعرفة قبل ورود السمع .

انظر : الملل والنحل ١/ ٨٢ ـ ٨٣ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ؛ أصول الدين لابن طاهر ، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٢ ـ ٦٣ ؛ مقالات الإسلاميين ١ / ٣١٣ ـ ٣١٤ ؛ التنبيه والرد للملطى ، ص ٤٣ ؛ الحور العين للحميرى ، ص ١٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٤٦ ـ ١٤٧ ؛ الفصل لابن حزم ٣ / ١٧٣ ـ ١٧٤ .

﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٢٤] ، لأنه لو كان قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾ مخلوقاً لكان كلاماً للمحل الذى خُلق فيه : إما الشجرة وإما الهواء ، فيكون الشجرة أو الهواء هو القائل : « إننى أنا الله » . ومن جعل هذا ربًّا فهو بمنزلة من جعل فرعون ربًّا ، وإن كان الله خالق ذلك الكلام فى الشجرة والهواء ، فقد ثبت بالحجة أنه خالق أفعال العباد ، وأنه أنطق كل شىء ، فكل ناطق فى الوجود هو أنطقه وخلق نطقه ، فيجب أن يكون كل نطق فى الوجود كلامه ، حتى قول فرعون : « أنا ربكم الأعلى » . وحينئذٍ فلا فرق بين قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ﴾ وبين خلقه على لسان فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ .

وهذا اللازم تفر منه المعتزلة وغيرهم ، إذ هم لا يقرون بأن الله خالق أفعال العباد ، لكن يلزمهم بالحجة ما يخلقه الله من الكلام ، مثل : إنطاق الجلود ، وتسبيح الحصى ، وتسليم الحجر عليه عليه السلام ، وشهادة الألسنة / والأيدى والأرجل ، فإن هذا ليس من أفعال العباد ، بل ذلك خلق الله . فيلزمهم أن يقولوا : ذلك كله كلام الله ، وهو باطل ، وهم لا يلتزمونه . ظ ٤٥

وإنما التزم مثل هذا الاتحادية والحلولية الذين يقولون : إنه وجود المخلوقات ، أو : هو سارٍ فى جميع المخلوقات . كما قال قائلهم :

وكل كلامٍ فى الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه[1]

---

(١) البيت لابن عربى وقد ذكره فى الفتوحات المكية ٤ / ١٤١ ونصه هناك :
ألا كل قول فى الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه
والبيت الذى يتلوه :
يعم به أسماع كل مكون ... فمنه إليه بدؤه وختامه

ومن هؤلاء من يفرِّق بين قول الحلاَّج وأمثاله : « أنا الحق »[١] ، وبين قول فرعون : « أنا ربكم الأعلى » بأن الحلاَّج وأمثاله قالوا ذلك وهم فانون ، فالحق نطق على ألسنتهم لغيبتهم عن شهود أنفسهم ، وأما فرعون وأمثاله ممن هم فى شهود أنفسهم فقالوه مع رؤيتهم أنفسهم ، وحاصله أن الله تعالى هو الذى نطق على لسان الحلاَّج وأمثاله .

وهذا شر من قول من يقول : القرآن مخلوق خلقه الله فى الهواء ونحوه ، لأن الجماد ليس له نطق يُضاف ، فوجود الكلام فيه شبهه توجب جعله كلاماً لغيره ، أما الإنسان الحى إذا وجد منه مثل هذا الكلام مضافاً إلى نفسه ، وجُعل المتكلم به هو الله ، فهذا صريح بحلول الحق فيه واتحاده به كما تقوله[٢] النصارى فى المسيح .

ومعلوم أن النصارى أكفر من المعتزلة ، ومعلوم بالاضطرار من العقل والدين أن الله لم يتكلم على لسان بشر ، كما يتكلم[٣] الجنى على لسان المصروع ، ولكن يبعث الرسل فيبلغون كلامه ، والمرسِل يقول لرسوله : قل على لسانى كذا ، ويقول : كلامى على لسان رسولى فلان ، أى كلامى الذى بلَّغه عنى .

ومن هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله قال على لسان نبيه : سمع الله لمن حمده ، أى هذا من الكلام الذى بلغه الرسول عن الله ، كما قال تعالى :

---

(١) فى كتاب « أخبار الحلاج » ، ص ١٠٨ (تحقيق ماسينيون وكراوس ، باريس ، ١٩٣٦) : « وقال أحمد بن فاتك : سمعت الحلاج يقول :

أنا الحق والحق للحق حق　　لابس ذاته فما ثم فرق

(٢) ك : فهذا صريح بحلول الحق فيه وإيجاده كما تقوله .. إلخ ؛ ع : .. وإيجاده به .. إلخ .

(٣) ك : تكلم .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [سورة الدخان : ٥٧] ، كما يقول المرسِل : قد قلت لكم على لسان رسولى فلان كذا وكذا .

وهذا كما أن القول يضاف إلى الرسول لأنه بلّغه وأدّاه ، فيضاف إلى جبريل تارة وإلى محمد صلى الله عليهما وسلم(١) أخرى ، كما قال فى آيةٍ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة الحاقة : ٤٠ ـ ٤٢] ، فهذا محمد . وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [سورة التكوير : ١٩ـ٢١] ، فهذا جبريل .

وأما جمهور العلماء من أهل الفقه والحديث والتصوف والكلام فطردوا الدليل وأثبتوا لله صفات فِعليَّة تقوم بذاته ، وهذا هو المعلوم الذى دلّ عليه العقل واللغة والشرع .

الناس فى مسألة الصفات ثلاث مراتب

فالناس ثلاث مراتب : منهم من نفى قيام الصفات والأفعال به كالمعتزلة ؛ ومنهم من أثبت قيام الصفات به دون الأفعال كالكلاَّبية(٢) ؛ ومنهم من أقرّ بقيام الصفات والأفعال وهم جمهور الأمة، كما ذكرته الحنفية فى كتبهم ، وكما ذكره

---

(١) ك : صلى الله عليه وسلم .

(٢) أتباع أبى محمد عبد الله بن سعيد بن محمد بن كلاب (بضم الكاف وتشديد اللام) القطان المتوفى بعد سنة ٢٤٠ بقليل . قال عنه ابن حزم إنه شيخ قديم للأشعرية . انظر عنه وعن مذهبه : لسان الميزان ٣ / ٢٩٠ ـ ٢٩١ ؛ طبقات الشافعية ٢ / ٥١ ؛ الفهرست لابن النديم ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ؛ مقالات الإسلاميين ١ / ٣٢٥ ، ٢ / ٥٢ ، ٥٤ ، ١١٨، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ٢٣١، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٥٨، ٣٥٩ ؛ نهاية الإقدام ١٨١ ، ٣٠٣ ؛ الملل والنحل ١ / ٨٥ ؛ أصول الدين ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٢٣ ، ١٣٢ ، ٢٢٢ ، ٢٥٤ ؛ الفصل لابن حزم ٢/ ١٢٣ ، ٤ / ٢٠٨ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٥٠ .

البغوى[١] وغيره من أصحاب الشافعى عن أهل السنة ، وكما ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا[٢] ، وأبو عبد الله بن حامد[٣] ، والقاضى أبو يعلى فى آخره قوليه /وابنه أبو الحسين[٤] ، وغيرهم[٥] من أصحاب أحمد ، وذكره أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى عن الصوفية فى كتاب « التعرف فى مذاهب التصوف »[٦] ، وذكره من ذكره من أئمة المالكية ، وذهب إليه طوائف من أهل الكلام من المرجئة[٧] ،

ص ٤٦

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوى المعروف بالفراء ، الفقيه الشافعى المحدث المفسر توفى سنة ٥١٠ . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٤ / ٢١٤ - ٢١٧ ؛ وفيات الأعيان ١ / ٤٠٢ ؛ تذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٥٧ ؛ الأعلام للزركلى ٢ / ٢٨٤ .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البزار من فقهاء الحنابلة ومن المحدثين ، توفى سنة ٣٦٩ عن أربع وخمسين سنة . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ / ١٢٨ - ١٣٩ ؛ العبر للذهبى ٢ / ٣٥١ .

(٣) أبو عبد الله الحسن بن حامد بن على بن مروان البغدادى ، إمام الحنابلة فى زمانه ، من مصنفاته «الجامع» فى مذهب الحنابلة ، و« شرح الخرقى» ، توفى سنة ٤٠٣ . انظر ترجمته فى: طبقات الحنابلة ٢/١٧١-١٧٧ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٧/٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ، ص ٥١٩ ؛ النجوم الزاهرة ٤ / ٢٣٢ ؛ الأعلام ٢ / ٢٠١ .

(٤) أبو الحسين محمد بن محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن أبى يعلى وبابن الفراء، صاحب كتاب « طبقات الحنابلة » ومن فقهاء الحنابلة وعلمائهم . ولد سنة ٤٥١ وتوفى سنة ٥٢٦ . انظر ترجمته فى :الذيل لابن رجب ١ / ١٧٦ - ١٧٨ ؛ الوافى بالوفيات ١/١٥٩ ؛ مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى ، ص ٥٢٩ ؛ شذرات الذهب ٤ / ٧٩ ؛ الأعلام ٧ / ٢٤٩ .

(٥) ك ، ع : وغيرهما .

(٦) انظر ما ذكره أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذى (المتوفى سنة ٣٨٠) فى « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، ص ٣٥ - ٣٧ ط . عيسى الحلبى ، ١٣٨٠/١٩٦٠ .

(٧) المرجئة هم الذين كانوا يؤخرون العمل عن الإيمان ، بمعنى أنهم كانوا يجعلون مدار الإيمان على المعرفة بالله والمحبة له والإقرار بوحدانيته ، ولا يجعلون هذا الإيمان مرتبطاً بالعمل . وأكثر المرجئة يرون أن الإيمان لا يتبعض ولا يزيد ولا ينقص ، وبعضهم يقول إن أهل القبلة لن يدخلوا النار مهما ارتكبوا من المعاصى . انظر ماسبق أن ذكرته فى شرح معنى « الإرجاء » ص ١١٢ ؛ وانظر : مقالات الإسلاميين ١ / ١٩٧ - ٢١٥ ؛ الملل والنحل ١ / ١٢٥ - ١٣٠ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٢٢ - ١٢٥ ؛ الفصل لابن حزم ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٥٩ - ٦١ ؛ الحور العين ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٤٤ - ١٤٦ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .

والشيعة والكرّامية ، [1] وذهب إليه جمهور أهل الحديث .

مقالة أهل السنة في كلام الله

والمقصود هنا أن الجهمية من المعتزلة ونحوهم الذين قالوا : القرآن مخلوق — وقد عُرف مقالات السلف فى تكفيرهم وتضليلهم — هم خيرٌ قولاً من أصحاب هذا القول المذكور فى السؤال القائلين : « إذا فاض من مكنونات علمه على قلب أحد من الناس بأسرار إلاهيّته ، ودقائق جبروت ربوبيته يُقال : متكلم » ، فإن هذا قول من لا يجعل لله كلاماً قائماً به [2] ، كما يقوله الذين يقولون : إنه خلق كلاماً بائناً منه ، وقد قال الإمام أحمد : « كلام الله من الله ، ليس بائناً منه » [3] والقرآن الذى أنزله هو كلامه لا كلام غيره ، إذ الكلام كلام من قاله [4] مبتدئاً لا كلام من قاله [4] مبلِّغاً مؤدياً .

---

(١) الكرامية هم أتباع أبى عبد الله محمد بن كرام بن عراق بن حزبه السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥ ، وهم يوافقون السلف فى إثبات الصفات ، ولكنهم يبالغون فى ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم ، وكذلك هم يوافقون السلف فى إثبات القدر والقول بالحكمة ، ولكنهم يوافقون المعتزلة فى وجوب معرفة الله تعالى بالعقل وفى الحسن والقبح العقليين ، وهم يعدون من المرجئة لقولهم بأن الإيمان هو الإقرار والتصديق باللسان دون القلب . انظر عن ابن كرام والكرامية: لسان الميزان ٥ / ٣٥٣ — ٣٥٦ ؛ ميزان الاعتدال ٤ / ٢١ — ٢٢ ؛ شذرات الذهب ٢ / ١٢١ ؛ تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٣٦ ؛ تاريخ بغداد ٤ / ١١٨ ؛ اللباب لابن الأثير ٣ / ٣٢ ؛ الأعلام ٧ / ٢٣٦ ؛ مقالات الإسلاميين ١/ ٢٠٥ ؛ الفصل لابن حزم ٤/ ٤٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ الملل والنحل ١ / ٩٩ — ١٠٤ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٣٠ — ١٣٧ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٥ — ٧٠ ؛ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى ، ص ٦٧ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٤١ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٤٩ ، ٣٥٧ ؛ Tritton (A. S.) Muslim Theology, pp. 108 - 112, London, 1947.

(٢) فى النسختين : كلاماً لا قائماً به ... ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته ، أو تكون العبارة : فإن هذا قول من يجعل لله كلاماً لا قائماً به .

(٣) فى ترجمة الإمام أحمد فى « تاريخ الإسلام للذهبى » (مقدمة المسند ، ط . المعارف ، ص ٧٩) : « وقال الخلال : أخبرنى محمد بن سليمان الجوهرى حدثنا عبدوس بن مالك العطار سمعت أحمد بن حنبل يقول : ... والقرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنه من الله ليس بائن منه ... » .

(٤ — ٤) : ساقط من (ك) .

ولهذا قال السلف والأئمة : « القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود » . فقولهم : « منه بدأ » نبّهوا به على مخالفة الجهمية الذين قالوا : إنه خلقه فى غيره منفصلاً عنه ، فقال أهل السنة : «منه بدأ » : لم يبتدئ من غيره من الموجودات ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [سورة النمل : ٦] ، وقال : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ [سورة السجدة : ١٣] ، وقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [سورة هود : ١] ، ولا نجعل لله كلاماً مخلوقاً فى غيره منفصلا عنه ، كما قالته [١] المعتزلة ونحوهم من الجهمية .

فإن هؤلاء وإن كان قولهم من أعظم القول فِرْيةً وضلالاً ، فهو أقل كفراً وضلالاً من قول أهل القول المسئول عنه القائلين : « إذا فاض من مكنون علمه على قلب أحد من الناس » ، فإن هؤلاء لم يجعلوه متكلماً إلا بما جعله فى القلوب من العلم .

مقالة الفلاسفة فى كلام الله

وهذا فى الأصل قول المتفلسفة والصابئة ونحوهم ، الذين لا يجعلون لله كلاماً إلا ما أفاضه على قلوب العباد من العلوم والمعارف ، ويجعلون تكليمه للعباد نوع تعريف يعرِّفهم به الأمور ، ويقولون : إنه تتشكل فى نفس الشيء أشكال نورانية ـ هى ملائكة الله عندهم ـ وأصوات قائمة بنفسه ، هى كلام الله عندهم ، ويزعمون أن تكليم الله لموسى هو من هذا الباب ، إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعّال أو من غيره ، وقد يجعلون العقل الفعّال هو جبريل ، وليس التكليم عندهم مختصّاً [٢] بأحد ، ولكنه يفيض بحسب استعداد النفوس [٣] .

---

(١) ك : كما قالت .

(٢) فى النسختين : مختص ، وهو خطأ .

(٣) انظر مصداق كلام ابن تيمية عن الفلاسفة فى مؤلفات ابن سينا : رسالة فى القوى الإنسانية ، ص ٦٦ ـ ٧٠ ؛ الإشارات والتنبيهات ٤ / ٨٦١ ـ ٨٩٠ ؛ الشفاء (النفس) ١ / ١٦٣ ـ ١٧٧ ؛ الرسالة العرشية ، ص ١٥ ـ ١٦ ؛ النجاة ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

وعلى قولهم : فجميع الخلق يكلِّمهم تكليما كما كلَّم موسى ، وكل كلام صادق تكلم به ذو نفسٍ صافية فهو كلام الله كما أن القرآن كلام الله ، فيلزمهم أن كل ما تكلم به الأنبياء فمَنْ دونهم من الخبر الصادق والأمر بالخير هو كلام الله ، وأن ذلك كله من نوع القرآن ، وأن يكون القرآن كلام البشر ، ولا فرق عندهم بين قول البشر وقول الله ، بل يلزمهم أن جميع ما يتكلم به البشر كلام الله ، من أجل أن ذلك يفيض على قلوب البشر ، حتى الكذب والكفر ، فإن جهة الإفاضة واحدة فى الجميع ، / وكل ما يلزم القائلين بأن القرآن مخلوق يلزم هؤلاء وزيادة ، فإن أولئك يجعلونه مخلوقاً خارجاً عن نفس النبى ، وهؤلاء لا [1] يجعلون له محلا إلا نفس النبى .

ظ ٤٦

متابعة الغزالى للفلاسفة

وهذا القول هو قول المتفلسفة ، ووقع فيه طوائف من المنتسبين إلى الملل من اليهود والنصارى ، ومن المنتسبين إلى المسلمين ممن خلط الفلسفة بالتصوف ، مثل أهل الكلام المسئول عنه وأمثاله ، ومثل ما وقع لأبى حامد فى كتاب «المضنون به على غير أهله» الأول والثانى ، ونحو ذلك من المصنَّفات مثل «مشكاة الأنوار» و «مسائل النفخ والتسوية» و «كيمياء السعادة» و «جواهر القرآن» [2] ،

(١) لا : ساقطة من (ع) .

(٢) يشير ابن تيمية هنا إلى رسائل عدة للغزالى منها « المضنون به على غير أهله » والمضنون الثانى ويسمى « المضنون الصغير » أو « الأجوبة الغزالية فى المسائل الأخروية » وطبعا ضمن مجموعة بالمطبعة اليمنية بالقاهرة سنة ١٣٠٩ . وطبعا أخيراً ضمن مجموعة «القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى » ، مكتبة الجندى ، القاهرة ، بدون تاريخ . وأما مشكاة الأنوار فطبع مراراً وآخر الطبعات هى طبعة الدار القومية ، ١٣٨٣ / ١٩٦٤ بتحقيق الدكتور أبى العلا عفيفى . وطبع « كيمياء السعادة» أيضاً ضمن مجموعة ، ط . مكتبة الجندى، بدون تاريخ . وأما «جواهر القرآن» فطبع بالمكتبة التجارية أكثر من مرة ، منها ط . سنة ١٣٥٢/١٩٣٣ . وأما « مسائل النفخ والتسوية » فهى نفس رسالة « المضنون الصغير » (انظر : مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص ٣١٨-٣١٩ ، ط . المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ١٩٦٠) .

وانظر ما سيذكره ابن تيمية بعد صفحات ، ص ١٦٨ - ١٧٠ . وانظر مثلا : رسالة المضنون به على غير أهله ، ص ٣٢٠ ، وانظر أيضاً رسالة « السبعينية » لابن تيمية ، ضمن المجلد الخامس من مجموعة فتاوى ابن تيمية ، ط . الكردى ، القاهرة ، ١٣٢٩ .

وما يشير إليه أحياناً فى « الإحياء » وغيره ، فإنه كثيراً ما يقع فى كلامه ماهو مأخوذ من كلام الفلاسفة ويخلطه بكلام الصوفية أو عباراتهم ، فيقع فيه كثير من المتصوفة الذين لايميزون بين حقيقة دين الإسلام وبين ما يخالفه من الفلسفة الفاسدة وغيرها ، لا سيما إذا بُنِي على ذلك واتُّبِعَت لوازمُه ، فإنه يفضى إلى قول ابن سبعين وابن عربى صاحب « الفصوص » وأمثالهما ممن يقول بمثل هذا الكلام ، وحقيقة مذهبهم يؤول إلى التعطيل المحض ، وأنه ليس للعالم ربٌّ مباين له ، بل الخالق هو المخلوق ، والمخلوق هو الخالق .

مقالة ابن عربى فى الفصوص

كما قال صاحب « الفصوص »[١] : « ومن أسمائه الحسنى : العلىّ ؛ عَلَى مَنْ وما ثَمَّ إلا هو ؟ ! [٢] أو عن ماذا وما هو إلا هو ؟ ! فعلوّه لنفسه ، وهو من حيث الوجود عين الموجودات ، فالمسمَّى محدثات هى العَلِيَّة لذاتها وليست إلا هو » .

إلى أن قال[٣] : « فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو عين ما ظهر ، وهو عين ما بطن فى حال ظهوره ، وما ثَمَّ من يراه غيره ، وما ثَمَّ يَبْطُنُ عنه سواه[٤] ، فهو ظاهر لنفسه باطن عنه ، وهو المسمَّى أبو سعيد الخراز[٥] وغير ذلك من أسماء المحدثات » .

إلى أن قال[٦] : « ومن عرف ما قررناه فى الأعداد ، وأن نفيها عين

---

(١) فى فصوص الحكم ١/٧٦ ، وسنقابل ما ذكره ابن تيمية هنا عليه .

(٢) فى الفصوص بعد هذا الكلام توجد عبارة ليست فى النسختين وهى : « فهو العلى لذاته » .

(٣) فى الفصوص ١/٧٧ . وسبق أن نقلت نص الفصوص فيما تقدم (ص١٠٥ ت١) .

(٤) كلمة « سواه » ليست فى الفصوص .

(٥) فى الفصوص : أبا سعيد الخراز . وأشار الدكتور أبو العلا عفيفى الى أنها فى نسخة أخرى : « أبو سعيد الخراز » .

(٦) فى الفصوص ١/٧٨ .

إثباتها[١] ، علم أن الأمر الخالق المخلوق ، وأن الأمر المخلوق الخالق ، كل ذلك من عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة ، وهو العيون الكثيرة : ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ [سورة الصافات: ١٠٢] فالولد[٢] عين أبيه ، فما رأى يذبح سوى نفسه ، وفداه بذبح عظيم[٣] ، فظهر بصورة كبش من ظهر بصورة إنسان ، وظهر بصورة ولد[٤] من هو عين الوالد ، ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [سورة النساء : ١] ، فما نكح سوى نفسه » .

إلى أن قال[٥] : « فالعليُّ لنفسه هو الذى يكون له الكمال الذى يستغرق به جميع الأمور الوجودية والنسب العدمية[٦] سواء كانت محمودة عُرفاً وعقلاً وشرعاً ، أو مذمومة عُرفاً وعقلا وشرعاً ، وليس ذلك لأحد إلا لمسمّى الله خاصة[٧] » .

وقال[٨] : « ألا ترى الحق[٩] يظهر بصفات المحدثات ، وأخبر بذلك عن نفسه ، وبصفات النقص والذم[١٠] ؟ ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها / إلى آخرها ، فكلها[١١] حق له ، كما هى صفات المحدثات حق للحق » .

ص ٤٧

---

(١) فى الفصوص بعد ذلك : « علم أن الحق المنزه هو الخلق المشبه ، وإن كان قد تميز الخلق من الخالق . فالأمر الخالق المخلوق ... الخ » .

(٢) فى الفصوص : والولد .

(٣) الإشارة هنا إلى قوله تعالى : ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[سورة الصافات:١٠٧]

(٤) فى الفصوص هذه الزيادة : « بل بحكم ولد» .

(٥) فى الفصوص ١ / ٧٩ .

(٦) فى الفصوص بعد ذلك: «بحيث لا يمكن أن يفوته نعت منها ، وسواء كانت .الخ».

(٧) فى الفصوص : « وليس ذلك إلا لمسمى الله تعالى خاصة » .

(٨) فى الفصوص ١ / ٨٠ ــ ٨١ .

(٩) فى (ك) ، (ع) : لا يرى الحق ، والمثبت عن « الفصوص » ١ / ٨٠ .

(١٠) والذم : كذا فى النسختين ، وفى الفصوص : وبصفات الذم.

(١١) فى الفصوص : وكلها .

وقال أيضاً [١] : « ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّارًا ﴾ ، [سورة نوح : ٢٢] لأن الدعوة إلى الله مكر بالمدعوّ، لأنه ما عَدِمَ إلى [٢] البداية فيُدعى إلى الغاية ، ادعوا إلى الله [٣] ، فهذا عين المكر » .

إلى أن قال [٤] : « فقالوا فى مكرهم : ﴿ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا ﴾ [٥] [سورة نوح : ٢٣] ، فإنهم لو تركوهم تركوا من الحق على قدر ماتركوا من صفات هؤلاء [٦] ، فإن للحق فى كل معبود وجهاً يعرفه من عرفه ويجهله من جهله [٧] ، كما قال فى المحمدين [٨] : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] ، أى حَكَمَ ، فالعالم يعلم من عُبِدَ ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وأن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة ، وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عُبِدَ غير الله فى كل معبود » .

وقال أيضاً [٩] : « فكان موسى أعلم بالأمر من هارون لأنه علم ما عبده أصحاب العجل ، لعلمه بأن الله قد قضى ألاَّ يُعبَد [١٠] إلا إياه ، وما حكم الله بشيء إلا وقع . فكان عيب [١١] موسى أخاه هارون لِماَ وقع من إنكاره [١٢]

---

(١) فى الفصوص ١ / ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) إلى : كذا فى النسختين ، وفى الفصوص : من

(٣) فى الفصوص : ادعوا الله.

(٤) فى الفصوص : ١/٧٢ .

(٥) فى الفصوص : ذكرت الآية إلى آخرها .

(٦) فى الفصوص : « فإنهم إذا تركوهم جهلوا من الحق على قدر ماتركوا من هؤلاء » .

(٧) فى الفصوص : « يعرفه من يعرفه ويجهله من يجهله » .

(٨) فى الفصوص : « المحمديين » .

(٩) فى الفصوص ١/١٩٢ .

(١٠) ك : ألا تعبدوا . والمثبت فى (ع) وفى الفصوص .

(١١) الفصوص : عتب .

(١٢) الفصوص: لما وقع الأمر فى إنكاره .

وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق فى كل شىء ، بل يراه عين كل شىء » .

وقال أيضاً [١] : « ولما كان فرعون فى مرتبة التحكم [٢] ، وأنه الخليفة بالسيف - وإن جار فى العرف الناموسى - لذلك [٣] قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [سورة النازعات : ٢٤] ، أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منهم بما أُعطيته فى الظاهر من الحكم [٤] فيكم . ولما علمت السحرة صدقه فيما قال [٥] لم ينكروه وأقروا له بذلك ، وقالوا له [٦] : إنما تقضى هذه الحياة الدنيا فاقض ما أنت قاض [٧] ، فالدولة لك . فصح قوله : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ » .

إلى أمثال ذلك من هذا الكلام الذى يسميه أصحابه مذهب الوحدة ويقولون : إن الوجود واحد ، كما يقوله ابن عربى صاحب « الفتوحات » وابن سبعين وابن الفارض والتلمسانى وأمثالهم - عليهم من الله ما يستحقونه - فإنهم لا يجعلون للخالق سبحانه وجوداً مبايناً لوجود المخلوق ، وهو جامع كل شر فى العالم . ومبدأ ضلالهم من حيث لم يثبتوا للخالق وجوداً مبايناً لوجود المخلوق ، وهم يأخذون من كلام الفلاسفة شيئاً ، ومن الكلام الفاسد من كلام المتصوفة والمتكلمين شيئاً ، ومن كلام القرامطة والباطنية شيئاً ، فيطوفون على أبواب المذاهب ، ويفوزون بأخس المطالب ، ويثنون على ما يذكر من

---

(١) فى الفصوص ١/٢١٠ - ٢١١ .
(٢) الفصوص : « فى منصب التحكم صاحب الوقت » .
(٣) ع (فقط) : كذلك .
(٤) الفصوص : التحكم .
(٥) الفصوص : فى مقاله .
(٦) الفصوص : فقالوا له .
(٧) إشارة إلى آية ٧٢ من سورة طه .

تأثر الغزالى بإخوان الصفا وأمثالهم

التصوف المخلوط بالفلسفة ، كما يوجد فى كلام أبى حامد ونحوه مما هو مأخوذ من رسائل إخوان الصفا وأمثالهم ، ممن يريد أن يجمع بين ماجاءت به الكتب الإلٰهية والرسل المبلِّغون عن الله عز وجل وما تقوله الصابئة المتفلسفون فى العلم الإلٰهى ، فيذكرون أحاديث موضوعة ، وربما حرَّفوا لفظها ، كما يذكرون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزّتى وجلالى ماخلقت خلقاً / أكرم علىّ منك ، فبك آخذ وبك أعطى ، وبك الثواب وبك العقاب » .

ظ ٤٧

وهذا الحديث موضوع على النبى صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، ولفظة : أولَ ماخلق الله العقل قال له : أقبل ، فأقبل . وروى : لما خلق الله العقل قال له : أقبل ، فأقبل[1] . فمعناه أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه ، فغيروا لفظه وقالوا : أولُ ما خلق الله العقل ، ليوافق ذلك[2] مذهب المشائين من المتفلسفة أتباع أرسطو القائلين : أول الصادرات عنه العقل .

---

(١) ذكر السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » ١ / ١٢٩ - ١٣٠ عدة رويات لهذا الحديث وبين اتفاق العلماء على أنها موضوعة . وكذلك اتفق أكثر العلماء على أن الأحاديث الواردة فى فضل العقل كلها موضوعة أو ضعيفة وأن داود بن المحبر أخرجها فى كتاب العقل ونقلها عنه غيره ، وداود هذا كذاب . انظر المقاصد الحسنة للسخاوى ، ص ١١٨ ، ١٣٤ ؛ الموضوعات لعلى القارى ، ص ٢٧ ، ٣٠ ؛ تذكرة الموضوعات للفتنى ، ص ٢٩ - ٣٠ ؛ تنزيه الشريعة لابن عراق ١/٢١٣ ؛ كشف الخفاء للعجلونى ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ ، ٢٦٣ ؛ الفوائد المجموعة للشوكانى ، ص ٤٧٦ ؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ١/١١ (ط. دمشق ، ١٣٧٩/١٩٥٩) .

وتكلم الذهبى فى ميزان الاعتدال ٢ / ٢٠ عن داود بن المحبر فقال : « داود بن المحبر ابن قحذم ، أبو سليمان البصرى ، صاحب « العقل » وليته لم يصنفه .. قال أحمد : لا يدرى ما الحديث ؛ وقال ابن المدينى : ذهب حديثه ، وقال أبو زرعة وغيره : ضعيف ، وقال أبو حاتم : ذاهب الحديث غير ثقة ، وقال الدارقطنى : متروك» .

(٢) ذلك : ساقطة من (ك) .

وقد بسطنا الكلام فى بيان فساد ذلك شرعاً وعقلاً ، و بينا أن بين هؤلاء و بين الرسل من المباينة أعظم مما بين اليهود والنصارى و بين المسلمين ، وأن اليهود والنصارى إذا لم يتفلسفوا كانوا أقرب إلى الحق من هؤلاء ، فإن تفلسف اليهودى والنصرانى كان كفره من جهتين .

وهذه الكتب المضافة إلى أبى حامد ، مثل الكتابين المضنون بهما على غير أهلهما وأمثالهما ، مازال أئمة الدين ينكرون مافيهما من الباطل المخالف للكتاب والسنة . ثم من الناس من يكذب نسبة هذه الكتب إليه ، ومنهم من يقول — وهو أشبه — رجع عن ذلك ، كما ذَكَرَ فى كتب أخرى ذم الفلاسفة وتكفيرهم . وذكر عبد الغافر الفارسى فى « تاريخ نيسابور »[١] أنه استقر أمره على مطالعة البخارى ومسلم ، فكان آخر أمره الرجوع إلى الحديث والسنة[٢] ، والله أعلم .

كلام الغزالى فى كتاب المضنون

فهذا الكلام المذكور فى السؤال يوجد نحوه فى مثل هذه الكتب التى يجعلها أهلها من كتب الحقائق والأسرار ، كما قال صاحب كتاب « المضنون »[٣] : « (فصل) : يتخيل بعض الناس كثرة فى ذات الله تعالى من طريق تعدد الصفات، وقد صح قول من قال فى الصفات : لاهى هو ولاغيره[٤]

---

(١) أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسى ، فارسى الأصل من أهل نيسابور ، ولد سنة ٤٥١ وتوفى سنة ٥٢٩ . قال الذهبى : صاحب « تاريخ نيسابور » ... وكان إماما فى الحديث واللغة والأدب والبلاغة ، عاش ثمانية وسبعين سنة وأكثر الأسفار» . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٢ / ٣٩١ ـ ٣٩٢ ؛ العبر للذهبى ٤ / ٧٩ ؛ الأعلام ٤ / ١٥٧ .

(٢) يقول عبد الغافر « وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ، ومطالعة الصحيحين البخارى ومسلم » . ونقل كلامه السبكى فى طبقاته ٤/١٠٩ .

(٣) فى كتاب « المضنون به على غير أهله » ، ص ٣١١ ، ط . الجندى (مجموعة القصور العوالى).

(٤) فى « المضنون » : لا هو ولا غيره .

وهذا التخيل يقع من توهم التغاير ،ولا تغاير في الصفات . مثال ذلك : أن إنساناً تعلم صورة الكتابة ، وله علم بصورة « بسم الله » التى تظهر تلك الصورة على القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكالها أن يكون المعلوم تبعاً لها ، فإنه إذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس بلا حركة يد وواسطة قلم ومداد .

فهذه الصفة من حيث إن المعلوم انكشف بها يقال له : علم ، ومن حيث إن الألفاظ تدل عليها يقال لها : كلام[١] ، فإن الكلام عبارة عن مدلول العبارات ، ومن حيث إن وجود المعلوم تبع لها يقال لها : القدرة ، ولا تغاير ههنا بين العلم والقدرة والكلام ، فإن هذه صفة واحدة فى نفسها ، ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة .

وكل من كان أعور لاينظر إلا بالعين العوراء ولا يرى إلا مطلق الصفة فيقول : هو هو ، وإذا التفت إلى الاعتبارات الثلاث يقال[٢] : هى غيره ، ومن اعتبر مطلق الصفة مع الاعتبارات فقد نظر بعينين صحيحتين : / اعتقد أنها لاهو ولا غيره .

ص ٤٨

والكلام فى صفات الله تعالى ، وإن كان مناسباً لهذا المثال ، فإنه مباين له بوجه آخر . وتفهيم هذه المعانى بالكتابة غير يسير»[٣] .

فهذا الكلام من جنس الكلام المذكور فى السؤال ، وكلاهما يرجع إلى ماتزعمه المتفلسفة من أن الصفات ترجع إلى العلم إذا أثبتوه .

مقالة ابن حزم

وقد يقرب من هؤلاء ابن حزم حيث رد الكلام والسمع والبصر وغير

---

(١) ك : يقال لها الكلام ؛ المضنون : يقال لها القدرة كلام ؛ والمثبت عن (ع) .

(٢) المضنون : فقال .

(٣) المضنون : عسير غير يسير .

ذلك إلى العلم[1] مع أنه لا يثبت صفة لله هى العلم ، ويجعل أسماءه الحسنى إنما هى أعلام محضة ، فالحى والعالم والقادر والسميع والبصير ونحوه كلها أسماء أعلام لاتدل على الحياة والعلم والقدرة[2] .

الرد على النفاة

وهذا يؤول إلى قول القرامطة الباطنية ونحوهم نفاة أسماء الله تعالى الذين يقولون : لايقال : حى ولا عالم ولا قادر ؛ وهذا كله من الإلحاد فى أسماء الله وآياته . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٠] .

وإذا كان من الإلحاد إنكار اسمه « الرحمٰن » كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ [سورة الفرقان : ٦٠] ، وقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الإسراء : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [سورة الرعد : ٣٠] إلى غير ذلك .

---

(١) يقول ابن حزم فى « الفصل » ٢ / ١٢٤ : « ونحن نقول أنه تعالى لم يزل سميعاً للمسموعات بصيراً بالمبصرات يرى المرئيات ويسمع المسموعات ، ومعنى هذا كله أنه عالم بكل ذلك ، كما قال تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) ، وهذا كله معنى العلم الذى لا يقتضى وجودا لمعلومات لم نزل ... إلخ » .

(٢) يقول ابن حزم فى « الفصل » ٢ / ١٢٨ : « إننا لانفهم من قولنا : قدير وعالم إذا أردنا بذلك الله تعالى ، إلا ما نفهم من قولنا الله فقط ، لأن كل ذلك أسماء أعلام لامشتقة من صفة أصلا . لكن إذا قلنا : الله تعالى بكل شىء عليم ويعلم الغيب ، فإنما يفهم من كل ذلك أن هاهنا له تعالى معلومات ، وأنه لا يخفى عليه شىء ، ولا يفهم منه ألبتة أن له علما هو غيره . وهكذا نقول فى : يقدر ، وفى ذلك كله » .

وانظر : منهاج السنة ٢ / ٤٦٨ (ط . دار العروبة) .

فإذا كان اسمه « الرحمٰن » قد أنزل فيه ما أنزل فكيف إنكار سائر الأسماء ، ومعلوم أن اللفظ إذا كان علماً محضاً لم ينكره أحد ، ولو كانت أعلاما لم يفرق بين الرحمٰن والعليم والقدير .

الرد على الغزالى

وما ذكره صاحب كتاب « المضنون » مع المتفلسفة من أن العلم بالممكنات هو المقتضى لوجودها معلوم البطلان بأدنى تأمل . فإن العلم نوعان : علم نظرى وعلم عملى ، فأما النظرى ـ وهو العلم بما لا يفعله العالم ، كعلم الله بنفسه ، وكعلمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ـ فهذا ليس مقتضياً لوجود المعلوم بالضرورة واتفاق العقلاء ، وإن كان قد يكون سبباً لبعض الأعمال .

وأما العلم العملى كعلم الله بمخلوقاته ، وكعلمنا بمفعولاتنا ، فهذا العلم وحده ليس موجباً لوجود المعلوم بلا قدرة ولا إرادة وعمل ، فإنَّا إذا تصورنا ما نريد فعله لم يكن مجرد تصورنا ما نريده ولم نقدر عليه لم يكن ، وإذا كنا قادرين على ما نتصوره ولا نريده لم يكن ، بل لابد : علمنا به ، وإرادتنا له ، وقدرتنا عليه .

فلو قال قائل : علم الله ليس كعلمنا .

قيل له : وذات الله ليست كذاتنا ، ولا قدرته وإرادته كقدرتنا وإرادتنا .

وهذا السؤال قد بسط الشيخ الكلام عليه وقد اختصر منه . وقال فى وسط الكلام على هذا السؤال :

اثبات ابن تيمية وأهل السنة الماهية لله تعالى

بل لكل موجود حقيقة تخصه يتميز بها عمَّا سواه ويباين بها غيره . وهذه الحقيقة هى حقيقة الربوبية ، وبنفيها[1] ضل الجهمية من المعتزلة والفلاسفة

---

(١) فى النسختين : وبنفسها ، والصواب ما أثبته . وانظر قوله : وهى الماهية التى أثبتها .. الخ ، وقوله بعد قليل : وعلى إثباتها أئمة السنة والجماعة . . الخ .

والقرامطة والاتحادية وأمثالهم ، وهى الماهية التى أثبتها ضرار وأبو حنيفة وغيرهما من الكوفيين[١] ، وخالفهم فى ذلك معتزلة البصرة[٢] ، وعلى إثباتها أئمة السنة[٣] والجماعة من السلف والخلف ، ولهذا ينفون العلم بماهيه الله وكيفيته فيقولون : لا تجرى ماهيته فى مقال ، ولا تخطر كيفيته ببال ؛ ومن نفاها من المنتسبين إلى السنه وغيرهم قال : ليس له ماهية فتجرى فى مقال ، ولا له كيفيه فتخطر ببال .

والأول هو المأثور عن السلف والأئمة ، كما قد بسط الكلام عليه فى غير هذا الموضع ، ويدل عليه صريح المعقول وصحيح المنقول ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) يقول ابن طاهر فى أصول الدين (ص ٣٣٩) عن ضرار بن عمرو : « وانفرد بأشياء منها قوله : إن الله يرى بحاسة زائدة يرى بها المؤمنون ماهية الإله ، ووصف الله بالماهية كما قال أبو حنيفة وحفص الفرد » . وانظر أيضاً : الملل والنحل ٨٢/١ ؛ مقالات الإسلاميين ٣١٤/١ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٦٣ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٣٠ ؛ الحور العين ، ص ١٤٨ . وانظر الفصل لابن حزم ١٧٣/٢ - ١٧٥ حيث عقد فصلا بعنوان : الكلام فى المائية ، قال فى أوله : « ذهب طوائف من المعتزلة إلى أن الله تعالى لا مائية له ، وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو إلى أن لله تعالى مائية . قال ضرار : لا يعلمها غيره . قال أبو محمد : والذى نقول به — وبالله تعالى التوفيق — أن له مائية هى إنيته نفسها . الخ » .

(٢) فى « البدء والتاريخ » لمطهر بن طاهر المقدسى ٥ / ١٤٣ : « وأما البصريون فإنهم الذين أصلوا هذا المذهب مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى الهذيل بن العلاف وأبى إسحاق النظام » . وانظر « فلسفة المعتزلة » للدكتور ألبير نصرى نادر ١ / ٧-١٢ ، ط . الأسكندرية ، ١٩٥٠ .

(٣) فى (ك) : أئمة السلف ؛ وفى (ع) لم يظهر من الكلمة ما بعد حرف السين ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

رسالة في تحقيق مسألة علم الله



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

﴿ فصل فى مسألة العلم ﴾

فى هذه المسألة ثلاثة أقوال :

الناس المنتسبون إلى الإسلام فى علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال :

الأول

أحدها : أنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته، ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة ، وإنما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم . وهذا قول طائفة من الصفاتية من الكُلاَّبيه والأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وأبى حنيفة ، وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات ، لكن هؤلاء يقولون : يعلم المستقبلات ، ويتجدد التعلق بين العالم والمعلوم ، لا بين العلم والمعلوم .

وقد تنازع الأولون : هل له علم واحد أو علوم متعددة ؟ على قولين . والأول قول الأشعرى وأكثر أصحابه ، والقاضى أبى يعلى وأتباعه ، ونحو هؤلاء. والثانى قول أبى [سهل] الصُّعْلُوكى (1) .

الثانى

والقول الثانى : أنه لا يعلم المحدثات إلا بعد حدوثها . وهذا أصل قول القدرية الذين يقولون : لم يعلم أفعال العباد إلا بعد وجودها ، وأن الأمر أُنُفٌ :

---

(1) فى الأصل : أبى الصعلوكى . واشتهر من الأشاعرة أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكى وابنه أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكى ، ورجحت أن يكون المقصود هو الأول . ولد سنة ٢٩٦ وتوفى سنة ٣٦٩ ، وكان من فقهاء الشافعية ، عالما أديبا مفسرا . انظر ترجمته فى : طبقات الشافعية ٢ / ١٦١ – ١٦٤ ؛ وفيات الأعيان ٣ / ٣٤٢ – ٣٤٣ ؛ تبيين كذب المفترى ، ص ١٨٣ – ١٨٨ ؛ الوافى بالوفيات ٣ / ١٢٤ ؛ الأعلام ٧ / ٢٠ .

لم يسبق القدر بشقاوة ولاسعادة ، وهم غلاة القدرية الذين حدثوا فى زمان ابن عمر وتبرَّأ منهم[١] . وقد نص الأئمة كمالك والشافعى وأحمد على تكفير قائل هذه المقالة .

لكن القدرية صرَّحوا بنفى العلم السابق والقدر الماضى فى أفعال العباد المأمور بها والمنهىّ عنها ، وما يتعلق بذلك من الشقاوة والسعادة . ثم منهم من اقتصر على نفى العلم بذلك خاصة ، وقال : إنه قدَّر الحوادث وعَلِمَها إلا هذا ، لأن الأمر والنهى مع هذا العلم يتناقض عنده ، بخلاف مالا أمر فيه ولا نهى .

ومنهم من قال ذلك فى عموم المقدَّرات ، وقد حُكى نحو هذا القول عن عمرو بن عبيد[٢] وأمثاله . وقد قيل: إنه رجع عن ذلك قبل إنكاره لأن تكون ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد : ١] ، و ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ

---

(١) يشير ابن تيمية الى مقدمة حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى رواه مسلم فى أول كتاب الإيمان من صحيحه ١ / ٢٨ ولفظه : « عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد فا كتنفته أنا وصاحبى ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ؟ فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى ، فقلت : أبا عبد الرحمن ، إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم ــ وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف . قال : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم برءاء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر » .

قال ابن الأثير فى « جامع الأصول » ١ / ١٢٨ أن الحديث رواه مسلم والنسائى والترمذى وأبى داود وذكر رواياته المختلفة ١ / ١٢٨ ــ ١٣٦ .

(٢) أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب مولى آل عرادة بن يربوع بن مالك ، وكان من سبى كابل . ولد سنة ٨٠ وعاش فى البصرة وصاحب واصل بن عطاء وتزوج أخته وصار من أئمة المعتزلة ، وكانت وفاته سنة ١٤٤ . انظر ترجمته ومقالته فى : وفيات الأعيان ٣/١٣٠ ــ ١٣٣ ؛ المنية والأمل لابن المرتضى ، ص ٢٢ ــ ٢٤ ؛ شذرات الذهب ١/٢١٠ ــ ٢١١ ؛ تاريخ بغداد ١٢ / ١٦٦ ــ ١٨٨ ؛ مروج الذهب للمسعودى ٣ / ٣١٤ ؛ الحور العين ، ص ١١١ ــ ١١٢ ؛ ميزان الاعتدال ٣ / ٢٧٣ ــ ٢٨٠ ؛ الأعلام ٥ / ٢٥٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٧٢ ــ ٧٣ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٤٢ .

وَحِيداً ﴾ [سورة المدثر: ١١] ، ونحو ذلك فى اللوح المحفوظ ، وأمثال ذلك .

الثالث

والقول الثالث : أنه يعلمها قبل حدوثها ، ويعلمها بعلم آخر حين وجودها. وهذا قد حكاه المتكلمون كأبى المعالى عن جهم ، فقالوا : إنه ذهب إلى إثبات علوم حادثة لله تعالى ، وقال : البارىء عالم لنفسه ، وقد كان فى الأزل عالما بنفسه وبما سيكون ، فإذا خلق العالم ،وتجددت المعلومات ـ أحدث لنفسه علوماً بها يعلم المعلومات الحادثة ، ثم العلوم تتعاقب حسب تعاقب المعلومات فى وقوعها متقدمة عليها ، أى العلوم متقدمة على الحوادث . وذكروا أنه قال : إنها فى غير محل ، نظير ما قالت المعتزلة / البصرية فى الإرادة[1] .

ص ٢٤٣

وهذا القول ، وإن كان قد احتُجَّ عليه بما فى القرآن من قوله :﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ فتلك النصوص لا تدل على هذا القول .

فإن هذا القول مضمونه تجدد علم قبل الحدوث ، والذى فى القرآن إنما ذكروا دلالته على مابعد الوجود ، وهذان قولان متغايران . وإنما يحتج عليه بمثل قوله فى حديث : أبرص وأقرع وأعمى : « بدا لله أن يبتليهم »[2] . وليس

---

(١) قال أبو المعالى الجوينى فى كتابه « الإرشاد » ص ٩٦ (ط. الخانجى ١٣٦٩ / ١٩٥٠) : « ذهب جهم إلى إثبات علوم حادثة للرب ، تعالى عن قول المبطلين ، وزعم أن المعلومات إذا تجددت أحدث البارى سبحانه وتعالى علوماً متجددة بها يعلم المعلومات الحادثة ، ثم العلوم تتعاقب حسب تعاقب المعلومات فى وقوعها متقدمة عليها . . . وسبيل الرد عليه فى مدارك العقل يدانى سبيل الرد على البصريين فى اعتقادهم الإرادت الحادثة الثابتة ـ على زعمهم ـ لله تعالى فى غير محال » .

وانظر : نهاية الإقدام للشهرستانى ، ص ٢١٥ .

(٢) الحديث متفق عليه عن أبى هريرة رضى عنه ، وهو فى البخارى ٤ / ١٧١ ـ ١٧٢ (كتاب الأنبياء ، حديث أبرص وأعمى وأقرع فى بنى إسرائيل) وأوله : « . . . أخبرنى عبد الرحمن بن أبى عمرة أن أبا هريرة رضى الله عنه حدثه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا . . . الحديث » . وهو فى مسلم ٨ / ٢١٣ ـ ٢١٤ (أول كتاب الزهد والرقائق) وفيه : « . . . فأراد أن يبتليهم . . . » .

هذا بَدَاء[١] يخالف العلم القديم ، كما قاله بعض غلاة الرافضة[٢] . وكذلك أبو الحسين البصرى[٣] قال بإثبات علوم متجددة فى ذات الله بحسب تجدد المعلومات[٤]، وكذلك أبو البركات صاحب « المعتبر » ، الإمام فى الفلسفة[٥]،

---

(١) فى الأصل : بدا (وعلى الباء فتحة وعلى الدال سكون) ، ولعله خطأ من الناسخ .

(٢) قال الشهرستانى فى الملل والنحل ١ / ١٣٢ ـ ١٣٣ عن مذهب المختارية الشيعة الكيسانية وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى : « فمن مذهب المختار أنه يجوز البداء على الله تعالى . والبداء له معان : البداء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، ولا أظن عاقلا يعتقد هذا الاعتقاد ؛ والبداء فى الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ؛ والبداء فى الأمر ، وهو أن يأمر بشىء آخر بعده بخلاف ذلك . ومن لم يجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة فى الأوقات المختلفة متناسخة . وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء لأنه كان يدعى علم ما يحدث له من الأحوال : إما بوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء ؛ قال : إذا جاز النسخ فى الأحكام جاز البداء فى الأخبار » (انظر أيضا عن قول المختار بالبداء : الفرق بين الفرق ، ص ٢٦) .

وتابع المختار فى هذا القول كل الكيسانية وكثير من الإمامية الاثنى عشرية ، وقد عقد الكلينى فى كتابه « أصول الكافى » ١ / ١٤٦ ـ ١٤٩ (ط. طهران ، ١٣٨١) فصلا عن « البداء » أورد فيه آثار الشيعة وأدلتهم على هذا الاعتقاد .

وانظر عن البداء عند الشيعة أيضا : فرق الشيعة للنوبختى ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ التبصير فى الدين ، ص ١٨ ، ٢٠ ؛ دائرة المعارف الإسلامية مقالة « البداء » لجولدتسيهر .

(٣) أبو الحسين محمد بن على الطيب البصرى ، من متأخرى المعتزلة ومن أئمتهم ، توفى سنة ٤٣٦ . انظر ترجمته ومذهبه فى : وفيات الأعيان ٣ / ٤٠١ ـ ٤٠٢ ؛ شذرات الذهب ٣/٢٥٩ ؛ تاريخ بغداد ٣/١٠٠ ؛ لسان الميزان ٥/٢٩٨ ؛ الملل والنحل ١/٧٨ ؛ نهاية الإقدام ، ص ١٥١ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٢١ ، ٢٥٧ ؛ منهاج السنة (ط دار العروبة) ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠، ٢/٩١، ٢١٣ .

(٤) قال الشهرستانى فى نهاية الإقدام ، ص ٢٢١ : « وقد مال أبو الحسين البصرى إلى مذهب هشام بعض الميل حتى قضى بتجدد أحوال البارى تعالى عند تجدد الكائنات مع أنه من نفاة الأحوال غير أنه جعل وجوه التعلقات أحوالا إضافية للذات العالمية » .

(٥) أبو البركات هبة الله بن على بن ملكا ، طبيب وفيلسوف ، كان يهوديا وأسلم ، يعرف بأوحد الزمان وبفيلسوف العراقين ، من أهم كتبه « المعتبر فى الحكمة » طبع بحيدرآباد سنة ١٣٥٧ ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقيل سنة ٤٥٧ وقيل غير ذلك . انظر ترجمته فى : أخبار الحكماء لابن القفطى ٣٤٣ ـ ٣٤٦ ؛ طبقات الأطباء =

قال بتجدد علوم وإرادات له ، وذكر أن إلهيته لهذا العالم لاتصح إلا مع هذا القول[١] . وكذلك أبو عبد الله الرازى يميل إلى هـذا القول فى « المطالب العالية »[٢] وغيرها .

وأما السمع والبصر والكلام فقد ذكر الحارث المحاسبى[٣] عن أهل السنة فى تجدد ذلك عند وجود المسموع المرئى قولين .

والقول بسمع و بصر قديم يتعلق بهاعند وجودها قول ابن كُلَّاب وأتباعه والأشعرى ، والقول بتجدد الإدراك مع قدم الصفة قول طوائف كثيرة كالكرَّاميَّة وطوائف سواهم ، والقول بثبوت الإدراك قبل حدوثها وبعد وجودها قول السَّالميَّة كأبى الحسن بن سالم وأبى طالب المكى[٤] .

= لابن أبى أصيبعة ٣ / ٢٩٦ ـ ٣٠٠ ؛ تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى ، ص ١٥٢ ـ ١٥٤ ؛ نكت الهميان للصفدى ، ص ٣٠٤ ؛ الأعلام ٩ / ٦٣ . وانظر مقالة السيد سليمان الندوى عنه وعن كتاب المعتبر فى آخر الجزء الثالث من المعتبر ، ص ٢٣٠ ـ ٢٥٢ .

(١) تكلم ابن ملكا عن الآراء المختلفة فى مسألة علم الله وناقشها بالتفصيل فى المعتبر ٣/٦٩ ـ ٩٩ وذكر رأيه فى أثناء ذلك . وانظر مثلا قوله ٣/٧٦ : « فأما القول بإيجاب التغيرية فيه بإدراك الأغيار والكثرة بكثرة المدركات فجوابه المحقق أنه لا يتكثر بذلك تكثرا فى إضافاته ومناسباته وتلك مما لا تعيد الكثرة على هويته وذاته » .

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى البكرى ، فخر الدين الرازى ، ويعرف بابن خطيب الرى ، ولد سنة ٥٤٤ وتوفى سنة ٦٠٦ . من أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعرى بالفلسفة والاعتزال ، ومن كتبه « المطالب العالية » وهو ما زال مخطوطا . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ٣/٣٨١ ـ ٣٨٥ ؛ شذرات الذهب ٥/٢١ ؛ طبقات الشافعية ٥/٣٣ ـ ٤٠ ؛ لسان الميزان ٤/٤٢٦ ـ ٤٢٩ ؛ الأعلام ٧/٢٠٣ .

(٣) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، من شيوخ الصوفية ، توفى ببغداد سنة ٢٤٣ . انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ، ص ٥٦ ـ ٦٠ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١/٦٤ ؛ طبقات الشافعية ٢/٣٧ ـ ٤٢ ؛ شذرات الذهب ٢/١٠٣ ؛ ميزان الاعتدال ١/٤٣٠ ـ ٤٣١ ؛ الخلاصة للخزرجى ، ص ٥٧ ؛ الأعلام ٢/١٥٣ ـ ١٥٤ .

(٤) السالمية هم أتباع أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سالم (المتوفى سنة ٢٩٧) وابنه الحسن أحمد بن محمد بن سالم (المتوفى سنة ٣٥٠) . وقد تتلمذ سالم بن محمد على سهل بن عبد الله =

والطوائف الثلاثة تنتسب إلى أئمة السنة كالإمام أحمد ، وفى أصحابه من قال بالأول ، ومنهم من قال بالثانى ، والسالمية تنتسب إليه .

وكذلك الإرادة والمشيئة فيها للصفاتية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ليست إلا قديمة[١] ، وهو قول ابن كُلاَّب والأشعرى وأتباعهما .

الثانى : أنها ليست إلا حادثة ؛ والفرق بين هذا وبين قول المعتزلة البصرية أن المعتزلة يقولون بحدوثها لا فى محل ، لامتناع كونه[٢] محلاً للحوادث عندهم ، وهؤلاء يقولون تقوم بذاته كما يقوم الكلام بذاته .

والثالث : أنها قديمة وحادثة ، وهو قول طوائف من الكرّامية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم ، وكذلك يقول هؤلاء إنه يوصف بأنه متكلم فى الأزل، وأنه يتكلم إذا شاء ، كما صرّح بذلك الأئمة كالإمام أحمد وغيره .

لكن فى تحقيق ذلك نزاع بين المتأخرين . فقيل : القديم هو القدرة على الكلام كما قالت الكرّامية . وقيل : بل القولان متضادان، كما ذكر أبو بكر عبد العزيز[٣] وعبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد .

= التسترى . ومن أشهر رجال السالمية أبو طالب المكى صاحب كتاب « قوت القلوب » المتوفى سنة ٣٨٦ . ويجمع السالمية فى مذهبهم بين كلام أهل السنة وكلام المعتزلة مع ميل الى التشبيه ونزعة صوفية اتحادية . انظر : شذرات الذهب ٣/٣٦ ؛ اللمع السراج ، ص ٤٧٢ـ ٤٧٦ ،القاهرة ١٩٦٠ ؛ طبقات الصوفية ، ص ٤١٤ـ٤١٦ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٥٨ ، ٢٠٢ ؛ مقالة «السالمية» فى دائرة المعارف الإسلامية لماسينيون .

(١) فى الأصل : أنها ليست الإرادة إلا قديمة .

(٢) فى الأصل : لامتناع قوله ، وهو تحريف.

(٣) أبو بكر عبد العزيز بن جعفر بن أحمد بن يزداد ، المعروف بغلام الخلال ، من أئمة الحنابلة ، توفى سنة ٣٦٣ من أهم مصنفاته « الشافى » و « المقنع » انظر ترجمته فى :طبقات الحنابلة ٢ / ١١٩ ـ ١٢٧ .

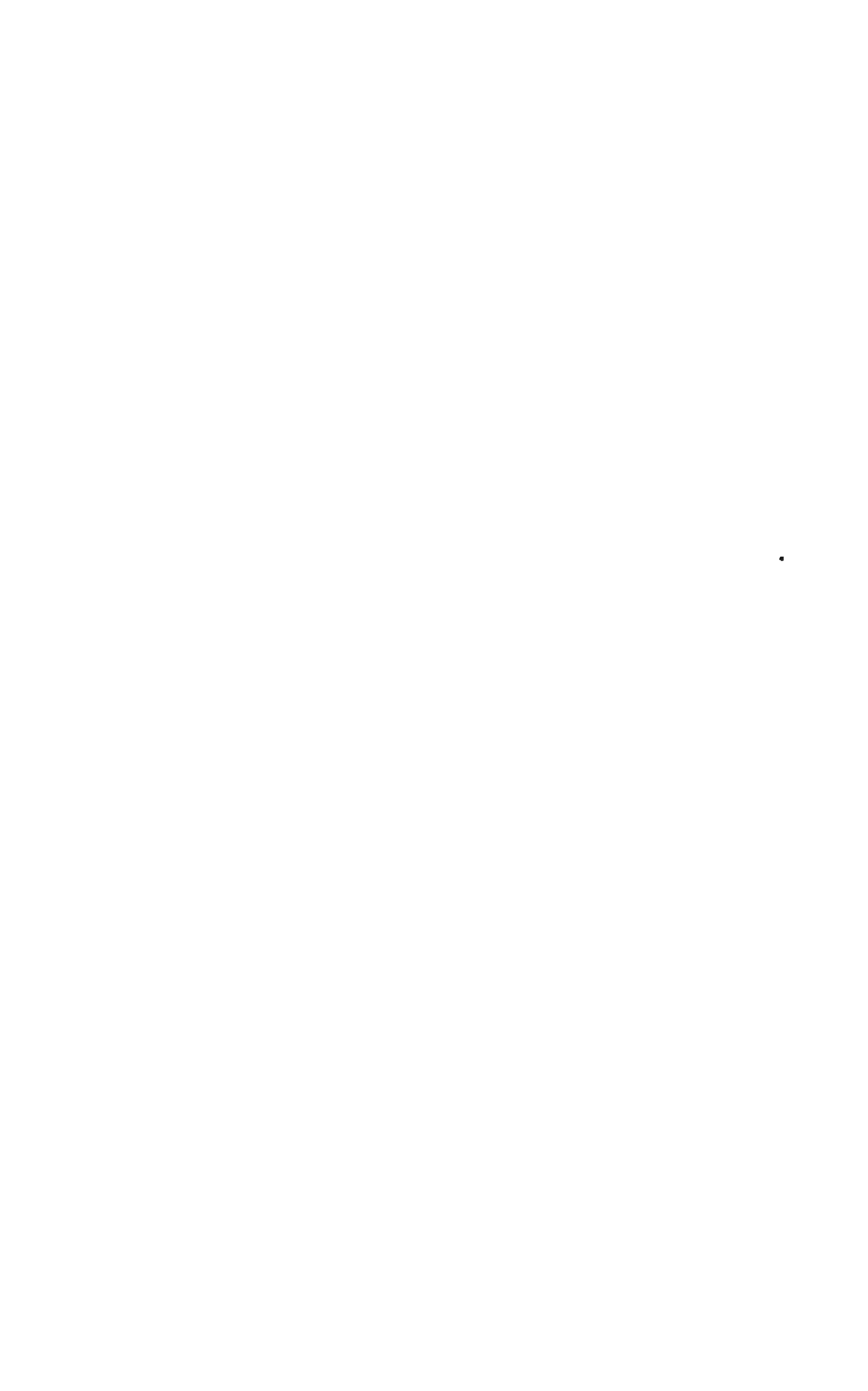
فأما إثبات علمه وتقديره الحوادث قبل كونها ، ففى القرآن والحديث والآثار مالا يكاد يُحصر ، بل كل ما أخبر الله به قبل كونه فقد علمه قبل كونه، وهو سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وقد أخبر بذلك ، والنزاع فى هذا مع غلاة القدرية ونحوهم .

وأما المستقبل فمثل قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾[سورة البقرة: ٢٤٢]، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ الآية [سورة البقرة : ٢١٤ ، آل عمران : ١٤٢] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ الآية [سورة التوبة : ١٦] ، وقوله : ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٣] ، وقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [سورة العنكبوت : ١١] ، وقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٣١] .

آخره ، والحمد لله وحده ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .



رسالة في الجواب عن سؤال عن الحلاج هل كان صديقا أو زنديقا



نص السؤال

مايقول السادة العلماء رضى الله عنهم فى الحلاج الحسين بن منصور : هل كان صدِّيقا أو زنديقا ؟ وهل كان وليًا لله متقيًا له ، أم كان له حال رحمانى ، أو من أهل السحر والخزعبلات ؟ وهل قتل على الزندقة بمحضر من علماء المسلمين ، أو قتل مظلوما ؟ أفتونا مأجورين .

الجواب

فأجاب شيخ الإسلام أبوالعباس تقى الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية ، قدَّس الله روحه .

الحمد لله رب العالمين .

الحلاج كان زنديقا

الحلاج قتل على الزندقة[1] التى ثبتت عليه بإقراره و بغير إقراره ، والأمر الذى ثبت عليه مما يوجب القتل باتفاق المسلمين ، ومن قال : إنه قُتل بغير حق فهو إما منافق ملحد ، وإما جاهل ضالّ .

والذى قُتل به ما استفاض عنه من أنواع الكفر ، و بعضه يوجب قتله ، فضلا عن جميعه ، ولم يكن من أولياء الله المتقين ، بل كان له عبادات ورياضات ومجاهدات بعضها شيطانى ، و بعضها نفسانى ، و بعضها موافق[1] للشريعة من وجه دون وجه ، فلبس الحق بالباطل .

بعض أخبار الحلاج

وكان قد ذهب إلى بلاد الهند وتعلم أنواعاً من السحر[2] ، وصنَّف كتاباً

---

(١) وكان قتله سنة ٣٠٩ .

(٢) فى الأصل : موافقاً ، وهو خطأ .

(٣) قال ابن الجوزى فى ترجمة الحلاج فى كتابه « المنتظم » ٦ / ١٦٠ - ١٦١ : « وطاف البلاد وقصد الهند وخراسان وماوراء النهر وتركستان » . ثم قال (٦/١٦١) : « ... سمعت على بن أحمد الحاسب يقول : سمعت والدى يقول : وجهنى المعتضد إلى الهند ، وكان معى فى السفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور ، فلما خرجنا من المركب قلت له : فى أى شىء جئت إلى هاهنا ؟ قال : جئت لأتعلم السحر وأدعو الخلق إلى الله » . وانظر : روضات الجنات ، ص ٢٢٥ .

فى السحر معروفا ، وهو موجود إلى اليوم ، وكانت له أقوال شيطانية ومخاريق بهتانية .

وقد جمع العلماء أخباره فى كتب كثيرة أرَّخوها الذين كانوا فى زمنه ، والذين نقلوا عنهم مثل ابن على الخُطَبِي[١] ذكره فى تاريخ بغداد ، والحافظ أبو بكر الخطيب ذكر له ترجمة كبيرة فى « تاريخ بغداد »[٢] ، وأبو يوسف القزوينى صنَّف مجلداً فى أخباره[٣] ، وأبو الفرج بن الجوزى له فيه مصنف سمَّاه « رفع اللّجاج فى أخبار الحلاّج[٤] ، و بسط ذكره فى تاريخه[٥] .

وذكر أبو عبد الرحمن السلمى فى «طبقات الصوفية» أن كثيراً من المشايخ ذموه وأنكروا عليه ولم يعدُّوه من مشايخ الطريق وأكثرهم حط عليه[٦] ،

---

(١) فى الأصل : أبى على الحطى . وجاء فى مجموع فتاوى شيخ الإسلام (ط . الرياض) ٣ / ٤٨٣ : « وكما ذكر إسماعيل بن على الخطى فى « تاريخ بغداد » وقد شهد قتله » . وهو أبو محمد إسماعيل بن على بن إسماعيل الخطبي (نسبة إلى الخطب وإنشائها) مؤرخ أديب صنف تاريخا كبيراً ، ولد سنة ٢٦٩ وتوفى سنة ٣٥٠ . انظر ترجمته فى : طبقات الحنابلة ٢ / ١١٨ ــ ١١٩ ؛ العبر ٢/ ٢٨٦؛ اللباب ١ / ٣٧٩ ؛ الأعلام ١ / ٣١٦ .

(٢) فى الجزء الثامن ، ص ١١٢ ــ ١٤١ .

(٣) أبو يوسف عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار القزوينى ، شيخ المعتزلة فى عصره وكان زيديا ، ولد سنة ٣٩٣ وتوفى ٨٨ : . له تفسير يبلغ ثلاثمائة مجلد ، ولم أجد فيما بين يدى من المراجع ذكرا لكتابه عن الحلاج . انظر ترجمته فى: النجوم الزاهرة ٥/١٦٥ ؛ دول الإسلام للذهبي ٢ / ١٣ ؛ لسان الميزان ٤/١١ ــ ١٢ ؛ طبقات المفسرين للسيوطى ، ص ١٩ ؛ العبر للذهبي ٣ / ٣٢١ ؛ الأعلام ٤/١٣١ .

(٤) ذكر ابن الجوزى فى « المنتظم » ٦ / ١٦٢ : « وقد جمعت أخباره فى كتاب سميته القاطع لمحال اللجاج القاطع بمحال الحجاج » . وقال ابن رجب فى « الذيل على طبقات الحنابلة » ١ / ٤١٨ أن من مصنفات ابن الجوزى : « القاطع لمحال اللجاج بمحال الحجاج ، جزء » .

(٥) فى « المنتظم » ٦/١٦٠ ــ ١٦٤ .

(٦) ترجم السلمى للحلاج فى كتابه « طبقات الصوفية » ، ص ٣٠٧ ــ ٣١١ ، وقال عنه : « وللمشايخ فى أمره مختلفون . رده أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم فى التصوف ، وقبله من جلتهم ....إلخ » . وانظر روضات الجنات . ص٢٣٦ .

ومِن ذمَّه وحطَّ عليه أبو القاسم الجُنَيد[١] ، ولم يقتل فى حياة الجنيد ، بل قتل بعد موت الجنيد ، فإن الجنيد توفى سنة ثمان وتسعين ومائتين[٢] / والحلاج قتل سنة بضع وثلاثمائة .

ظ ١٢٤

وقدموا به إلى بغداد راكباً على جمل يُنادى عليه : هذا داعى القرامطة ، وأقام فى الحبس مدة حتى وُجد من كلامه الكفر والزندقة واعترف به ، مثل أنه ذكر فى كتاب له : من فاته الحج فإنه يبنى فى داره بيتاً ويطوف به كما يُتطوف بالبيت ، ويتصدق على ثلاثين يتيماً بصدقة ذكرها ، وقد أجزأه ذلك عن الحج . فقالوا له : أنت قلت هذا ؟ قال : نعم . فقالوا له : ومن أين لك هذا ؟ قال : ذكره الحسن البصرى فى كتاب « الصلاة » . فقال له القاضى أبو عمر : تكذب يازنديق ، أنا قرأت هذا الكتاب وليس هذا فيه . فطلب منهم الوزير أن يشهدوا بما سمعوه ، ويفتوا بما يجب عليه ، فاتفقوا على وجوب قتله[٣] .

(١) فى كتاب « أخبار الحلاج » لعلى بن أنجب الساعى (ط . باريس ، ١٩٣٦) ص ٣٨ : «عن أبى محمد الجسرى قال : رأيت الجنيد ينكر على الحلاج ، وكذلك عمرو ابن عثمان المكى وأبو يعقوب النهرجورى وعلى بن سهل الأصبهانى ومحمد بن داود الأصبهانى .. إلخ » . وفى نفس الكتاب ، ص ٩٢ : « وقال أحمد بن يولس : كنا فى ضيافة ببغداد فأطال الجنيد اللسان فى الحلاج ونسبه إلى السحر والشعبذة والنيرنج ... الخ » . وفى روضات الجنات » ص ٢٢٥ أن الحلاج صحب فى شبابه الجنيد فى بغداد ثم سافر مدة من الزمن ولما رجع إلى بغداد قصد إلى الجنيد وسأله عن مسألة فلم يجبه ، وقال له : أنت مدع فى سؤالك، فتكدر منه الحلاج . وانظر أيضاً ، ص ٢٣٤ . وذكر اليافعى كلاما مشابها فى « مرآة الجنان » ٢/ ٢٥٩ . وانظر أيضا : الفرق بين الفرق ، ص ١٥٨ .

(٢) أبو القاسم الجنيد بن محمد الخزار ، ويقال له أحيانا القواريرى ، من شيوخ الصوفية ، توفى سنة ٢٩٧ وقيل سنة ٢٩٨ . انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية للسلمى ، ص ١٥٥ ـ ١٦٣ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١ / ٧٢ ـ ٧٤ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٦/ ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ تاريخ بغداد ٧ / ٢٤١ ـ ٢٤٩ ؛ الأعلام ٢ / ١٣٧ ـ ١٣٨ . وانظر ما ذكره الخوانسارى فى « روضات الجنات » حيث يقول : « وعن بعض كتب التواريخ أن شيخه الجنيد أيضاً كتب فى الاستشهاد عليه أن الرجل فى ظاهر حاله يستحق القتل . وعن بعضها التنظر فى ذلك لكون وفاة الجنيد قبل وقت قتله بكثير ، وفيه نظر لاحتمال كون صدور ذلك منه أيام تغيره عليه كما عرفته من قبل » .

(٣) انظر خبر مقتله هذا فى : المنتظم ٦ /١٦٢ ؛ الكامل لابن الأثير ٨ / ٤٠ ؛ تاريخ بغداد ٨ / ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ البداية والنهاية ١١ / ١٤١ ؛ روضات الجنات ، ص ٢٣٥ ؛ الطبقات الكبرى للشعرانى ١/ ١٤ ـ ١٥ .

لـكن العلماء لهم قولان فى الزنديق إذا أظهر التوبة ، هل تُقبل توبته فلا يُقتل ، أم يقتل لأنه لا يُعلم صدقه ، فإنه مازال يظهر ذلك ؟ فأفتى طائفة بأنه يُستتاب فلا يُقتل ، وأفتى الأكثرون بأنه يقتل وإن أظهر التوبة ، فإنه إن كان صادقاً فى توبته نفعه ذلك عند الله وقُتل فى الدنيا ، وكان الحدّ تطهيراً له ، كما لو تاب الزانى والسارق ونحوهما بعد أن يُرفعوا إلى الأمام ، فإنه لابد من إقامة الحد عليهم ، فإنهم إن كانوا صادقين كان قتلهم كفارة لهم ، ومن كان كاذباً فى التوبة كان قتله عقوبة له .

فإن كان الحلاج وقت قتله تاب فى الباطن فإن الله ينفعه بتلك التوبة ، وإن كان كاذباً فإنه قُتل كافراً ، ولما قُتل لم يظهر له وقت القتل شىء من الـكرامات ، وكل من ذكر أن دمه كتب على الأرض اسم الله[١] ، أو أن دجلة انقطع ماؤها ، أو غير ذلك[٢] فإنه كاذب ، وهذه الأمور لايحكيها إلا جاهل أو منافق ، وإنما وضعها الزنادقة وأعداء الإسلام ، حتى يقول قائلهم : إن شرع محمد بن عبد الله يقتل أولياء الله حين يسمعون[٣] أمثال هذه الهذيانات ، وإلا فقد قُتل أنبياء كثيرون وقُتل من أصحابهم وأصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم والتابعين وغيرهم من الصالحين من لا يحصى عددهم إلا الله ، قُتلوا بسيوف الفجّار والـكفّار والظلمة وغيرهم ولم يكتب دم أحدهم اسم الله ، والدم أيضا نجس فلا يجوز أن يكتب اسم الله تعالى ؟ فهل الحلاج خير من هؤلاء ، ودمه أطهر من دمائهم ؟ ! . .

---

(١) ذكر هذا الخبر : المناوى فى « الـكواكب الدرارى » ٢ / ٢٥ ؛ الخوانسارى فى روضات الجنات ، ص ٢٣٥ . وانظر : الحلاج شهيد التصوف الإسلامى لطه عبد الباقى سرور ، ص ١٩٠ ، القاهرة ، ١٩٦١ .

(٢) الذى فى « وفيات الأعيان » ١ / ٤٠٧ : « واتفق أن دجلة زادت فى تلك السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها » . وانظر : البداية والنهاية ١١ / ١٤٣ ؛ روضات الجنات ، ص ٢٣٥ .

(٣) فى الأصل : يسمعوا ، وهو خطأ .

وقد جزع وقت القتل وأظهر التوبة والسنّة فلم يُقبل ذلك منه(١) ، ولو عاش افتتن به كثير من الجهّال ، لأنه كان صاحب خزعبلات بُهتانية وأحوال شيطانية ، ولهذا إنما يعظّمه من يعظّم الأحوال الشيطانية والنفسانية والبهتانية .

وأما أولياء الله العالمون بحال الحلاج فليس منهم واحد يعظّمه ، ولهذا لم يذكره القشيرى فى مشايخ رسالته ، وإن كان قد ذكر من كلامه كلمات استحسنها(٢) .

وكان الشيخ أبو يعقوب النهرجورى قد زوّجه بابنته فلما اطّلع على زندقته نزعها منه(٣) . وكان عمرو بن عثمان يذكر أنه كافر ، ويقول : كنت معه فسمع قارئاً يقرأ القرآن فقال : أقدر أن أصنّف مثل هذا القرآن ، أو نحو هذا الكلام(٤) .

---

(١) فى : وفيات الأعيان ٤٠٧/١ ؛ تاريخ بغداد ١٣٩/٨ ؛ مرآة الجنان لليافعى ٢٥٩/٢ ؛ روضات الجنات ، ص ٢٣٥ : أن الحلاج قال للعلماء الذين أفتوا بقتله : « ظهرى حمى ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتقولوا على بما يبيحه ، وأنا اعتقادى الإسلام ، ومذهبى السنة ... ولى كتب فى السنة موجودة فى الوراقين ، فالله الله فى دمى .. الخ » .

(٢) قال الشعرانى فى ترجمة الحلاج (الطبقات الكبرى ١ / ٩٢) : « وقد أشار القشيرى إلى تزكيته حيث ذكر عقيدته مع عقائد أهل السنة أول الكتاب فتحاباب حسن الظن به ، ثم ذكره فى أواخر الرجال لأجل ما قيل فيه » . ويذكر القشيرى فى رسالته ، ص ٦ : « وقال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة فى التوحيد سقط عنه لم وكيف » .

(٣) فى : المنتظم ١٦٢/٦ ؛ تاريخ بغداد ١٢١/٨ ؛ البداية والنهاية ١٣٥/١١ ؛ العبر للذهبى ١٤٠/٢ : « قال أبو زرعة : وسمعت أبا يعقوب الأقطع يقول : زوجت ابنتى من الحسين بن منصور الحلاج لما رأيت من حسن طريقته ، فبان لى بعد مدة يسيرة أنه ساحر محتال خبيث كافر » . ولم أجد من يسمى بأبى يعقوب الأقطع ولكنى وجدت أبا يعقوب النهرجورى وأبا الخير الأقطع . وانظر طبقات الصوفية ص ٣٧٠ ، ٣٧٨ .

(٤) يذكر ابن حجر فى « لسان الميزان » ٣١٤/٢ : « قال محمد بن يحيى الرازى ، سمعت عمرو بن يحيى المكى يلعن الحلاج ويقول : لو قدرت عليه أقتله بيدى . قلت : إيش الذى وجد الشيخ عليه ؟ قال : قرأت آية من كتاب الله فقال : يمكننى أن أؤلف مثله أو أتكلم به . حكاها القشيرى فى الرسالة » . وذكرت القصة منسوبة إلى عمرو بن عثمان المكى فى : المنتظم ١٦٢/٦ ؛ تاريخ بغداد ١٢١/٨ ؛ البداية والنهاية ١١ / ١٣٥ ؛ الفرق بين الفرق . ص ١٥٨ ؛ العبر للذهبى ١٤٠/٢ .

وكان يظهر عند كل قوم مايستجلبهم به إلى تعظيمه ، فيظهر عند أهل السنة أنه سنّيّ ، وعند أهل الشيعة أنه شيعيّ ، ويلبس لباسَ الزهاد تارة ، ولباسَ الأجناد تارة[١] .

وكان من مخاريقه أنه يبعث بعض أصحابه إلى مكان فى البريّة يخبىء فيه شيئاً من الفاكهة والحلوى ، ثم يجىء بجماعة من أهل الدنيا إلى قريب من ذلك المكان فيقول لهم : ماتشتهون أن آتيكم به من هذه البريّة ؟ فيشتهى أحدهم فاكهة أو حلاوة فيقول : / امكثوا . ثم يذهب إلى ذلك المكان ويأتى بما خُبِّىء أو ببعضه ، فيظن الحاضرون أن هذه كرامة له[٢] .

ص ١٢٥

وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحيانا ، كانوا معه على جبل أبى قُبَيْس فطلبوا منه حلاوة ، فذهب إلى مكان قريب منهم وجاء بصحن حلوى ، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سُرِق من دكان حلاوى باليمن ، حمله شيطان من تلك البقعة[٣] .

أخبار أخرى من بعض أصحاب الأحوال الشيطانية

ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممّن له حال شيطانى ، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء فى زماننا وغير زماننا ، مثل شخص هو الآن بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق ، فيجىء من الهواء إلى طاقة البيت الذى فيه الناس فيدخل وهم يرونه ، ويجىء بالليل إلى باب الصغير[٤] فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

---

(١) انظر : المنتظم ١٦١/٦ ؛ البداية والنهاية ١٣٧/١١ .

(٢) انظر : المنتظم ١٦١/٦ وانظر قصة مماثلة فى البداية والنهاية ١٣٧/١١ . وانظر من مخاريقه أيضا مارواه الباقلانى فى كتابه « البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات » (ط . بيروت ، ١٩٥٨) ص ٧٦ .

(٣) روى هذه القصة الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد ١٢٥/٨ – ١٢٦ . ورواها ابن أنجب الساعى فى « أخبار الحلاج » ص ٤٠ – ٤١ عن أبى يعقوب النهرجورى ولكنه زاد بأن الحلاج أرسل إلى الحلوانى ثمن الحلوى بعد أن فقدت من دكانه .

(٤) « لمدينة دمشق ستة أبواب : باب الجابية وباب الصغير ... الخ » (مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ١٠٦ ، ط . ليدن ، ١٣٠٢)

وآخر كان بالشَّوْبَك[1] من قرية يقال لها الشاهدة يطير فى الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه ، وكان شيطانه يحمله ، وكان يقطع الطريق ؛ وأكثرهم شيوخ الشر ، يُقال لأحدهم البَوْشى[2] أبى الجيب[3] ينصبون له خركاه فى ليلة مظلمة ويصنعون خبزا على سبيل القربات ، فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ، ثم يصعد ذلك البَوْشى فى الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له ، ومن ضحك أو سرق من الخبز ضرب به الدف ولا يرون من يضرب به . ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ، ويأمرهم بأن يقرِّبوا له بقراً وخيلا وغير ذلك[4] ، وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها، فإذا فعلوا قضى حاجتهم.

وشيخ آخر أخبرنى نفسه أنه كان يزنى بالنساء ويتلوط بالصبيان الذين يُقال لهم « الحوارات » ، وكان يقول : يأتينى كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان فيقول لى : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به ، وأنا قضيت حاجته لأجلك ، فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ، ويكاشفه هذا الشيخ الكافر .

قال : وكنت إذا طُلب منى تغيير مثل اللَّاذَن[5] أقول حتى أغيب عن عقلى وإذا باللاذن فى يدى أو فى فمى ، وأنا لا أدرى من وضعه . قال : وكنت أمشى وبين يدى عمود أسود عليه نور .

---

(١) فى معجم البلدان : « الشوبك قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك » .

(٢) فى « القاموس» مادة « بوش » : « البوشى (بفتح فسكون) الفقير المعيل وهو من خان الناس ودهمائهم ، ويضم » .

(٣) فى الأصل : أبى المحب ، غير منقوطة .

(٤) فى الأصل : وخيلا وغيرهم وغير ذلك .

(٥) فى المعجم الوسيط : « اللاذن جنس جنبة من الفصيلة اللاذنية يستخرج منه صمغ راتينجى يعلك ويستعمل عطرا ودواء » . وانظر : القاموس المحيط.

فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلّى ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير فلا يأتى بلاذن ولا غيره .

وشيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس ، فيأتى أهل ذلك المصروع إلى الشيخ يطلبون منه إبراءه ، فيرسل إلى أتباعه فيفارقون ذلك المصروع ، ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة . وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس ، حتى أن بعض الناس كان له تين فى كوارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرونه له ، فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب .

وآخر كان مشتغلاً بالعلم والقراءة فجاءته الشياطين أغوته وقالوا له : نحن نُسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد . فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة ، حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه ، وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التى أكلها ذلك المفتون بالشيطان .

فكل من خرج عن الكتاب والسنة وكان له حال من مكاشفة أو تأثير فإنه صاحب حال نفسانى أو شيطانى ، وإن لم يكن له حال بل هو يتشبّه بأصحاب الأحوال فهو صاحب حال[1] بهتانى . وعامة أصحاب الأحوال الشيطانية يجمعون بين الحال الشيطانى والحال البهتانى ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [سورة الشعراء:٢٢١،٢٢٢] . ظ ١٢٥

والحلاج كان من أئمة هؤلاء ، أهلِ الحال الشيطانى والحال البهتانى ، وهؤلاء طوائف كثيرة . فأئمة هؤلاء هم شيوخ المشركين الذين يعبدون الأصنام ، مثل الكهّان والسحرة الذين كانوا للعرب المشركين ، ومثل الكهان والسحرة الذين هم بأرض الهند والترك وغيرهم . ومن هؤلاء من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجىء بعد الموت يكلمهم ويقضى ديونه ويرد ودائعه ويوصيهم بوصايا ، فإنهم

---

(١) فى الأصل : محال ، ولها وجه . وما أثبته موافق للسياق .

تأتيهم تلك الصورة التى كانت فى الحياة ، وهو شيطان تمثّل فى صورته فيظنونه إياه .

وكثير ممن يستغيث بالمشايخ فيقول : يا سيدى فلان ، أو : يا شيخ فلان اقض حاجتى ، فيرى صورة ذلك الشيخ يخاطبه ويقول : أنا أقضى حاجتك ، أو طيِّب قلبك ، فيقضى حاجته أو يدفع عنه عدوه ، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثّل فى صورته لمّا أشرك بالله فدعا غيره .

وأنا أعرف من هذا وقائع متعددة ، حتى أن طائفة من أصحابى ذكروا أنهم استغاثوا بى فى شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن ، والآخر كان خائفاً من التتر ، فذكر كل منهم أنه لمّا استغاث بى رآنى فى الهواء وقد دفعت عنه عدوه ، فأخبرتهم أنى لم أشعر بهذا ، ولا دفعت عنكم شيئاً ، وإنما هذا شيطان تمثّل لأحدهم فأغواه لما أشرك بالله تعالى .

وهكذا جرى لغير واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم ، يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ، ويقول ذلك الشيخ : إنى لم أعلم بهذا ، فيتبين أن ذلك كان شيطاناً .

وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لى أنه استغاث باثنين كان يعتقدهما وأنهما أتياه فى الهواء وقالا له : طيِّب قلبك نحن ندفع عنك هؤلاء ونفعل ونصنع . قلت له : فهل كان من ذلك شىء[١] ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دلّه على أنهما شيطانان ، فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان بقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك ، كما كانت الجن يخبرون الكهّان .

ولهذا من اعتمد على مكاشفته التى هى من أخبار الجن كان كذبه أكثر من صدقه . كشيخ كان يُقال له الشياح توّبناه وجدّدنا إسلامه ، كان له قرين

---

(١) فى الأصل : شيئاً ، وهو خطأ .

من الجن يقال له « عنتر » يخبره بأشياء فيصدق تارة ويكذب تارة ، فلما ذكرت له : إنك تعبد شيطاناً من دون الله ، اعترف بأنه يقول له : يا عنتر لا سبحانك إنك إله قذر ، وتاب من ذلك فى قصة مشهورة .

وقد قتل سيف الشرع من قتل من هؤلاء ، مثل الشخص الذى قتلناه سنة خمس عشرة ، وكان له قرين يأتيه و يكاشفه فيصدق تارة و يكذب تارة ، وكان قد انقاد له طائفة من المنسو بين إلى أهل العلم والرئاسة فيكاشفهم حتى كشف الله أمره ، وذلك أن القرين كان تارة يقول : أنا رسول الله ، ويذكر أشياء تنافى حال الرسول ، فشُهد عليه أنه قال : إن الرسول يأتينى و يقول لى كذا وكذا ، من الأمور التى يكفر من أضافها إلى الرسول . فذكرت لولاة الأمور أن هذا من جنس الكهان ، وأن الذى يراه شيطان[1] ، ولهذا لا يأتيه فى الصورة المعروفة للنبى صلى الله عليه وسلم بل يأتيه فى صورة منكرة ، و يذكر عنه أنه يخضع له و يبيح له أن يتناول المنكر وأموراً أخرى، وكان كثير من الناس يظنون نه كاذب فيما يخبر به من الرؤية ، ولم يكن كاذباً فى أنه رأى تلك الصورة ، لكن كان كافراً فى اعتقاده أن ذلك رسول الله ، ومثل هذا كثير .

ولهذا تحصل لهم تنزُّلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مراد الشيطان ، فكلما / بعدوا عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وطريق المؤمنين قربوا من الشيطان ، فيطيرون فى الهواء والشيطان طار بهم ، ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه صرعتهم ، ومنهم من يحضر طعاماً وإداماً ويملأ[2] الإبريق ماء من الهواء ، والشياطين فعلت ذلك ، فيحسب الجاهلون أن هذه كرامات أولياء الله المتقين ، و إنما هى من جنس أحوال السحرة والكهنة وأمثالهم .

ص ١٢٦

---

(١) فى الأصل : شيطاناً ، وهو خطأ .

(٢) فى الأصل : وملأ .

ومن لم يميِّز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل ، ومن لم ينوِّر الله قلبه بحقائق الإيمان واتّباع القرآن لم يعرف طريق المحق من المبطل ، والتبس عليه الأمر والحال ، كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذّابين فى زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذّابون .

إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجالين والدجال الكبير

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم ثلاثون دجّالون كذّابون كلهم يزعم أنه رسول الله »[١] .

وأعظم الدجاجلة فتنة الدجال الكبير الذى يقتله عيسى بن مريم[٢] ، فإنه ما خَلَق الله من لدن آدم إلى قيام الساعة أعظم من فتنته ، وأمر المسلمين أن يستعيذوا من فتنته فى صلاتهم[٣] . وقد ثبت أنه يقول للسماء : أمطرى ،

---

(١) روى مسلم فى صحيحه ٨/١٨٩ (كتاب الفتن ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل . . الخ) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » . رواه أحمد فى مسنده (ط . المعارف) ١٢/٢١٨ (رقم ٧٢٢٧) . وهو جزء من حديث رواه البخارى فى صحيحه ٤/٢٠٠ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة فى الإسلام) ، ومن حديث آخر طويل ٩/٥٩ (كتاب الفتن ، باب حدثنا مسدد .. الخ) (وقال النبهانى فى الفتح الكبير ٣/٣٣٥ أنه فى سنن أبى داود وسنن الترمذى) . وروى ابن عمر رضى الله عنه حديثاً بنفس المعنى فى المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٥٦٩٤ ، ٥٦٩٥ ، ٥٨٠٨ ، ٥٩٨٥ .

وذكر النبهانى (فى نفس الصفحة السابقة) حديثا آخر عن ثوبان بنفس المعنى قال إنه فى سنن الترمذى وفى مستدرك الحاكم .

(٢) خبر قتل المسيح صلى الله عليه وسلم للدجال رواه مسلم فى صحيحه فى ثلاثة مواضع من كتاب الفتن ٨/١٧٤ ـ ١٧٥ (باب فى فتح القسطنطينية .. الخ) ، ٨/١٩٨ (باب ذكر الدجال وصفته وما معه) ، ٨/٢٠١ (باب فى خروج الدجال) . والخبر فى سنن أبى داود والترمذى وابن ماجة والمسند .

(٣) التعوذ من شر فتنة المسيح الدجال بعد التشهد الأخير ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء فى أحاديث عن عدد من الصحابة فى صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى . انظر الأذكار للنووى ، ص ٦٤ ؛ المسند (ط . المعارف) ١٤/٢٥٤ ـ ٢٥٥ (رقم ٧٨٥٧) ١٥/١١٣ ـ ١١٤ (رقم ٧٩٥١) .

فتمطر ، وللأرض : أنبتي فتنبت[١] ، وأنه يقتل رجلاً مؤمناً ثم يقول : قم ، فيقوم ، فيقول : أنا ربك ، فيقول له : كذبت بل أنت الأعور الكذاب الذى أخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ما ازددت فيك إلا بصيرة . فيقتله مرتين ويريد أن يقتله فى الثالثة فلا يُسلَّط عليه ، وهو يدعى الإلٰهية[٢] .

وقد بيَّن له النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث علامات تنافى مايدعيه،أحدها : أنه أعور وإن ربكم ليس بأعور . والثانية : أنه مكتوب بين عينيه « كافر » يقرأه كل مؤمن قارىء وغير قارىء[٣] . والثالثة : قوله : « واعلموا أن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت»[٤] .

فهذا هو الدَّجال الكبير ، ودونه دجاجلة : منهم من يدَّعى النبوة ، ومنهم من يكذب بغير ادعاء النبوة ، كما قال صلى الله عليه وسلم: «يكون فى آخر الزمان

---

(١) فى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه الذى رواه مسلم فى صحيحه ١٩٧/٨ (كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عن الدجال : « . . . فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت . . الخ » .

(٢) هذا الخبر جزء من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وهو فى : البخارى ٢٢/٣ (كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة) ؛ مسلم ١٩٩/٨ (كتاب الفتن ، باب فى صفة الدجال وتحريم المدينة عليه .. الخ) .

(٣) وردت أحاديث كثيرة فى صفة الدجال وفى أنه أعور وأنه مكتوب بين عينيه كافر . انظر مثلا حديث أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٩ / ٦٠ (كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال) ؛ مسلم ١٩٥/٨ (كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه) .

(٤) هذه العبارة جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه ١٩٣/٨ (كتاب الفتن ، باب ذكر ابن صياد) ورواه الدارمى فى كتاب « الرد على الجهمية » ص ٥١ . ووردت هذه العبارة فى حديث آخر طويل عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه فى سنن ابن ماجة ٣٦/٢ (كتاب الفتن ، باب فتنة الدجال) . وهى جزء من حديث رواه أحمد عن عبادة بن الصامت فى المسند (ط. الحلبى) ٣٢٤/٥ وفى كتاب « السنة » ، ص ١٣٨ (ط. السلفية ، مكة ، ١٣٤٩) . وأورد فى نفس الكتاب (ص ١٣٨ ـ ١٣٩) حديث أبى أمامة ، كما أورده ابن خزيمة فى كتاب التوحيد ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

دجّالون كذابون يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم»[١] .

كان الحلاج دجالا ووجب قتله

فالحلاج كان من الدجاجلة بلا ريب ، ولكن إذا قيل : هل تاب قبل الموت أم لا ؟ قال[٢] : الله أعلم ، فلا يقول ما ليس له به علم ؛ ولكن ظهر عنه من الأقوال والأعمال ما أوجب كفره وقتله باتفاق المسلمين ، والله أعلم .

---

(١) الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ١/٩ (المقدمة باب فى الضعفاء والكذابين) .

(٢) قال : كذا بالأصل ، وسياق الكلام يدل على أن المقصود : قال المجيب .

رِسَالة فى الرّد على ابن عَربى فى دعوى إيمان فرعَون



ص ١٣٧

هذا سؤال أجاب عنه الشيخ الإمام العلاَّمة الأوحد ، شيخ الإسلام ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبِي القاسم ابن محمد بن تيمية الحرّانى .

ظ ١٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

و به التوفيق

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وسلم .

نص السؤال

ما تقول السادة العلماء رضى الله عنهم فى قول فرعون عند الغرق : ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩٠] هل فيه دليل على إيمانه و إسلامه ؟ وما يجب على من يقول: إنه مات مؤمناً والحالة هذه ؟

الجواب

﴿ الجواب ﴾

الحمد لله .

كفر فرعون ، وموته كافراً ، وكونه من أهل النار هو مما عُلِم بالاضطرار من دين المسلمين ، بل ومن دين اليهود والنصارى ، فإن أهل الملل الثلاثة متفقون على أنه من أعظم الخلق كفراً ، ولهذا لم يذكر الله تعالى فى القرآن قصة كافر كما ذكر قصته فى بسطها وتثنيتها ، ولا ذكر عن كافر من الكفر أعظم مما ذكر من كفره واجترائه وكونه[1] أشد الناس عذاباً يوم القيامة .

فرعون من أعظم الخلق كفراً

ولهذا كان المسلمون متفقين[2] على أن من توقَّف فى كفره ، وكونه من

(١) فى الأصل : وقومه ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : متفقون . وهو خطأ .

أهل النار فإنه يجب أن يُستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل كافراً مرتدًا ، فضلا عمَّن يقول إنه مات مؤمناً .

والشك فى كفره أو نفيُه أعظم منه فى كفر أبى لهب ونحوه ، وأعظم من ذلك فى أبى جهل وعقبة بن أبى مُعَيْط والنضر بن الحارث ونحوهم ممَّن تواتر كفرهم ولم يذكر باسمه فى القرآن ، وإنما ذكر ما ذكر من أعمالهم ، ولهذا لم يظهر عن أحد بالتصريح بأنه مات مؤمنا إلا عمَّن فيه من النفاق والزندقة أو التقليد للزنادقة والمنافقين ماهو أعظم من ذلك ، كالاتحادية الذين يقولون : إن وجود الخالق [هو] وجود الخلق[1] ، حتى يصرِّحون بأن يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً وغيرها من الأصنام هى وجودها وجود الله ، وأنها عُبدت بحق[2] ، وكذلك العجل عُبد بحق ، وأن موسى أنكر على هارون من نهيه عن عبادة العجل[3] ، وأن فرعون كان صادقا فى قوله : أنا ربكم الأعلى ، وأنه عين الحق[4] وأن العبد إذا دعا الله تعالى فعين الداعى عين المجيب ، وأن العالم هويته ، ليس وراء العالم وجود أصلا[5] .

لا يصرح بموته مؤمناً إلا من فيه نفاق وزندقة كالاتحادية

ومعلوم أن هذا بعينه هو / حقيقة قول فرعون الذى قال : ﴿ يا هامانُ

س ١٣٨

---

(١) فى الأصل : إن وجود الخالق ووجود المخلوق . وانظر مقدمة فصوص الحكم للدكتور أبى العلا عفيفى ، ص ٢٤ ـ ٢٨ . وانظر قول ابن عربى فى الفصوص ١ / ٧٩ :

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا — وليس خلقا بذاك الوجه فاذكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته — وليس يدريه إلا من له بصر
جمع وفرق فإن العين واحدة — وهى الكثيرة لاتبقى ولا تذر

(٢) فى الأصل : وأنها عبد بحق. وانظر ماسبق ص ١٦٦ حيث ذكر ابن تيمية نص الفصوص ١ / ٧٢ .

(٣) انظر ما سبق ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، وانظر الفصوص ١ / ١٩٢ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ١٦٧ ، والفصوص ١ / ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٥) انظر ما سبق ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ، ١٦٤ ـ ١٦٦ .

ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [سورة غافر : ٣٥، ٣٦] .

ولقد خاطبت بعض الفضلاء مرة بحقيقة مذهبهم ، وأنه حقيقة قول فرعون فذكر لى رئيس من رؤسائهم أنه لما دعاه إلى هذا القول وبيَّنه قال : قلت له : هذا قول فرعون . فقال له : ونحن على قول فرعون ؛ وما كنت أظن أنهم يُقرُّون أو يعترفون بأنهم على قول فرعون . قال : إنما قلت ذلك استدلالاً ، فلما قال ذلك ، قلت له : مع إقرار الخصم لا يُحتاج إلى بيِّنة .

تفضيل الاتحادية الولى على النبى والرسول

وهم مع هذا الكفر والتَّعطيل الذى هو شرٌّ من قول اليهود والنصارى ، يدَّعون أن هذا العلم ليس إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء الذى يدّعونه ، وأن خاتم الأنبياء إنما يرى هذا العلم من مشكاة خاتم الأولياء ، وأن خاتم الأولياء يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملَك الذى يوحى به إلى خاتم الأنبياء ، وهو فى الشرع مع موافقته له فى الظاهر مشكاة [له] فى الباطن[١] ، ولا يحتاج أن يكون متبعا للرسول لا فى الظاهر ولا فى الباطن[٢] .

وهذا ـ مع أنه من أقبح الكفر وأخبثه ـ فهو من أفسد الأشياء فى العقل ، كما يُقال لمن قال : « فخرَّ عليهم السقف من تحتهم » : لا عقل ولا قرآن ؛

---

(١) فى الأصل : مرآة فى الباطن ، ورجحت أن يكون الصواب ما أثبته .

(٢) انظر الفصوص ١/ ٦١ ـ ٦٤ ، وانظر قول ابن عربى ١ / ٦٢ : « . وهذا هو أعلى عالم بالله ، وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى أن الرسل لا يرونه ـ متى رأوه ـ إلا من مشكاة خاتم الأولياء » . ثم انظر ما ذكره بعد ذلك ١/ ٦٣ : « ... فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين فيكمل الحائط . والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر ـ وهو موضع اللبنة الفضة ، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام . . . وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن ، فإنه أخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول » .

لأن الخرور لايكون من أسفل ، وكذلك الاستفادة ، إنما يستفيد المتأخر من المتقدم .

ثم خاتم الأولياء الذين يدعونهم ، ضلالهم فيه من وجوه ، حيث ظنوا أن للأولياء خاتماً ، وأن يكون أفضلهم قياساً على خاتم الأنبياء ، ولم يعلموا أن أفضل الأولياء من هذه الأمة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وهم السالقون من الأولياء لا الآخرون ، إذ فضل الأولياء على قدر اتّباعهم للأنبياء واستفادتهم منهم علماً وعملاً .

وهؤلاء الملاحدة يدّعون أن الولى يأخذ من الله بلا واسطة ، والنبى يأخذ بواسطة ، وهذا جهل منهم ، فإن الولى عليه أن يتّبع النبى ، ويعرضَ كلّ ما له من محادثةٍ وإلهامٍ على ماجاء به النبى، فإن وافقه وإلا ردّه ، إذ ليس هو بمعصوم فيما يقضى له .

وقد يلبسون على بعض الناس بدعواهم أن ولاية النبى أفضل من نبوته[1] ، وهذا مع أنه ضلال فليس هو مقصودهم ، فهم مع ضلالهم فيما ظنوه من خاتم الأولياء ومرتبته يختلفون فى عينه بحسب الظن وما تهوى الأنفس[2] ،

---

(١) انظر فصوص الحكم ١ / ١٣٤ ـ ١٣٧ وانظر قول ابن عربى ١ / ١٣٥ : « فإذا رأيت النبي يتكلم بكلام خارج عن التشريع فمن حيث هو ولى وعارف ، ولهذا مقامه من حيث هو عالم أتم وأكمل من حيث هو رسول أو ذو تشريع وشرع . فإذا سمعت أحداً من أهل الله يقول أو ينقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوة فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرناه . أو يقول : إن الولى فوق النبي والرسول فإنه يعنى بذلك فى شخص واحد : وهو أن الرسول عليه السلام ـ من حيث هو ولى ـ أتم من حيث هو نبي ورسول ، لا أن الولى التابع له أعلى منه . . » .

(٢) يزعم ابن عربى أنه هو خاتم الأولياء ـ وخاتم الأولياء عنده أفضل من خاتم الرسل ـ فيقول :

أنا ختم الولاية دون شك لورث الهاشمى مع المسيح

وانظر « التصوف الثورة الروحية فى الإسلام » للدكتور أبى العلا عفيفى (ط. المعارف ١٩٦٣) ص ٣١٢ ـ ٣١٤ . وانظر الفتوحات ٢ / ٤٩ (ط . الحلبى) .

لتنازعهم فى تعيين القطب الفرد الغوث الجامع[١] ، ونحو ذلك من/المراتب التى يدّعونها ، وهى/ معلومة البطلان بالشرع والعقل . ثم يتنازعون فى عين الموصوف بها ، وهذا باب واسع .

ظ ١٣٨

والمقصود هنا أن هؤلاء الاتحادية من أتباع صاحب « فصوص الحكم » وصاحب « الفتوحات المكية » ونحوهم ، هم الذين يعظّمون فرعون ، و يدّعون أنه مات مؤمناً ، وأن تغريقه كان بمنزلة غُسل الكافر إذا أسلم ، و يقولون : ليس فى القرآن ما يدل على كفره ، و يحتجّون على إيمانه بقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩٠] .

بطلان حجتهم على إيمان فرعون

وتمام القصة تبين ضلالهم ، فإنه قال سبحانه : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة يونس : ٩١] ، وهذا استفهام إنكار وذم ، ولو كان إيمانه صحيحاً مقبولا لما قيل له ذلك .

وقد قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [سورة يونس : ٨٨] .

---

(١) فى رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربى (طبعت مع التعريفات للجرجانى ، ط . مصطفى الحلبى ، ومع رسائل ابن عربى ، ط . حيدرآباد ، وهى واردة فى الفتوحات) : « القطب ـ وهو الغوث ـ عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام » . وزاد الجرجانى فى التعريفات : « أعطاه (الله) الطلسم » . وأما الغوث فعرفه ابن عربى : « هو واحد فى كل الزمان بعينه إلا أنه إذا كان الوقت يعطى الالتجاء إلى عنايته » . وقال الجرجانى : « هو القطب حينما يلتجأ إليه ولا يسمى فى غير ذلك الوقت غوثا » .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [سورة يونس : ٨٩] ، فاستجاب الله دعوة موسى وهارون ، فإن موسى كان يدعو ، وهارون يؤمّن أن فرعون وملأه لايؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

وقد قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة غافر : ٨٢ ـ ٨٥] ، فأخبر سبحانه وتعالى أن الكفار لم يك ينفعهم إيمانهم حين رأوا البأس ، وأخبر أن هذه سنته التي قد خلت فى عباده ، ليبين أن هذه عادته سبحانه فى المستقدمين والمستأخرين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [سورة النساء : ١٨]

ثم إنه سبحانه وتعالى قال بعد قوله : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [سورة يونس : ٩١ ـ ٩٢] ، فجعله الله تعالى عبرة وعلامة لمن يكون بعده من الأمم لينظروا عاقبة من كفر بالله تعالى ، ولهذا ذكر الله تعالى الاعتبار بقصة فرعون وقومه فى غير موضع .

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ

ص ١٣٩

تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [سورة ق : ١٢ ـ ١٤] ، فأخبر سبحانه أن كل واحد من هؤلاء المذكورين ، فرعون وغيره ، كذّب الرسل كلهم ، إذ لم يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض كاليهود والنصارى ، بل كذّبوا الجميع ، وهذا أعظم أنواع الكفر ، فكل من كذب رسولاً فقد كفر ، ومن لم يصدقه ولم يكذبه فقد كفر ؛ فكل مكذّب للرسول كافرٌ به ، وليس كل كافر مكذباً به ، إذ قد يكون شاكاً فى رسالته ، أو عالما بصدقه لكنه يحمله الحسد أو الكبر على ألا يصدق ، وقد يكون مشتغلا بهواه عن استماع رسالته والإصغاء إليه ؛ فمن وصف بالكفر الخاص الأشدّ ، كيف لا يدخل فى الكفر ؟ !

ولكن ضلالهم فى هذا نظير ضلالهم فى قوله :

مقام النُّبـوَّة فى برزخٍ فُوَيْقَ الرسولِ ودونَ الولى[1]

وقد علم أن كل رسول نبي ، وكل نبي ولىّ ، ولا ينعكس .

وقال سبحانه تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [سورة ص : ١٢ ـ ١٤] . وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [سورة الحاقة : ٩ ، ١٠] .

---

(١) لم أعثر على هذا البيت ولكن وجدت بيتا بمعناه فى كتاب « لطائف الأسرار » لابن عربى (تحقيق أحمد زكى عطية وطه عبد الباقى سرور ، دار الفكر العربى ، ١٣٨٠ / ١٩٦١) ص ٤٩ ونصه :

سماء النبوة فى برزخ دوين الولى وفوق الرسول

وفى الفتوحات المكية ٢ / ٢٥٢ يقول :

بين الولاية والرسالة برزخ فيه النبوة حكمها لا يجهل

وانظر الفتوحات ٢ / ٥٢ ـ ٥٣ .

ثم إن الله تعالى أخبر عن فرعون بأعظم أنواع الكفر : من جحود الخالق ، ودعواه الإلٰهية ، وتكذيب من يقرّ بالخالق سبحانه ، ومن تكذيب الرسول ووصفه بالجنون والسحر وغير ذلك . ومن المعلوم بالاضطرار أن الكفار العرب الذين قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم – مثل أبي جهل وذريته – لم يكونوا يجحدون الصانع ، ولا يدّعون لأنفسهم الإلٰهية ، بل كانوا يشركون بالله ويكذّبون رسوله .

وفرعون كان أعظم كفرا من هؤلاء ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [سورة غافر : ٢٣ ـ ٢٨] ، إلى قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٦ ، ٣٧] . ظ ١٣٩

أخبر الله سبحانه وتعالى أن فرعون ومن ذكر معه قال إن موسى ساحر كذّاب ، وهذا من أعظم أنواع الكفر .

ثم أخبر الله [أنه][1] أمر بقتل أولاد الذين آمنوا معه لينفروا عن

(١) أنه : زيادة يستقيم بها السياق .

الإيمان معه كيداً لموسى . قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] ،فدلّ على أنهم من الكافرين الذين كيدهم فى تباب ، فوصفهم بالتكذيب وبالكفر جميعاً ، وإن كان التكذيب مشتملاً مستلزماً الكفر ، كما أن الرسالة مستلزمة للنبوة ، والنبوة مستلزمة للولاية .

ثم أخبر عن فرعون أنه طلب قتل موسى وقال : ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ، وهذا تنبيه على أنه لم يكن مقرًّا بربه ، ولهذا قال فى تمام الكلام : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [سورة القصص : ٣٨] ، وهذا جحد صريح لإله العالمين ، وهى الكلمة الأولى .

ثم قال بعد ذلك لما ذكره [١] الله تعالى بقوله : ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [سورة النازعات : ٢١ ـ ٢٤] ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [سورة النازعات : ٢٥ ـ ٢٦] . قال كثير من العلماء : أى نكال الكلمة الآخرة ، ونكال الكلمة الأولى ، فنكّل الله تعالى [به] [٢] على الكلمتين باعترافه ، وجعل ذلك عبرة لمن يخشى . ولو كان هذا ممن لم يعاقب على ما تقدم من كفره ، ولم يكن عقابه عبرة ، بل من آمن غفر الله له ماسلف ، ولم يذكره بكفرٍ ولا بذمٍّ أصلاً ، بل يمدحه على إيمانه ، ويثنى عليه كما أثنى على من آمن بالرسل ، وأخبر أنه نجّاهم .

وفرعون هو أكثر الكفار ذكراً فى القرآن ، وهو لايذكره سبحانه إلا

---

(١) الكلمة فى الأصل مطموسة وكذا استظهرتها .
(٢) فى الأصل : فنكامه الله تعالى ، وهو تحريف .

بالذم والتقبيح واللعن ، ولم يذكره بخير قط .

وهؤلاء الملاحدة المنافقون يزعمون أنه مات طاهراً مطهّراً ليس فيه شيء من الخبث ، بل يزعمون أن السحرة صدّقوه فى قوله : ماعلمت لكم من إله غيرى ، وأنه صح قوله : أنا ربكم الأعلى ، وأنه كان عين الحق .

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن جحوده لرب العالمين . قال لما قال له موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٠٤ ، ١٠٥] ، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢٣ـ٢٩][١] ، فتوعد موسى بالسجن إن اتخذ إلهاً غيره . ص ١٤٠

وهؤلاء مع تنظيمهم لفرعون يشاركون فى حقيقة كفره ، وإن كانوا مفارقين له من جهة أخرى ، فإن عندهم : ما ثَمّ موجودٌ غير الله أصلاً ، ولا يمكن أحد[٢] أن يتخذ إلهاً غيره ، لأنه أىّ شيء عبد العابدُ من الأوثان والأصنام والشياطين ، فليست عندهم غير الله أصلا . وهل يُقال هى الله ؟ لهم فى ذلك قولان .

---

(١) فى الأصل لم تذكر الآيات كاملة .
(٢) فى الأصل : أحداً .

إخبار الله عن عذاب فرعون فى الآخرة

وإخباره سبحانه وتعالى عن تكذيب فرعون وغير ذلك من أنواع كفره كثير فى القرآن، وكذلك إخباره عن عذابه فى الآخرة. فإن هؤلاء الملاحدة يزعمون أنه ليس فى القرآن آية تدل على عذابه، ويقولون إنما قال سبحانه: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ [سورة هود: ٩٨]، قالوا: فأخبر أنه يوردهم، ولم يذكر أنه دخل معهم. قالوا: وقد قال: ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر: ٤٦]، فإنما يدخل النارَ آلُ فرعون لا فرعون.

وهذا من أعظم جهلهم وضلالهم، فإنه حيث ذكر فى الكتاب والسنة آل فلان كان فلان داخلاً فيهم، كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٣٣]، وقوله: ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ [سورة القمر: ٣٤]، وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ [سورة الصافات: ١٣٠]. وقول النبى صلى الله عليه وسلم: «اللهمّ صلّ على آل أبى أوْفى»[(١)]، وقوله: «لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود»[(٢)].

---

(١) الحديث متفق عليه عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه فى: البخارى ٢/١٢٩ (كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة) ونصه فيه: «عن عبد الله بن أبى أوفى قال كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان، فأتاه أبى بصدقة، فقال: اللهم صل على آل أبى أوفى». والحديث فى: مسلم ٣/١٢١ (كتاب الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة)؛ التاريخ الكبير للبخارى ٣ / ٢٤؛ الإصابة لابن حجر ٢ / ٤٩٥ (ط. التجارية، ١٣٥٨ / ١٩٣٩).

(٢) الحديث متفق عليه. رواه البخارى ٦/١٩٥ (كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة) ونصه: «عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: ياأبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود». وهو فى مسلم ٢ /١٩٢-١٩٣ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن)؛ الإصابة٢/٣٥٢.

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ [سورة البقرة : ٤٩] ، ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١] ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [سورة القمر : ٤١ ـ ٤٢] .

وقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [سورة غافر : ٤٦] متناولٌ له ولهم باتفاق المسلمين ، وبالعلم الضرورى من دين المسلمين .

وهذا بعد قوله تعالى حكاية عن مؤمن [من] آل فرعون [(١)] يكتم إيمانه : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [سورة غافر : ٢٨] ، والذى طلب قتله هو فرعون ، فقال المؤمن بعد ذلك : ﴿ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ﴾ [سورة غافر : ٤١ ـ ٤٢] ، والداعى إلى الكفر هو كافر كفراً مغلّظاً ، فهذا فيه .

ووصفهم أيضاً بالكفر إلى قوله : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ ١٤٠ [سورة غافر : ٤٥ ـ ٤٦] ، فأخبر أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب . ثم قال : ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا

(١) فى الأصل : عن مؤمن آل فرعون .

كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ [سورة غافر : ٤٧ ـ ٤٨]

ومعلوم أن فرعون هو أعظم الذين استكبروا ، ثم هامان وقارون ، وأن قومهم كانوا لهم تبعاً ، وفرعون هو متبوعهم الأعظم الذى قال : ما علمت لكم من إله غيرى ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

وقد قال : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [سورة القصص : ٣٩ ـ ٤٢] .

وهذا تصريح بأنه نبذه وقومَه فى اليمّ عقوبةَ الذى هو الكفر ، وأنه أتبعه وقومه فى الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين هو وقومه جميعاً ، وهذا موافق لقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [سورة هود : ٩٦ ـ ٩٩] .

فأخبر سبحانه أنهم اتبعو أمره ، وأنه يقدمهم لأنه إمامهم ، فيكون قادماً لهم لا سائقاً لهم ، وأنه يوردهم النار . فإذا كان التابع قد ورد النار فمعلوم أن القادم الذى يقدمه وهو متبوعه ورد قبله ، ولهذا قال بعد ذلك : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [سورة القصص : ٤٢] .

والتابع والمتبوع كما قال الله تعالى فى تلك السورة عن فرعون وقومه : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [سورة هود : ٩٩] .

والكلام فى هذا مبسوط ، لم تحتمل هذه الورقة إلا هذا ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تم وكمل .

رسالة في التوبة

﴿ فصـــل ﴾[1]

ص ٧٠

قال الإمام العلامة شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية رحمه الله :

بعض آيات التوبة فى القرآن

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يَهْدِهِ الله فلا مُضِلّ له ، ومن يُضْلِل فلا هادى [له][2] . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحقّ ليُظهِرَهُ على الدِّين كلّه ، وكفى بالله شهيداً . صلى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً .

قال الله تعالى : ﴿ الٓرٰ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [سورة هود : ١ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن

---

(١) فى أول الصفحة كتب العنوان الآتى : سبب البقاء فى الجنة وهو الصلاة .
(٢) له : ساقطة من الأصل .

يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ﴾ الآيات [سورة الزمر : ٥٣ ـ ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ الآية [سورة التحريم : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة التوبة : ١١٧، ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة : ٣٥ ـ ٣٧] .

وقال تعالى فى السورة الأخرى : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢] . ظ ٧٠

وقال تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ الآية [سورة نوح : ١٠ ، ١١] .

وقال عن نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة هود : ٤٧] ، وعن هود : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ [سورة هود : ٥٢] ، وعن صالح : ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [سورة هود : ٦١] ، وكذلك قال شعيب : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [سورة هود : ٩٠] . وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [سورة إبراهيم : ٤١] ، وقال : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [سورة الشعراء : ٨٢] ، وقال : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة البقرة : ١٢٨] . وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة القصص : ١٥ ، ١٦] ، وقال موسى : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥١] ، وقال موسى : ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] .

وقال تعالى لموسى : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة النمل : ١٠ ، ١١] ، وقال موسى : ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِىَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٥٥ ـ ١٥٧] .

وقال لخاتم الرسل : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] ، وقال : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [سورة الفتح : ١ ، ٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٢٢] .

وقال : ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة غافر : ١ ـ ٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [سورة الشورى : ٢٥ ، ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [سوره التوبة : ١٠٢ ـ ١٠٦] .

بعض الأحاديث في التوبة

وفى صحيح مسلم عن أبى بُرْدَةَ عن الأغرّ عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناسُ توبوا إلى اللهِ ، فإنى أتوب إليه فى اليوم

مائة مرة »[(١)] . وعن أبي بردة عن الأغر المزنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليُغَانُ على قلبي ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[(٢)] . وقال : « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[(٣)] . وقال : « إن اللهَ تعالى يبسط يده بالليلِ ليتوبَ مُسىءُ النهار ، ويبسطُ يدَه بالنهارِ ليتوبَ مسىءُ الليلِ حتى تطلعَ الشمسُ من مَغْرِبِها »[(٤)] . وقال : « من تاب قبلَ أنْ تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها تاب الله عليه»[(٥)] . وقال : « للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه مِنْ أحدِكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيِسَ منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلِّها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده ،

---

(١) الحديث فى مسلم ٨/٧٢ ـ ٧٣ (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه) ونصه : « .. عن أبى بردة قال سمعت الأغر ـ وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ـ يحدث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم إليه مائة مرة » . وفى نسخة : « . . فى اليوم مائة مرة » .

(٢) الحديث فى مسلم ٨/٧٢ (نفس الكتاب والباب) ؛ سنن أبى داود ٢/١١٣ (كتاب الوتر ، باب فى الاستغفار) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٤/٢١١ .

(٣) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : البخارى ٨/٦٧ (كتاب الدعوات ، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم فى اليوم والليلة) ؛ سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٢ / ١٤٤ ، (كتاب التفسير ، سورة محمد) ؛ المسند . (ط . الحلبى) ٢ / ٢٨٢ ، ٣٤١ .

(٤) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : مسلم ٨/٩٩ـ ١٠٠ (كتاب التوبة ، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة) ؛ المسند (ط .الحلبى) ٤/٣٩٥ ؛ الترغيب والترهيب للمنذرى ٥/٤٩ وقال : رواه مسلم والنسائى .

(٥) الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم ٨/٧٣ (كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار) ؛ المسند (ط . المعارف) ١٤/١٢٩ (رقم ٧٦٩٧) ، (ط . الحلبى) ٢/٣٩٥ ، ٤٢٧ ، ٤٩٥ .

فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدّة الفرح »[١] .

وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنُّعمان بن بشير ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك[٢] .

ففى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للهُ أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دَوِّيَّة مَهْلَكَةٍ[٣] ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزادُه وما يُصلحه ، فأضلَّها ، فخرج فى طلبها ، حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها قال : أرجع إلى مكانى الذى أضللتُها فيه فأموت فيه . فأتى مكانه فغلبته عينُه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه»[٤] . وفى السنن أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كلّ بنى آدمَ خطّاء ، وخير الخطائين التوّابون »[٥] . وقال : « إن العبد إذا أذنب

---

(١) الحديث بهذا اللفظ مروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى مسلم ٨/٩٣ (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة والفرح بها) . وانظر : جامع الأصول لابن الأثير ٣/٦٦.

(٢) انظر : جامع الأصول ٣/٦٣ ـ ٦٧ .

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر فى شرحه للحديث : المسند (ط . المعارف) ٥/٢٢٥ : « دوية : بفتح الدال وتشديد الواو المكسورة وتشديد الياء المفتوحة ، قال ابن الأثير : الدو : الصحراء ، والدوية منسوبة إليها ، وقد تبدل من إحدى الواوين ألف فيقال : داوية على غير قياس ، نحو طائى فى النسب إلى طى . مهلكة : بفتح الميم واللام : أى موضع الهلاك ، أو الهلاك نفسه ، وتفتح لامها وتكسر ، وهما أيضا المفازة ، قاله ابن الأثير . ونقل الحافظ فى الفتح أن فى بعض نسخ البخارى : بضم الميم وكسر اللام من الرباعى ، أى تهلك هى من يحصل فيها » . وانظر : النهاية فى غريب الحديث : مادة « دوا » ومادة « هلك » .

(٤) الحديث فى : البخارى ٨/٦٧ ـ ٦٨ (كتاب الدعوات ، باب التوبة) ؛ مسلم ٨/٩٢ (كتاب التوبة ، باب فى الحض على التوبة والفرح بها) ؛ المسند (ط . المعارف) ٥/٢٢٥ ـ ٢٢٦ (رقم ٣٦٢٧) .

(٥) الحديث مروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى : الترمذى (بشرح ابن العربى) =

نُـكتت فى قلبه نـكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلـكم الرَّانُ الذى ذكر الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين : ١٤] »[١].

وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [سورة النجم : ٣٢] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن تغفرِ اللهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وأىُّ عَبْدٍ لك لا أَلَمَّا »[٢]

ظ ٧١

وعن ابن عمر قال : إن كنا لنعد / لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفرلى وتب علىَّ إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة . رواه أحمد والترمذى وقال : حديث صحيح[٣].

= ٣٠٨/٩ (أبواب صفة القيامة ، باب المؤمن يستثقل ذنوبه والتوبة) ؛ سنن ابن ماجة ١٤٢٠/٢ (رقم ٤٢٥١) ؛ سنن الدارمى ٢ / ٣٠٣ ؛ المستدرك للحاكم ٢٤٤/٤ . وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وانظر : جامع الأصول ٧٠/٣ ؛ الترغيب والترهيب ٥ / ٥٢ .

(١) رواه المنذرى بألفاظ مقاربة فى الترغيب والترهيب ١٢٩/٣ ، ٥٣/٥ ، وقال : « رواه الترمذى وصححه والنسائي وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه والحاكم ــ واللفظ له ــ من طريقين قال فى أحدهما : صحيح على شرط مسلم . ولفظ ابن حبان وغيره : إن العبد إذا أخطأ خطيئة ينـكت فى قلبه نـكته ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، الحديث » . والحديث فى سنن ابن ماجة ٢ / ١٤١٨ (كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب) .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٢ / ١٧٢ ــ ١٧٣ (كتاب التفسير ، سورة النجم) ونصه : « حدثنا أحمد بن عثمان البصرى حدثنا أبو عاصم عن زكريا ابن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس : (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفرجما وأى عبد لك ما ألما

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق » . وانظر : الدر المنثور للسيوطى ١٢٧/٦ .

(٣) الحديث فى : سنن أبى داود ١١٣/٢ (كتاب الوتر ، باب فى الاستغفار) ؛ المسند (ط . المعارف) ٣٢٨/٦ (رقم ٤٧٢٦) وانظر أرقام : ٥٣٥٤ ، ٥٥٦٤ ؛ سنن ابن ماجة ١٢٥٣/٢ (كتاب الأدب ، باب الاستغفار) .

﴿ فصـــل ﴾

التوبة نوعان : واجبة ومستحبة .

التوبة نوعان واجبة ومستحبة

فالواجبة هى التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى ألسنة رسله .

الواجبة من ترك مأمور أو فعل محظور

والمستحبة هى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقرّبين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين قال الله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَـٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [سورة الواقعة : ٧ ـ ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [سورة الواقعة : ٨٨ ـ ٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [سورة فاطر : ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [سورة الإنسان : ٣ ـ ٦] ، وقال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ

والمستحبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات

كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [سورة المطففين : ٧ ـ ٢٨]،
قال ابن عباس : تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقربون صِرْفاً .

والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه . فالتوبة المشروعة هى الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .

التوبة من ترك الحسنات أهم من التوبة من فعل السيئات

ص ٧٢

وقد أمر / الله عباده المؤمنين أن يدعوه فى كل صلاة بقوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ . ولهذا نزّه الله نبيه عن هذين ، فقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [سورة النجم : ١ ـ ٤] ، فالضال الذى لا يعلم الحق ، بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به ، كما عليه النصارى . قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] .

والغاوى الذى يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق ، كما

عليه اليهود . قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [سورة الأعراف ١٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦] .

الغي والضلال يجمعان جميع السيئات

وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغيّ فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن »[١] . فإن الغيّ والضلال يجمع جميع سيئات بنى آدم ، فإن الإنسان كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سورة الأحزاب : ٧٢] ، فبظلمه يكون غاوياً ، وبجهله يكون ضالاً ، وكثيرا ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالاً فى شىء غاويا فى شىء آخر ، إذ هو ظلوم جهول ، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر ، كما قال : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [سورة البقرة : ١٠] ، وكما قال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [سورة الصف : ٥] .

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى ، فإذا عمل بعلمه ورّثه الله علم مالم يعلم ، وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ

---

(١) الحديث عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٤٢٠ من طريقين ، ولفظ الأولى : « حدثنا عبدالله ، حدثنى أبى ، ثنا يونس ، ثنا أبو الأشهب ، عن على بن الحكم ، عن أبى برزة الأسلمى ـ قال أبو الأشهب : لا أعلمه إلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن مما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن » . وفى الطريق الثانية (نفس الصفحة) : « .. عن أبى برزة عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن مما أخشى ... ومضلات الهوى » . ورواه الهيثمى فى الزوائد ٧/٣٠٥-٣٠٦ وقال : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [سورة مريم : ٧٦] ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [سورة العنكبوت : ٦٩] ، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء ٦٦ــ٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩] .

ظ ٧٢ وهو صلى الله عليه وسلم ذكر شهوات الغيّ في / البطون والفروج ، كما في الصحيح أنه قال : « من تكفل لي بما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة »[1] . فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب ، لكن يفعلونه اتباعاً لشهواتهم .

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ولكن روى البخاري الحديث بألفاظ أخرى في موضعين من صحيحه الأول ٨ / ١٠٠ (كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان) عن سهل بن سعد رضي الله عنه ونصه : « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » ، والثاني ٨ / ١٦٤ (كتاب المحاربين ، باب فضل من ترك الفواحش) عن سهل أيضا وأوله : « من توكل لي . . الخ » . وذكر المنذري في الترغيب والترهيب ٤ / ٦١ – ٦٢ عدة روايات للحديث عن سهل بن سعد وعن أبي هريرة وعن أبي رافع وأبي موسى رضي الله عنهم وذكر أنه قد رواه البخاري والترمذي والطبراني وأبو يعلى . وشرح المنذري الحديث فقال : « المراد بما بين لحييه : اللسان ، وبما بين رجليه : الفرج ، واللحيان : هما عظم الحنك » . والحديث عن سهل رضي الله عنه في المسند (ط . الحلبي) ٥ / ٣٣٣ وأوله : « من توكل لي . . الخ » . وذكر النبهاني في « الفتح الكبير » ٣ / ٢٤٦ أن الحديث رواه ابن حبان والحاكم أيضا . وهو في سنن الترمذي (بشرح ابن العربي) ٩/٢٤٨ (كتاب الزهد ، باب ما جاء في حفظ اللسان) بلفظ : « من يتكفل لي . . . اتكفل . . الخ » .

وأما مضلات الفتن ، فأن يُفتَنَ العبدُ فيضلّ عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد ، كما قال : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] ، وقال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [سورة فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] ، وقال : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [سورة الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤] .

ولهذا تأوّل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فيمن يتعبد بغير شريعة الله التي بعث بها رسوله ، من المشركين وأهل الكتاب كالرهبان ، وفي أهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، وقال فيهم : « يَحْقِرُ أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يَمْرُقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة . أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة »[1] . وذلك لأن هؤلاء خرجوا عن سنة رسول

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ولكن جاء الحديث في البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرتين تتضمنان أكثر الألفاظ الواردة هنا ، الأولى ٤/٢٠٠ (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة) ولفظها : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة ــ وهو رجل من بني تميم ــ فقال : يارسول الله : اعدل . فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . فقال عمر : يارسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه . فقال : دعه ، فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . . الخ الحديث » . والرواية الثانية ٤ / ٢٠٠ ــ ٢٠١ ونصها : « يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يمرقون من الإسلام =

الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين حتى كفّروا من خالفهم مثل عثمان وعلى وسائر من تولاهما من المؤمنين ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم : « يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان »[(١)] .

وإذا اجتمع شهوات الغيّ ومضلات الفتن قوى البلاء ، وصار صاحبه مغضوبا عليه ضالاً . وهذا يكون كثيراً ، بسبب حب الرئاسة ، والعُلوّ فى الأرض ، كحال فرعون . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص : ٤] ، فوصفه بالعُلوّ فى الأرض والفساد . وقال فى آخر السورة : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة القصص : ٨٣] ، ولهـذا قال فى حق فرعون : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [سورة غافر : ٣٧] .

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية ، كما قال شدّاد بن أوسٍ رضى الله

= كما يمرق السهم من الرمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجرا لمن قتلهم يوم القيامة » .

وجاء الحديث عن الخوارج فى البخارى فى مواضع أخرى ، وأفرد لهم مسلم أبوابا فى صحيحة ٣ / ١٠٩ ـ ١١٧ (كتاب الزكاة : باب ذكر الخوارج وصفاتهم ، وباب التحريض على قتل الخوارج ، وباب الخوارج شر الخلق والخليقة) . كما وردت الأحاديث عنهم فى سنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارى وفى المسند فى مواضع . وانظر مسند أبى سعيد الخدرى (ط . الحلبى) ٣ / ٣٣ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٣ . وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١٠ / ٤٣٢ ـ ٤٤٢ ؛ مفتاح كنوز السنة : الخوارج .

(١) هذا جزء من حديث عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رواه البخارى ٤/١٣٧ (كتاب الأنبياء ، باب قول الله عزوجل : وأما عاد فأهلكوا .. الآية) ؛ ومسلم ٣/١١٠ (كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم) ؛ أبو داود ٤ / ٣٣٥ (كتاب السنة ، باب فى قتال الخوارج) .

عنه : « يابغايا العرب ! يا بغايا العرب ! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية» . قيل / لأبى داود السجستانى : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة [١] . وحبُّكَ الشىء يُعمِى ويُصِمّ ، فيبقى حب ذلك يزيِّن له ما يهواه ، مما فيه علو نفسه ، ويبغِّض إليه ضد ذلك ، حتى يجتمع فيه الاستكبار ، والاختيال ، والحسد الذى فيه بغض نعمة الله على عباده ، لا سيما من مناظره .

س ٧٣

والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأوَّلين والآخرين ، وهما أعظم الذنوب التى بها عُصِىَ الله أولاً . فإن إبليس استكبر وحسد آدم ، وكذلك ابن آدم الذى قتل أخاه حسد أخاه . ولهذا كان الكبر ينافى الإسلام ، كما أن الشرك ينافى الإسلام . فإن الإسلام هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، كحال فرعون وملإه . ولذلك

---

(١) لم أجد هذا الأثر بهذا اللفظ ، ولكن أورد أحمد فى مسنده (ط . الحلبى) ٤ / ١٢٣ ـ ١٢٤ حديثا عن شداد بن أوس رضى الله عن النبى صلى الله عليه وسلم جاء فيه : « . . . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية . قال : قلت : يارسول الله ، أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : نعم ، أما أنهم لايعبدون شمساً ولا قمراً ، ولا حجراً ولا وثنا ، ولكن يراءون بأعمالهم . والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » . وجاء الحديث عن شداد مرة أخرى يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم بألفاظ مختلفة ٤ / ١٢٥ ـ ١٢٦ . وروى الحديث بألفاظ مختلفة عن شداد رضى الله عنه ابن ماجة فى سننه ٢ / ١٤٠٦ (كتاب الزهد ، باب الرياء والسمعة) . وذكر المنذرى فى الترغيب والترهيب ١ / ٣٣ ـ ٣٥ عدة روايات الحديث وقال إن الحديث رواه أحمد والبيهقى والحاكم وابن ماجة وتكلم على رواياته المختلفة

كما ذكر بعد ذلك ٤ / ٥٠ حديثا عن عبدالله زيد لفظه : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يابابغايا العرب يابابغايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية » ثم قال : « رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح ، وقد قيده بعض الحفاظ : الريا ، بالراء والياء » .

وانظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٢ / ٦٨٦ .

قال لهم موسى : ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة الدخان : ١٩] ، وقال تعالى عن فرعون : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [سورة القصص : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة النمل : ١٤] .

ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذى على ملة إبراهيم الذى قال له ربه : أسْلِمْ ، قال : أسلمتُ لربِّ العالمين .

وهذ الإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، كما وصف الله به فى كتابه نوحاً وإبراهيم وموسى و يوسف وسليمان وغيرهم من النبيين ، مثل قول موسى لقومه : ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٨٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ [سورة المائدة : ٤٤] ، وقال نوح عليه السلام : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة يونس : ٧٢] .

وقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠١] وقالت بلقيس : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة النمل : ٤٤] .

الغى فى شهوات الرئاسة والكبر والعلو

وليس الغىّ مختصا بشهوات البطون والفروج فقط ، بل هو فى شهوات البطون والفروج وشهوات الرئاسة والكبر والعُلوّ وغير ذلك . فهو اتّباع

الهوى وإن لم يعتقد أنه هوى ، بخلاف الضالّ ، فإنه يحسب أنه يحسن صنعا ، ولهذا كان إبليس أوّلَ الغاوين ، كما قال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦، ١٧] ، وقال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [سورة القصص : ٦٢ ، ٦٣] .

وقد قال تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٩٤ ، ٩٥] .

وإنما فى الحديث مايخاف على هذه الأمة من الغىّ ، وهو شهوات الغىّ فى البطون والفروج . فأما الغىّ الذى هو / الاستكبار عن اتّباع الحق ، فذاك أصل الكفر ، فصاحبه ليس من هذه الأمة ، كإبليس وفرعون وغيرها . وأما غىّ شهوات البطون والفروج ، فذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون ، كما قال : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢] .

ظ ٧٣

وفى السنن والمسند من حديث ليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إن إبليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم . فقال له ربه عز وجل : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » [(١)] .

﴿ فصـــل ﴾

وجميع ما يتوب العبد منه ، سواء كان فعلاً أو تركاً ، قد لا يكون كان عالما بأنه ينبغى التوبة منه ، وقد يكون كان عالمـاً بذلك . فإن الإنسان كثيراً ما يكون غير عالم بوجوب الشىء أو قبحه ، ثم يتبين له فيما بعد وجوبُه أوقبحه . وقد يكون عالماً بوجوبه أو قبحه، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب ، أو قوة المقتضى لفعل القبيح. لـكن هذا لا يكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه ، وإلا فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة فى الطرفين ؛ ولهذا قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [سورة النساء : ١٧].

العصيان يقع مع ضعف العلم

قال أبو العالية : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب [(٢)] .

---

(١) الحديث بهذا اللفظ عن أبى سعيد رضى الله عنه فى المسند (ط . الحلبى) ٣/٢٩.

(٢) روى ابن جرير فى تفسيره ٨ / ٨٩ (ط . المعارف) عن أبى العالية : أنه كان يحدث : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : كل ذنب أصابه العبد فهو بجهالة . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ٢/١٣٠ ، وقال : أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر .

وأما بقية الأثر فرواها بمعناها ابن جرير فى تفسيره ٨ / ٩٤ ـ ٩٥ عن الضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم . وانظر : الدر المنثور ، نفس الصفحة .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام : ٥٤] .

والمؤمن لايزال يخرج من الظلمات إلى النور ، ويزداد هدى ، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك ، فيتوب مما تركه وفعله . والتوبة تصقل القلب وتجلّيه مما عرض له من رين الذنوب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا أذنب نُكِتت فى قلبه نُكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الرّان الذى قال الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة المطففين : ١٤] »[١] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إنه لَيُغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[٢] .

التوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات

ص ٧٤

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات ، فإن من ترك واجباً أو فعل قبيحاً يعتقد وجوبه وقبحه ، كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح ، فلا يكون فى فعله وتركه ثابت الدواعى والصوارف ، بل تكون دواعيه / وصوارفه متعارضة . ولهذا يكون الغالب على هذا التلوّم ، وتكون نفسهم لوّامة ، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه ؛ وتارة يتركون القبيح ، وتارة يفعلونه ، كما تجده فى كثير من فسّاق القبلة الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى ، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٢٦ ت ١ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٢٤ ت ٢ .

أخرى ، لتعارُض الإرادات فى قلوبهم ، إذ معهم أصل الإيمان الذى يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح ، ومعهم من الشبهات والشهوات ما يدعوهم إلى خلاف ذلك .

وأما ما فعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه ، وتَرَكَهُ مع اعتقاد تحريمه ، فهذا يكون ثابت الدواعى والصوارف ، أعظمَ من الأول بكثير . وهذا تحتاج توبته[1] إلى صلاح اعتقاده أولا وبيان الحق . وهذا قد يكون أصعب من الأول ، إذ ليس معه داع إلى أن يترك اعتقاده ، كما كان مع الأول داع إلى أن يترك مراده . وقد يكون أسهل إذا كان له غرض فيما يخالف موجب الاعتقاد ، مثل الآصار والأغلال التى على أهل الكتاب ، وإذلال المسلمين لهم ، وأخذ الجزية منهم ، مع مخالفة المسلمين له ؛ فهذا قد يكون داعياً إلى أن ينظر فى اعتقاده : هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق ، وقد يكون أيضا مرغِّباً له فى اعتقادٍ يخرج به من هذا البلاء .

الاعتقاد والإرادة يتعاونان

وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر فى محاسن الإسلام . فللرغبة والرهبة تأثير عظيم فى معاونة الاعتقاد ، كما للاعتقاد تأثير عظيم فى الفعل والترك . فكل واحد من العلم والعمل ، من الاعتقاد والإرادة ، يتعاونان . فالعلم والاعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه، والإرادة رغبة ورهبة ، والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل ، كما يقال : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

وفى القرآن شواهد هذا متعدّدة ، فى مثل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٦٦-٦٨] .

---

(١) فى الأصل تحتاج إليه توبته . . الخ .

وفى قوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحديد : ٢٨] ، وغير ذلك .

فإذا كان الإنسان معاقباً على الاعتقاد كما يُعاقب الكفار على كفرهم، كانت التوبة منه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٥] . ظ ٧٤

فأما الاعتقاد المغفور : كالخطأ والنسيان الذى لا يؤاخذ الله به هذه الأمه ، كما فى قوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[سورة البقرة :٢٨٦] . وقد ثبت فى الصحيح أن الله قد فعل ذلك[1] . وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[2] . فهذا

---

(١) انظر الكلام عن هذا الحديث برواياته المتعددة فى تفسير الطبرى (ط . المعارف ٦ / ١٠٣-١٠٥ ، ١٤٢ ـ ١٤٦ . وانظر الحديث بمعناه فى : مسلم ١ / ٨٠-٨١ (كتاب الإيمان ، باب بيان قوله تعالى : وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه) ؛ المسند (ط. المعارف) ٣ / ٣٤١ ـ ٣٤٢ (رقم ٢٠٧٠) ٥ / ٣٠ ـ ٣١ (رقم ٣٠٧١) ؛ سنن الترمذى ١١١ / ١١٢ ـ ١١٣ (كتاب التفسير ، سورة البقرة) .

(٢) الحديث عن عمرو بن العاص رضى الله عنه فى : البخارى ٩ / ١٠٨ (كتاب الاعتصام ، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ) ؛ مسلم ٥ / ١٣١ ـ ١٣٢ (كتاب الأقضية ، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأساب أو أخطأ). ولفظ الحديث فيهما : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » . وجاء الحديث بلفظ آخر عن عبد الله بن عمرو عن أبيه رضى الله عنهما فى المسند (ط. المعارف) ١١/٣٩-٤٠ (رقم ٦٧٥٥) وفى مسند عمرو (ط. الحلبى) ٤ / ٢٠٥ . وقال الشيخ أحمد شاكر فى تعليقه ١١ / ٤١ : ورواه الدارقطنى (ص ٥١٠) والحاكم (٤ : ٨٨) .

قد يقال فى مثله : إن قيل إنه يُتاب منه فكيف يتاب ممّا لا ذم فيه ولا عقاب ؟ وإن قيل : لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان إلى الحق إذا تبين له ؟

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره ، لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به فى نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ، إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره فى طلبه .

وأيضا ، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ما هو منهى عنه فى نفس الأمر ، لكن سقط عنه النهى لعدم قدرته على معرفة قبحه . والتكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يُكَلَّف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه ، والناسى والمخطىء كذلك . لكن إذا تجدد له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه ، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه . وصار فى هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب ، وعلى ترك اتّباع ما تبين له من العلم .

وأيضا ، فما دام غير مستيقن للحق فهو مأمور بطلب العلم الذى يبين له الحق . والمعتقد المخطىء لا يكون مستيقناً قط ، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته ، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه ، فهو إذا رأى الشىء يقينا يعلم أنه رآه ، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه وأما إذا لم يكن مستيقناً فإنه لا يجد ما يجده العالم ، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد ما يجده الرائى ، وإنما يكون عنده [1] ظن ونوع إرادة توجب إعتقاده .

---

(١) فى الأصل : عند .

هذا هو الذى يجده بنو آدم فى نفوسهم كما قال سبحانه : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [سورة النجم . ٢٣] . وإذا كان الإنسان مأمورا بطلب العلم الذى يحتاج إليه بحسب إمكانه ، وهو إذا لم يجد العلم اليقينى يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد ، فإن تَرَكَ ما أمر به كان مستحقًّا للذم والعقاب على ذلك . فإذا تبين له الحق وعَلِمَه ، وعلم أنه كان جاهلا به معتقداً غير الحق كان تائبا ، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق ، وإن كان الله قد عفى عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك ، وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولا من تفريط فى طلب الحق ، فكثير من خطأ بنى آدم من تفريطهم فى طلب الحق لا من العجز التام . وكان أيضاً تائباً من اتّباع هواه أولاً بغير هدى من الله ، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتّباع الظن المخطىء هو هواه ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ﴾ . وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزا عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذى لا يطيق القيام إذا قدر عليه بعد ذلك ، وكالخائف إذا أَمِن ، وكالمصلى بتيمّم ، ونحو هؤلاء .

ص ٧٥

وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجهة الكمال ثابتةً فى قلوبهم ، وقد عملوا ما يقدرون عليه من المراد ، وإنما تركوا تمامه لعجزهم ـ كان لهم مثل ثواب الفاعل ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى : « إذا مرض العبد أو سافر كُتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[1] . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحديث عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى : البخارى ٤ / ٥٧ (كتاب الجهاد ، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل فى الإقامة) ولفظه : « إذا مرض العبد أو =

قال : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر »[١] .

وقد قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة النساء : ٩٥] ، فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل ، واعتقاد الأمر به ، وإرادة فعله بحسب الإمكان ، وهذا كله من أدائهم للمأمور به ، فإذا تجددت لهم قدرة لم يتجدد رغبة فى الفعل الكامل ، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة، وإن كان لابد لهذا الفعل من إرادة تخصه ، ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا فى هذه الحال فقط ، كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض ، وكما يؤمر الصبي بما يجب عليه عند بلوغه ، وكما يؤمر المزكِّى بالزكاة بعد ملك النصاب والحَوْل ، والمصلِّى بالصَّلاة بعد دخول الوقت .

وأما الناسى والمخطىء فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة ، فلا يثاب على هذه الأمور التى لم تكن له ، بل يكون الذى حصل له ذلك أفضلَ منه بها ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٩] ، فنفى المساواة بين الذى يعلم والذى لا يعلم مطلقاً ، لم يستثن المعذور كما استثنى فى تفضيل المجاهد على القاعد المعذور .

وكذلك سائر ما فى القرآن من نحو هذا ، كقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى

= سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا » . وهو فى مسند أبى موسى (ط . الحلبى) ٤ / ٤١٨ مع اختلاف يسير فى اللفظ .

(١) الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن أنس رضى الله عنه فى : البخارى ٤/٢٦ (كتاب الجهاد ، باب من حبسه العذر عن الغزو) ؛ وعن جابر رضى الله عنه فى : مسلم ٦ / ٤٩ (كتاب الإمارة ، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر) ولفظ مسلم كلفظ الحديث هنا إلا أن فيه: حبسهم المرض .

الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ ﴾ [سورة فاطر : ١٩ - ٢٢]، وقوله : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ [سورة هود : ٢٤] ، وقوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الأنعام : ١٢٢] .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ، لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهاده كأجر القادر عليه ، كما جعل للمريض والمسافر مثل ثواب الصحيح المقيم ، كما جعل المعذور من القاعدين عن الجهاد الذى تمت رغبته/ بمنزلة المجاهد ، فإن الأصل هو القلب ، والبدن تابع . فالمستويان فى عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه متماثلان ، بخلاف المتفاضلين فى عمل القلب : علمه وإرادته وما يتبع ذلك ، فإنهما لا يتماثلان . ولهذا يُعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه . ظ ٧٥

وإن قيل : إن ذلك تكليف ما لا يطاق ، ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين ، فهو يعاقب على ترك ما أُمر بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه ، وليس هو معاقباً على ترك ما عجز عنه بدنه ، كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما . ونفسه إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله و [لا] تريده لتفريطه وتعديه ، إذ آيات ذلك الحق ظاهره[1] وهو محبوب ، وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التى تتضمن القوة على معرفة

(١) العبارة فى الأصل مضطربة كما يلى : « ونفسة إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله وتريده لتفريطه وتعديه إذا تاب ذلك الحق ظاهرة . . الخ » . وأرجو أن يكون الصواب ما أثبته .

هذا الحق وعلى محبته ، ولـكن غيّر فطرته بما يقلّده عن غيره ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبوه يهوّدانه وينصّرانه ويُمجّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟! »[1]. وإذا كان قد خُلق على الصحة والسلامة ، فهو يستحق العقوبة على ما غـيَّره من خلق الله بتفريطه وعدوانه ، لا تبّاعه الظنّ وما تهوى الأنفس .

وقد بعث الله الرسل مبشّرين ومنذّرين ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : ١٥] ، وهذا ممّا يظهر به الفرق بين المجتهد المخطىء والناسى من هذه الأمة فى المسائل الخبرية والعملية ، و بين المخطىء من الـكفّار والمشركين وأهل الـكتاب الذى بلغته الرسالة ، إذا قيل إنه غير معاند للحق ، فإن ذاك لا يكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه ، لا يُتصور أن يجتهد فيـكون مخطئاً فى الإيمان بالرسول ، بل متى اجتهد — والاجتهـاد استفراغ الوُسع فى طلب العلم بذلك — كان مصيباً للعلم به بلا ريب .

فإن دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه فى نهاية الـكمال والتمام الذى يشمل كل من بلغته ، ولا يترك أحد قط اتّباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب ، بخلاف كثير من تفصيل ما جاء به ، فإنه قد يعزب علمه عن كثير

---

(١) ذكرت من قبل (ص ١١ ت ٣) أن هذا الحـديث جـاء بتمامه فى منهاج السنة ٢ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥ حيث تكلمت عن طرقه وموضعه فى الصحاح ، وحيث نقلت عن النووى شرحه للحديث (شرح مسلم ١٦ / ٢٠٩) وفيه : « (جمعاء) بالمد ، أى مجتمعة الأعضاء ، سليمة من نقص ، لا يوجد فيها (جدعاء) بالمد ، وهى مقطوعة الأذن أوغيرها من الأعضاء . ومعناه أن البهيمة تلد البهيمة كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها » .

من خواص الأمة وعوامِّها ، بحيث لا يكونون فى ترك معرفته لا مقصِّرين ولامفرِّطين فلايعاقبون بتركه ، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً مجملا فى إيمانهم بماجاء به الرسل ، فهم آمنوا به مجملا ومعهم أصول الايمان به ، كما أن الفاسق معه[1] الدواعى لفعل المأمور وترك المحظور .

فلهذا كان المخطىء بالتأويل من هذه الأمة ، والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد ، كل منهما محسناً من وجه مسيئاً من وجه ، وليس واحد منهما كالكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وإن كانوا فى ذلك على درجات متفاوتة ، بل كل منهما ليس تاركا لما أُمِر به من الاعتقاد والعمل مطلقا / ولا فاعلا لضده مطلقاً ، ص ٧٦ بل المتأوِّل قد آمن إيمانا عاما بكل ما جاء به الرسول ، واستسلم لكل ما أمره به . وهذا الإيمان والإسلام يتناول ما جهله ، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصَّل إذا علمه ، لكن عارض ذلك مِنْ جهله وظلمه لنفسه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذَّباً به .

ولذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو [داع له إلى][2] فعل الأصل المأمور به وداعٍ له إلى تركه ، لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته ، بخلاف المكذِّب للرسول صلى الله عليه وسلم والكافر به ، فإنه لم يصدِّق بالحق ولم يستسلم له لا جملةً ولا تفصيلاً ، لكن قد يكون ما اتّبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به ، فهذا واقع ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ [سورة الكهف : ١٠٠،١٠١] ،

---

(١) ق الأصل : مع .

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة يقتضيها السياق .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ [سورة هود : ١٨ ـ ٢٠] .

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه ، ومن كان تركه للمأمور بذنبٍ منه ، أو ضرورتُه إلى المحظور بذنب منه ـ لم يكن ذلك مانعاً من ذمِّه وعقابه ، ومن هذا قوله سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٨٨] ، وقال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء : ١٥٥] .

وبهذا يظهر ضعف قول طائفة من المتكلمين الذين يقولون : الخطأ والإثم يتلازمان . ثم منهم من يقول : كل مجتهد فى المسائل العملية مصيب ؛ كما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية . ومنهم من يقول : بل فيها مخطىء ، والمخطىء آثم ، كما يقوله المريسى وغيره [١] ؛ وذلك أنهم اعتقدوا أنه حيث يكون مخطئاً يكون تاركاً لما وجب عليه .

(١) يقول الآمدى ـ من أئمة متأخرى الأشاعرة ـ فى كتابه « الإحكام فى أصول الأحكام» (ط . المعارف ، ١٣٣٢ / ١٩١٤) ٤ / ٢٤٤ :«واتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين فى الأحكام الشرعية ، وذهب بشر المريسى وابن علية وأبو بكر الأصم ونفاة القياس ـ كالظاهرية والإمامية ـ إلى أنه ما من مسألة إلا والحق فيها متعين ، وعليه دليل قاطع ، فمن أخطأه فهو آثم غير كافر ولا فاسق » .

ثم قال الأولون : فإذا لم يكن تاركا للمأمور به ، فلا يكون لله فى المسألة حكم معيّن ، أو لا يكون الحكم المنصوص حكماً فى حقه إذا لم يتمكن من معرفته .

وقال الآخرون : بل إذا كان مخطئا يكون تاركا للمأمور به فيكون آثما .

والتحقيق أنه مأمور به أمراً مطلقا ، لكن شرط الإثم بمنزلة التمكن من معرفته ، فإذا لم يتمكن من معرفته لا يكون شرط الإثم موجوداً فيه . ولكن ذلك لا ينفى أن يكون هو المأمور به ، وهو الذى يحبُّهُ الله ويرضاه ، ويُثيب فاعله إذا فعله . وإنما سقط عن بعض العباد لفوات الشرط فى حقه خاصة ، وحينئذ فيكون النزاع فى بعض المواضع نزاعا لفظيا .

ولهذا اختلف العلماء : هل هو مصيب فى اجتهاده وإن كان مخطئا فى نفس الأمر ؟ أو هو مخطئٌ فى اجتهاده وفى نفس الأمر ؟ على قولين ذكرهما القاضى روايتين عن أحمد . وذلك أن الخطأ فى الاجتهاد قد يعنى به القصور والتقصير ، وقد لا يعنى به إلا التقصير ، إذ العاجز عن معرفة الحكم الذى لله عاجز قاصر ، ليس بمقصِّر ولا مفرِّط فيما بَعُدَ عليه . فإذا قال : أخطأ فى اجتهاده ، أراد أخطأ فى استدلاله ، بمعنى أنه لم يستدلّ بالدليل الذى يوصله إلى نفس الحق ، ولا ريب أنه أخطأ هذا الاستدلال الموصل له إلى الحق ، إذ لو أصابه لأصاب / الحق ، لكنه لم يكن قادراً على هذا الاستدلال فلا يعاقب على تركه .

ظ ٧٦

ومن قال : لم يخطىء فى اجتهاده ، أراد أنه لم يخطىء فيما قدر عليه من الاجتهاد ، بل فعله على وجهه ، لكن لم يكن مقدوره من الاجتهاد كافياً فى إدراك المطلوب فى نفس الأمر .

ومثل هذا النزاع أن يُقال : هل فعل ما أمر به أو لم يفعل ما أمر به ؟ فالمأمور به فى نفس الأمر لم يفعله ، وأما المأمور به فى حقه من العمل الممكن فقد فعله . ولذلك إذا اشتبهت أخته بأجنبية ، هل يقال : الحرام ـ فى نفس الأمر ـ واحدةٌ ، أم الاثنتان محرمتان ؟ على القولين بهذا الاعتبار .

﴿ فصـــل ﴾

التوبة من الحسنات لاتجوز عند أحد من المسلمين

فأما التوبة من الحسنات فلا تجوز عند أحد من المسلمين ، بل من تاب من الحسنات ، مع علمه بأنه تاب من الحسنات ، فهو إما كافر وإما فاسق . وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضالّ . وذلك أن الحسنات هى الإيمان والعمل الصالح ، فالتوبة من الإيمان هى الرجوع عنه ، والرجوع عنه ردّةٌ ؛ وذلك كفر . والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عمّا أمر الله به ، وذلك فسوق أو معصية .

والله تعالى حبّب إلى المؤمنين الإيمان ، وكرّهَ إليهم الكفرَ والفسوقَ والعصيان . فكل حسنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة . والتوبة تتضمن النّدم على مامضى ، والعزمَ على أن لا يعود إلى مثله فى المستقبل . والندم يتضمن ثلاثة أشياء : اعتقاد قبح ما ندم عليه ، وبغضه وكراهته ، وألمٌ يلحقه عليه . فمن اعتقد قبح ما أمر الله به أمرَ إيجاب أو استحباب ، أو أبغض ذلك وكرهه بحيث يتألّم على فعله ، ويتأذّى بوجوده ، ففيه من النفاق بحسب ذلك . وهو إما نفاق أكبر يخرجه من أصل الإيمان ، وإما نفاق أصغر يخرجه من كماله الواجب عليه . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا

مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] . وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٢] .

بل إذا علم العبد أن هذا الفعل قد أمره الله به وأحبه ، فاعتقد هو أن ذلك ليس مما أمر الله به وأبغضه وكرهه ، فهو كافر بلا ريب . فمثل هذه التوبة عن الحسنات هي ردة محضة عن الإيمان وكفر بالإيمان : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٥] .

فإطلاق القول بأن الحسنات يُتاب منها هو كفر يجب أن يُستتاب صاحبه ، إذ معناه أنه يؤمر بالرجوع عن الحسنات ، واعتقادُ أن الرجوع عن الحسنات يقرّب إلى الله ، وهذا كفر بلا ريب . ثم إن هذه التوبة متناقضة ممتنعة فى نفسها ، فإن التائب من الحسنات إن اعتقد أن هذه التوبة / حسنة ، فعليه أن يتوب منها ، فتكون باطلة ، فلا يكون قد تاب من الحسنات . وإن اعتقد أنها سيئة كان مقرًّا بأن هذه التوبة محرمة ، فقد التزم أحد أمرين : إما أنه لم يتب من الحسنات ، أو تاب توبة محرمة . وهذا اشتبه عليه حال السابقين المقرّبين الذين يتوبون من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن أنهم تابوا مما فعلوه من الحسنات وتركوه من المحرمات ، فإنهم لو تابوا من ذلك لكانوا مرتدين [إما][1] عن أصل الإيمان وإما عن كماله . وإنما هى توبة عما تركوه من مستحب وفعلوه من مكروه ، مثل أن يكون العبد يصلى صلاة مجزِئة غير كاملة ، فتبلغه صلاة النبى صلى الله عليه وسلم المستحبةُ ، فيصلى كصلاته ، ويندم على ما كان يفعله من الصلاة الناقصة .

ص ٧٧

(١) إما : زيادة يقتضيها السياق .

فهو لا يتوب مما فعله من الحسن ، وإنما يتوب مما تركه من الحسن ، ولهذا ينسب نفسه إلى التفريط بما أضاعه من الحسنات . وكذلك إذا سمع فضائل الأعمال المستحبة وما وعد الله لأصحابها من علو الدرجات ، فيندم على ما فرط من ذلك ، ويعزم على فعلها ، فهو توبة مما تركه من الحسنات .

وكذلك لو كان يصبر على المكاره ، مثل الفقر والمرض وخوف العدو ، من غير رضى بذلك ، فبلغه مقام أهل الرضا ، وأنه أعلى من الصبر الذى لا رضا معه ، وأن هؤلاء يستحقون رضوان الله عليهم ، وأن أول من يدعى إلى الجنة الحمّادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء ، وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عباس : « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، وإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما يُكره خيراً كثيراً »[1] .

فهذا يتوب من ترك الرضا ، لا من نفس ما أُمر به من الصبر ، فإن الصبر يبقى مع الرضا ، لابد من الصبر فى الحالين ، لكن تذهب مرارة الكراهة بالرضا ، وتلك المرارة ليست من الحسنات المأمور بها ، ولا هى داخلة أيضاً فى حد الصبر المأمور به ، بل الصبر قد تكون معه مرارة ، وقد لا تكون .

ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة ، وأنه ضد الرضا ـ فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين ، وليس ذاك عرف الكتاب والسنة ، فإن الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه فى أكثر من تسعين موضعا من كتابه .

---

(١) قال العراقى عن هذا الحديث فى تعليقه على الإحياء ١٢ / ٣٤ : « الترمذى من حديث ابن عباس » ولم أستطع معرفة مكان الحديث .

والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل ، ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن ، لا بترك الأحسن .

وبهذا يعرف قول من قال : « حسنات الأبرار سيئات المقرّبين » . مع أن هذا اللفظ ليس محفوظا عمن قوله حجة ، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها . وإنما هو كلام[1] وله معنى صحيح ، وقد يحمل على معنى فاسد .

المعنى الصحيح لعبارة حسنات الأبرار سيئات المقربين

أما معناه الصحيح فوجهان :

أحدهما : أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات ، وهذا الاقتصار سيئة فى طريق المقربين . ومعنى كونه سيئة أن يخرج صاحبه عن مقام المقربين ، فيُحرَم درجاتهم ، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين . فكل من أحب شيئا وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك . فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات ، لا يتوبون من نفس الحسنات التى يعمل مثلها الأبرار ، بل يتوبون من الاقتصار عليها . وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن .

الثانى : أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه ، إما واجبا ، وإما مستحبًا ، لأن ذلك مبلغ / علمه وقدرته . ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك ، بل يؤمر بما هو أعلى منه ، فلو فعل هذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة . ص ٧٧

مثال ذلك أن العامى يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه ، وإن كان فى ذلك تقليد لهم ، إذا لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه . وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال

---

(١) بعد كلمة « كلام » بياض فى الأصل موضع كلمة واحدة .

بهما فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامى لـكانوا مسيئين بذلك .

وهذا كما يؤمر المريض أن يصلى قائما ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . وكما يؤمر المسافر أن يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين فى السفر، وهذا لو فعله المقيم لـكان مسيئاً تاركا للفرض ، بل فرضه أربع ركعات . فإن المرض والسفر لا ينقص العبد عن كونه مقربا إذا كان ذلك حاله فى الإقامة ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[1] .

بخلاف العلم والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال والمسابقة إلى الخيرات ، فإن الله يقول : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [سورة المجادلة : ١١]، ويقول: ﴿ لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [سورة النساء : ٩٥] ، ويقول فى كتابه : ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُمْ مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [سورة الحديد: ١٠]، ويقول : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ *

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٤١ ت ١ .

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة التوبة : ١٩ ـ ٢٢] .

وكذلك فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تَسُبُّوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه »[1] وقال : « خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[2] .

فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يدخل فى ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين . فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به ، وإذا ترك ذلك مَنْ تَعَيَّنَ عليه كان مذنباً مسيئاً ، فيكون ذلك سيئة له إذا تركه ، وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله . وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسنات من لم يكن قادراً على ذلك . فحسنات هؤلاء الأبرار ـ وهى الاقتصار على ذلك ـ سيئات أولئك المقربين .

---

(١) الحديث فى : البخارى ٥ / ٨ (كتاب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : لو كنت متخذا خليلا) ؛ مسلم ٧ / ١٨٨ (كتاب فضائل الصحابة ، باب تحريم سب الصحابة) . وهو فى : سنن أبى داود ٤/٢٩٧ ـ ٢٩٨ (كتاب السنة ، باب فى النهى عن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ؛ المسند (ط. الحلبى) ١١/٣ ، ٥٤ ، ٦٣ ـ ٦٤ . والحديث مروى بمعناه عن أبى هريرة رضى الله عنه فى : مسلم (نفس الموضع) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٥٧ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

وفى اللسان : المد ضرب من المكاييل وهو ربع صاع ، وهو قدر مد النبى صلى الله عليه وسلم ، والصاع خمسة أرطال . وقال النووى (شرح مسلم ١٦ / ٩٣) : « وقال أهل اللغة النصيف : النصف . . . ومعناه لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ ثوابه فى ذلك ثواب نفقة أحد أصحابى مدا ولا نصف مد » .

(٢) انظر : البخارى ٥/٢ ـ ٣ (كتاب أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم) ؛ مسلم ٧ / ١٨٤ ـ ١٨٦ (كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) . وقد تكلمت عن هذا الحديث وعن رواته وطرقه ومواضعه فى الصحاح بالتفصيل فى « منهاج السنة » ٢٤/٢ (ت ١) .

وكذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دونه كان ذلك من أعظم سيئاتهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استُنْفِرْتم فانفروا »[1] كان الاقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين .

وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات ، وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك ، إلى نظائر ذلك مما يؤمر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هو دونه ، فيكون ترك ذلك سيئة في حقه ، وهو من المقربين إذا فعله ، ويكون فعل ما دون ذلك حسنات لمن دونه .

وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب فى حقهما ، وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله ، وتخصيصه / بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه ، كمن له والدان فإنه يؤمر ببرِّهما ويكون بذلك أفضل ممن لم يعمل مثل عمله ، كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركين لغيرهم فى الأعمال البدنية : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » فهؤلاء المفضَّلون الاقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات فى حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم فى ذلك .

ص ٧٨

---

(١) جاء هذا الحديث (مع اختلاف فى اللفظ أحياناً) فى : البخارى فى عدة مواضع ، فهو فى ثلاثة مواضع من كتاب الجهاد والسير (جـ٤) : ص ١٥ (باب فضل الجهاد والسير) ، ص ٢٣ (باب وجوب النفير) ، ص ٧٥ (باب لا هجرة بعد الفتح) . وهو أيضا فى : ٤ / ١٠٤ (كتاب الجزية ، باب إثم الغادر للبر والفاجر) ، ٥ / ٥٧ (كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة) ، ٥ / ١٥٢ (كتاب المغازى ، باب وقال الليث) . والحديث فى مسلم ٦ / ٢٧ ـ ٢٨ (كتاب الإمارة ، باب المبايعة بعد فتح مكة) ؛ المسند (ط . المعارف) ٣ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ (رقم ١٩٩١ ـ وانظر التعليق) ، ٤ / ١٢٧ (رقم ٢٣٩٦) ، ٣٢١ (رقم ٢٨٩٨) ـ وانظر التعليقات وهو فى سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٧ / ١٤٦ (كتاب البيع ، باب ذكر الاختلاف فى انقطاع الهجرة) .

فهذان الوجهان كلاهما معنى صحيح لقول القائل : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

المعنى الفاسد للعبارة

وأما المعنى الفاسد فأن يظنَّ الظَّانُّ أن الحسنات التى أمر الله بها أمرا عامًّا يدخل فيه الأبرار ويكون سيئاتٍ للمقربين ، مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هى سيئات فى حق المقربين . فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعُبَّاد ، فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذى لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات ، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرمات ، كالزنا والخمر والميسر .

وكذلك زعم قوم فى أحوال القلوب التى يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات فى حقهم .

وكلا هذين من أخبث الأقوال وأفسدها .

وإنما قلنا : إن التائب من الحسنات ـ إن علم أنها حسنات ـ وتاب منها فقد أذنب إما بكفر أو فسوقٍ أو معصيةٍ ، وإن لم يعلم أنها حسناتٌ فهو ضالٌّ جاهل ، لأنه إذا تاب مما يسمى حسنة ، وكان حسنة فى الشريعة حقيقة قد أمر الله بها ، فهو راجع عن طاعة الله التى هى طاعته وهى حسنة . والرجوع عن طاعة الله ودينه لا يخرج عن أن يكون رِدّةً عن أصل الدين فيكون كفراً مغلَّظاً ، وإما عن كماله . هذا لو كان الرجوع بنفس الترك ، فإن ترك الإيمان كفر ، وترك الواجبات إما فسق وإما معصية ، وترك المستحبّات المتطوعة يؤخِّر درجته . هذا إذا كان تركا محضاً ، فأما إذا اعتقد مع ذلك أن الحسنات التى يحبها الله ورسوله مما يُتاب منها بحيث يندم العبد عليها ، فيعتقد أن تركها خيرٌ من فعلها ، أو أنها ليست مأموراً بها ، أو أنها لا تقرب إلى الله أو لا تنفع

عنده ، أو أبغضها وكرهها ، ورجع عنها وتألمّ من فعلها متديّنًا بذلك ـ فهذا كافر مرتدّ تجب استتابته بلا نزاع بين العلماء . وهذا هو مسمى التوبة . فعُلم أن القول بأن الحسنات يتاب منها كفر محض .

وأما إن لم يعلم أنها حسنات ، بل تاب مما كان يسميه ـ أو غيره ـ حسنات ، أو كان حسنةً فى الشريعة ولم يعلم العبد أنه حسنة بل ظن أنه سيئة ، أو كان سيئة منهيًا عنها ، واعتقد المرء أنه حسنة مأمور بها ـ فهو ضالّ جاهل ، وهذا عليه أن يتوب من هذا الاعتقاد والعمل الذى كان يعتقد أنه حسنة ، كما يتوب كل ضالّ من الكفار وأهلِ الأهواء المشركين وأهل الكتاب ، والمبتدعةِ كالخوارج والروافض والقدرية والجهمية وغيرهم . فإن هؤلاء يتوبون مما كانوا يظنونه حسنات ، لا يتوبون مما هو فى الشريعة حسنات ، ولا يطلقون القول إنا نتوب من الحسنات ، ولا أن التوبة من الحسنات فعل المقربين ، ولا أن التوبة من الحسنات مشروع للسابقين ، ولا أن الذى تبنا منه كان حسنات . ولكن يقولون : نتوب مما كنا نظن أنه حسنات وليس بحسنات ؛ كما قيل :

إِذَا مَحَاسِنِيَ اللاتِي أُدِلُّ بِهَا
كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ[1]

وكذلك يتوب المرء مما يعده حسنات له وهو مقصر فى فعله ، أو خائف من تقصيره فى فعله ، كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ

---

(١) البيت للبحترى من قصيدة يمدح بها على بن مر الأرمنى أولها :

فى الشيب زجر له لو كان ينزجر وبالغ منه لولا أنه حجر

(الديوان ٢/٤٣)

وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ٦٠] . وقد روى عن عائشة أنها قالت : يارسول الله : أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يابنتَ الصديق . ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدّق ويخاف ألاّ يُقبَلَ منه »(١) .

وهذا لأن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٧] ، أى من الذين يتقونه فى العمل .

والتقوى فى العمل بشيئين : أحدهما إخلاصه لله ، وهو أن يريد به وجه الله لا يشرك بعبادة ربه أحداً . والثانى : أن يكون مما أمره الله به وأحبه ، فيكون موافقاً للشريعة ، لا من الدين الذى شرعه من لم يأذن الله له ، وهذا كما قال الفضيل بن عياض فى قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (سورة هود : ٧) قال : أخلصُه وأصوبه . وذلك أن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة .

فالسعيد يخاف فى أعماله أن لا يكون صادقا فى إخلاصه الدينَ لله ، أو أن لا تكون موافقه لما أمر الله به على لسان رسوله . ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم ، فذكر البخارى عن أبى العالية قال : « أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كلهم يخاف النفاق على نفسه »(٢) . ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم : أنا مؤمن إن شاء الله ، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدّى ويتوبون من ذلك .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة ٢ / ١٤٠٤ ؛ الدر المنثور ٥/١١ .

(٢) فى صحيح البخارى ١ / ١٤ (كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر) : « وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل » .

وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين . كان النبى صلى الله عليه وسلم يستغفر بعد الصلاة ثلاثا[1] . وقال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٧] . قالوا : كانوا يُحْيُون الليلَ صلاةً ، ثم يقعدون فى السَّحَر يستغفرون ، فيختمون قيام الليل بالاستغفار . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

فإن قيل : قد قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور : ٣١] ، وفى المؤمنين من لاذنب له ، فيكون أمره بالتوبة أمراً بالتوبة من الحسنات ، وكذلك توبة الأنبياء وهم معصومون ؟

لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات

قيل : هذا من أعظم الفرية ، لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات ، وهى ماأمر به من طاعته وطاعة أنبيائه . وليس فى المؤمنين إلا من له ذنبٌ من تَرْك مأمورٍ أو فعلِ محظورٍ ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطّائين التوابون »[2] .

وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ

---

(١) فى صحيح مسلم ٢/٩٤ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته) : ... عن ثوبان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا ، وقال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام » ـ قال الوليد : فقلت للأوزاعى : كيف الاستغفار ؟ قال : تقول : استغفر الله، أستغفر الله

(٢) انظر ما سبق ، ص ٢٢٥ ت ٥ .

الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣ ـ ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [سورة الأحقاف : ١٦] .

أصل هذه المقالة هو دعوى العصمة فى المؤمنين

وأصل هذه المقالة ، وهو دعوى العصمة فى المؤمنين وما يشبه ذلك ، هو من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة ، وابتدعها فى الملّتين منافقوها.

غلو النصارى فى هذه الدعوى

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [سورة النساء : ١٧١] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [سورة المائدة : ٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠] .

ص ٧٩

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ

أَرْبَاباً مِن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١] .

وقد روى فى حديث عدى بن حاتم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قلت يا رسول الله : ما عبدوهم . قال : « أحلُّوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرَّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم »[1] .

وهذا الغلو الذى فى النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمه إلٰهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ـ قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذى كان يهوديا فأسلم واتَّبع المسيح نفاقاً ليلبس على النصارى دينهم، فأحدث لهم مقالات غالية ، وكثرت البدع فى النصارى : فى اعتقاداتهم وعباداتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [سورة الحديد : ٢٧] .

غلو الشيعة فى دعوى العصمة

وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية فى الإسلام من جهة بعض من كان قد دخل فى الإسلام وانتحل التشيع . وقيل: أول من أظهر ذلك عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا فأسلم ، وكان ممن أقام الفتنة على عثمان ، ثم أظهر موالاة علىّ . وهو من ابتدع الغلو فى علىّ[2] ، حتى ظهر فى زمانه من ادّعى فيه الإلٰهية

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ١١ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩ (كتاب التفسير ، سورة التوبة) ولفظه : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنق صليب من ذهب ، فقال : يا عدى اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال : أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه ،وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه » .

(٢) انظر ما ذكرته عن عبد الله بن سبأ والسبئية فى « منهاج السنة » ١/١٤ـ١٥ (ت ٦) ، ٢٢٠ (ت ١) . وانظر : فرق الشيعة للنوبختى (ط . النجف ، ١٣٧٩ / =

وسجدوا له لما خرج من باب مسجد كندة ، فأمر عليّ رضى الله عنه بتحريقهم بالنار بعد أن أجّلهم ثلاثه أيام[١] . وفى الصحيح أن ابن عباس بلغه أن عليًا حرق زنادقة فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يُعَذَّب بعذاب الله ، ولضربت رقابهم بالسيف ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: « من بدل دينه فاقتلوه »[٢] . قالوا : وهم هؤلاء ، وقد رووا قصتهم مستوفاة . ورووا أنه أظهر أيضاً سب أبى بكر وعمر حتى طلب عليّ أن يقتله فهرب منه[٣] . ولما بلغ عليا أن أقواماً يفضّلونه على أبى بكر وعمر قال : « لا أوتَى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حدّ المفترى » تحقيقاً لما رواه البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : أبو بكر . قال : ثم من ؟ قال : ثم عمر . وقد روى ذلك عن على من نحو ثمانين طريقاً ، وهو متواتر عنه[٤] . وروى هذا المعنى عنه من

= ١٩٥٩) ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ؛ مقالات الإسلاميين ١ / ٨٥ ـ ٨٦ ؛ التبصير فى الدين ، ص ٧١ ـ ٧٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ١٤٣ ـ ١٤٥ ؛ الملل والنحل ١/١٥٥ـ١٥٦ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٥٦ ـ ٣٥٧ ؛ الفصل لابن حزم ٤ / ١٨٦ ؛ البدء والتاريخ ٥ / ١٢٥ ، ١٢٦ ؛ الحور العين للحميرى ، ص ١٥٤ ؛ لسان الميزان ٣ / ٢٨٩ ـ٢٩٠؛ رجال الطوسى (ط . النجف ١٣٨١ / ١٩٦١) ص ٥١ ؛ الأعلام ٤ / ٢٢٠ ؛ مرتضى العسكرى : عبد الله بن سبأ ، ط . ثانية ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٣٨١ .

(١) انظر خبر هذه الواقعة فى أكثر المراجع المذكورة فى التعليق السابق ، وانظر منهاج السنة ١ / ٢١٩ .

(٢) الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه فى : البخارى ٩ / ١٥ (كتاب استتابة المرتدين ، باب حكم المرتد والمرتدة) ؛ سنن أبى داود ٤ / ١٨٠ (كتاب الحدود ، باب الحكم فيمن ارتد) ؛ سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ٦ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣ (كتاب الحدود ، باب ماجاء فى المرتد) ؛ سنن النسائى (بشرح السيوطى) ٧/١٠٤ (كتاب تحريم الدم ، باب الحكم فى المرتد) ؛ سنن ابن ماجة ٢ / ٨٤٨ (كتاب الحدود ، باب المرتد عن دينه) ؛ المسند (ط . المعارف) الأرقام : ١٨٧١ ، ١٩٠١ ، ٢٥٥١ ، ٢٥٥٢ .

(٣) المقصود هنا عبد الله بن سبأ وفرقته ، وانظر لسان الميزان ٣ / ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٤) تكلمت عن هذا الخبر موقوفا ومرفوعا فى منهاج السنة ١ / ٧ ، ٢٢٠ ، ٢ / =

وجوه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، كما رواه الترمذى[1] ، ورواه الدارقطنى فى كتاب «ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة»[2].

وحينئذ ابتُدِعَ القول بأن عليًا إمام منصوص على إمامته ، وابتدع أيضا القول بأنه معصوم أعظم ممّا يعتقده المؤمنون فى عصمة الأنبياء ، بل ابتدع القول بنبوته ، وحدث بإزاء هؤلاء من اعتقد كفره وردّته واستحلّ قتله على ذلك من الخوارج ، ومَن اعتقد فسقه أو ظلمه من الأموية وبعض أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم[3] ، ومن لم يعتقد إمامته ولا إمامة غيره فى زمانه ، أو جعل إمامته وإمامة غيره سواء مع اعتقاده فضله وسابقته[4] . فهؤلاء الثلاثة حدثت بإزاء تلك الثلاثة : فالغالية والرافضة والمفضِّلة ، بإزاء المكفِّرة والمفسِّقة والمتوقِّفة عن اختصاصه بالإمامة إذ ذاك .

= ٥١ وذكرت فى الموضع الأخير مكانه فى صحيح البخارى وفى سنن أبى داود وسنن ابن ماجة وبينت أنه يرد فى مسند أحمد (ط . المعارف) ٢٤ مرة وذكرت أرقامه فيه .

(١) فى سنن الترمذى (بشرح ابن العربى) ١٣/١٣٢ (كتاب المناقب ، باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كليهما) : « عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين ، لا تخبرهما ياعلى » . وذكر السيوطى فى الجامع الصغير ٢/١٠ (ط . مصطفى الحلبى، ١٣٥٨/١٣٥٩) حديثا آخر رواه ابن عساكر عن على والزبير معا عن النبى صلى الله عليه وسلم ونصه : « خير أمتى بعدى أبو بكر وعمر » وحسن السيوطى الحديث . وانظر سنن ابن ماجة ١/٣٨ - ٣٩ (المقدمة ، باب فى فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

(٢) الدارقطنى هو أبو الحسن على بن عمر بن أحمد بن مهدى ، البغدادى ، الحافظ الشهير صاحب السنن ، ولد بدار القطن (من أحياء بغداد) سنة ٣٠٦ وتوفى سنة ٣٨٥. انظر ترجمته فى : تذكرة الحفاظ ٣ / ٩٩١ - ٩٩٥ ؛ وفيات الأعيان ٢ /٤٥٩-٤٦٠ ؛ تاريخ بغداد ١٢ / ٣٤ - ٤٠ ؛ طبقات الشافعية ٢ / ٣١٠ - ٣١٢ ؛ المنتظم لابن الجوزى ٧ / ١٨٣ - ١٨٤ ؛ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣ / ٢١٠ - ٢١١ (وذكر من كتبه المخطوطة فى الظاهرية : فضائل الصحابة) ؛ الأعلام ٥ / ١٣٠ . .

(٣) انظر ماذكره ابنُ طاهر فى أصول الدين ، ص ٢٨٦-٢٨٧ فى إمامة على رضى الله عنه ، ص ٢٨٩ - ٢٩٢ ؛ مقالات الإسلاميين ٢ / ١٢٦ - ١٣٠ .

(٤) انظر مقالات الإسلاميين ٢ / ١٢٢ - ١٣٤ ؛ أصول الدين ، ص ٢٧١-٢٧٢ -

ثم القائلون بأنه إمام منصوص عليه معصوم تفرقوا فى الإمامة بعده تفرقا كثيرا مشهورا فى كتب المقالات ، منهم الاثناعشرية الذين يقولون بأن الإمامة انتقلت بالنص من واحد إلى واحد إلى المنتظر محمد بن الحسن ، الذى يزعمون أنه دخل سرداب سامراء سنة ستين ومائتين وهو / طفل له سنتان أو ثلاث ، وأكثر ما قيل خمس . ويزعمون مع ذلك أنه إمام معصوم ، يعلم كل شيء من أمر الدين ، ويجب الإيمان به على كل أحد ، ولا يصح إيمان أحد إلا بالإيمان به . ومع هذا فله اليوم أكثر من أربعمئة وأربعين سنة لم يعرف له عينٌ ولا أثر ، ولا سمع له أحد بما يعتمد عليه من الخبر .

ظ ٧٩

وأهل المعرفة بالنسب يقولون : إن الحسن بن على العسكرى والده لم يكن له نسل ولا عقب ، واتفق العقلاء على أنه لم يدخل السرداب أحد ، وأجمع أهل العلم بالشريعة على ما دل عليه الكتاب والسنة أن هذا لو كان موجوداً لكان من أطفال المسلمين الذين يجب الحجر عليهم فى أنفسهم وأموالهم حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد ، كما قال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُوا ﴾ [سورة النساء : ٦] .

وقد بسطنا القول فى بيان فساد هذا فى ذكر ما خاطبنا به الشيعة قبل هذا ، ثم فى كتابنا الكبير المسمى بمنهاج أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيع والقدرية[1] .

ومن الرافضة من يزعم أن الإمام بعد علىّ أو بعد الحسين هو ابن على محمد

---

(١) انظر مثلا فى خبر محمد بن الحسن المهدى المنتظر عند الشيعة منهاج السنة (ط . دار العروبة) ١ / ٢٨ - ٢٩ (وانظر التعليقات) ، ٥٧ - ٦٠ ، (ط . بولاق)٢/١٣١-١٣٤ .

ابن الحنفية[١] وهم الـكَيْسانية[٢] ، ومنهم طوائف كثيرة ليس هذا موضعها ، إذ ليس فى نحل الأمة أكثر تفرقاً واختلافاً منهم ، فإن أول من ابتدع مقالتهم كان منافقاً زنديقاً ، لم يك مؤمناً ، ثم انتشرت فى أقوام لم يعرفوا أخبار [المسلمين الأوائل][٣] ولم يقصدوا الزندقة .

والمقصود هنا أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بأن فى المؤمنين من لاذنب له كما قال هذا السائل ، وادَّعوا عصمة الأئمة الاثنى عشر حتى عن الخطأ فى الاجتهاد ، وعن نسيان العلم ، وعن عدم معرفة شىء من العلم ، فقالوا إنهم يعلمون كل شىء ، وادَّعوا عصمتهم من صغير الذنوب وكبيرها وغير ذلك ، وادعوا ذلك فى الأنبياء أيضاً لأنهم أفضل من الأئمة .

غلو الصوفية

ولم يقل هذا فى الأمة غيرهم على هذا الوجه . لـكن ظهر فى صنفين من الأمة بعضُ بدعتهم : طائفة من النُّسّاك والعُبّاد يزعمون فى بعض المشايخ أو فيمن يقولون إنه ولىّ الله أنه لا يذنب ، وربما عيّنوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب . وربما قال بعضهم : النبى معصوم ، والولىّ محفوظ .

ومن غالية هؤلاء من يعتقد فى بعض المشايخ من الإلٰهية والنبوة ما اعتقدته

---

(١) أبو القاسم محمد بن على بن أبى طالب ويعرف بابن الحنفية نسبة إلى أمه وقد توفى سنة ٨١ على الأرجح . انظر ترجمته فى : طبقات ابن سعد ٥ / ٩١ ـ ١١٦ ؛ الجرح والتعديل جـ ٤ ، ق ١ ، ص ٢٦ ؛ تهذيب الأسماء واللغات ، ق ١ ، جـ ١ ، ص٨٨ـ٨٩؛ وفيات الأعيان ٣ / ٣١٠ ـ ٣١٣ ؛ شذرات الذهب ١ / ٨٨ ـ ٩٠ .

(٢) قال الأشعرى (المقالات ١ / ٨٩ ـ ٩٠) عن الـكيسانية : «وهى إحدى عشرة فرقة ، وإنما سموا كيسانية لأن المختار الذى خرج وطلب بدم الحسين بن على ودعا إلى محمد بن الحنفية كان يقال له كيسان . ويقال إنه مولى لعلى بن أبى طالب رضوان الله عليه» . وانظر عن الـكيسانية وفرقها : المقالات ١ / ٨٩ ـ ٩٥ ؛ الملل والنحل ١ / ١٣١ ـ ١٣٧ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٢٦ ـ ٣٤ ؛ التبصير فى الدين ، ص ١٨ ـ ٢٠ ؛ الحور العين ، ص١٥٧ ـ ١٥٩ ؛ الخطط للمقريزى ٢ / ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٣) فى الأصل بعد كلمة « أخبار » بياض ، ولعل ما زدته يوفى بالمعنى المقصود .

الغالية فى عليّ ، ويزعم أن الشيخ يخلق ويرزق ويدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ، ويعبده ويدعوه كما يعبد الله ، ويقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فإنى لا أريده ، ويذبح الذبائح باسمه ، ويصلى ويسجد إلى جهة قبره ، ويستغيث به فى الحاجات كما يُستغاث بالله تعالى .

فأما ضلال هذه الغالية فشرك واضح قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإنه لا تجوز عبادة أحد دون الله ، ولا التوكل عليه والاستعانة به ، ودعاؤه ومسألته كما يُدعى الله ويُسأل الله .

قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [سورة الإسراء : ٥٦ ، ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سورة سبأ : ٢٢ ، ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سورة الزمر : ٤٣ ، ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٢١٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [سورة المائدة : ٧٢] .

ص ٨٠

لا عصمة لأحد بعد الرسول

والمقصود هنا ذكر العصمة ، فقد أجمع جميع سلف المسلمين وأئمة الدين من جميع الطوائف أنه ليس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ معصوم ولا محفوظ لا من الذنوب ولا من الخطايا ، بل من الناس من إذا أذنب استغفر وتاب ، وإذا أخطأ تبين له الحق فرجع إليه ، وليس هذا واجباً لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يجوز أن يموت أفضل الناس بعد الأنبياء وله ذنبٌ يغفره الله ، وقد خفي عليه من دقيق العلم ما لم يعرفه . ولهذا اتفقوا على أنه ما من الناس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وذهب بعض الناس إلى أن قول أبي بكر وحده حجّة وإن خالفه عمر ، ثم قول عمر حجة وإن خالفه عثمان وعلي . وأما أئمة الإسلام فلا يقولون بهذا ، بل تنازعوا فيما إذا اتفق أبو بكر وعمر على قول ، هل يكون حجّة ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . والأظهر في الموضعين أن ذلك حجة[1] لقوله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر»[2] ، وقولِه : «إن يطع

---

(١) قال ابن بدران في « المدخل إلى مذهب الإمام أحمد » (ط . المنيرية) ص ١٣٢ : « . . . وإذا لم يكن اتفاق الأربعة إجماعاً فقول اثنين منهم أولى بأن لا يكون إجماعا . ونقل عن الإمام أحمد أن اتفاق الخلفاء الأربعة حجة وكذا اتفاق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لحديث : عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين . . وحديث : اقتدوا باللذين من بعدي . . . ولو لم تقم الحجة بقولهم لما أمرنا باتباعهم ؛ وهذا القول هو الحق » . وانظر : أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (ط . المنيرية) ٢ / ١٧٦ ، ٤ / ١٠٢ ـ ١٢٩ ؛ ابن حنبل لمحمد أبي زهرة (القاهرة ، ١٣٦٧ / ١٩٤٧) ص ٢٤٤ ـ ٢٥٨ .

(٢) أورد النبهاني في « الفتح الكبير » ١ / ٢١٥ عدة أحاديث تتضمن هذه العبارة عن حذيفة وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم وقال إن هذه الأحاديث جاءت في سنن الترمذي وابن ماجة وفي مسند أحمد وأبي يعلى والطبراني . وانظر : سنن الترمذي ١٣ / ١٢٩ ـ ١٣٠ (كتاب المناقب ، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ٣٧ (المقدمة ، باب في فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ؛ المستدرك ٣ / ٧٥ ـ ٧٦ .

القومُ أبا بكرٍ [وعمر] يرْشُدُوا»[1]، وقولِه : «لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما»[2] ولقوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »[3] ، وقد قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً »[4] . وقد كانت خلافة عليّ تمام الثلاثين مع الأشهر التى تولاها الحسن رضي الله عنه .

واتفقوا على أنه ليس من شرط وليّ الله أن لايكون له ذنب أصلاً ، بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [سورة يونس ٦٢ ، ٦٣].

---

(١) وعمر : ليست فى الاصل . وهذه العبارة جزء من حديث طويل عرف بحديث الميضأة رواه مسلم فى صحيحة ٢/١٣٨ ـ ١٤٠ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها ، باب قضاء الصلاة الفائتة) عن أبى قتادة رضى الله عنه وأوله : «عن أبى قتادة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم وتأتون الماء إن شاء الله غدا . . الحديث » وفيه : « ثم قال : أصبح الناس فقدوا نبيهم ، فقال أبوبكر وعمر: رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدكم ، لم يكن ليخلفكم . وقال الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيديكم . فان يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا» . والعبارة الأخيرة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وانظر شرح النووى ٥ / ١٨٨ .

(٢) قال ابن القيم (إعلام الموقعين ٤ / ١٢٢) : « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر وعمر فى شأن تأمير القعقاع بن حكيم والأقرع بن حابس : « لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما » . ورجعت إلى حديث الاختلاف بين عمر وأبى بكر رضى الله عنهما وهو الذى نزلت فيه الآية الأولى من سورة الحجرات فى عدة مواضع من البخارى وفى سنن الترمذى والنسائى ولكنى لم أجد هذه العبارة فيه .

(٣) الحديث عن العرباض بن سارية رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤ / ٢٨٠ ـ ٢٨١ (كتاب السنة ، باب فى لزوم السنة) ؛ سنن الترمذى ١٠ / ١٤٣ ـ ١٤٦ (كتاب العلم ، باب ما جاء فى الأخذ بالسنة) ؛ سنن ابن ماجة ١ / ١٥ ـ ١٦ (المقدمة ، باب فى اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين) .

(٤) الحديث بمعناه عن سفينة رضى الله عنه فى : سنن أبى داود ٤ / ٢٩٣ (كتاب السنة ، باب فى الخلفاء) ؛ سنن الترمذى ٩ / ٧٠ ـ ٧٢ (كتاب الفتن ، باب ما جاء فى الخلافة) ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٧١ .

ولا يخرجون عن التقوى بإتيان ذنب صغير لم يصرُّوا عليه ، ولا بإتيان ذنب كبير أو صغير إذا تابوا منه .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٣٣ ـ ٣٥].

وقال تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٣١]

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [سورة النجم : ٣١ ، ٣٢]

وقال تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ [سورة التوبة : ١١٧ ، ١١٨] .

والفريق الثانى قوم من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتَّبعهم ، زعموا أن

الأنبياء عليهم السلام معصومون مما يتاب منه ، وأن أحداً منهم لم يتب عن ذنب ، وحرَّفوا نصوص الكتاب والسنة ، كعادة أهل الأهواء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وآياته .

مذهب السلف وأهل السنة هو القول بتوبة الأنبياء

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتَّبعهم على ما أخبر الله به فى كتابه ، وما ثبت عن رسوله ، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التى تابوا منها ، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . وعصمتهم هى من أن يُقرُّوا على الذنوب والخطأ ، فإن مَنْ سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب الخطأ من غير توبة، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم ، كما قال تعالى :﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة الحج : ٥٢ ، ٥٣] .

ظ ٨٠

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم، كما تلونا بعض ذلك فيما ذكرناه من توبة الأنبياء واستغفارهم ، كقوله : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [سورة البقرة : ٣٧] .

وقول نوح : ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة هود : ٤٧] .

وقول إبراهيم : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [سورة إبراهيم : ٤١]

وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [سورة الشعراء : ٨٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [سورة محمد : ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ الآية [سورة ص : ١٧ ــ ٣٥] .

اليهود فرطوا في حق الأنبياء .

ولما كان اليهود ضد النصارى حيث قتلوا الأنبياء وكذَّبوهم جحدوا نبوة داود ، وهم لنبوة سليمان أجحد ، وزعموا أنهما كانا حكيمين ، وأن داود كان مسيحاً . وقد نزَّه الله سليمان مما تلته الشياطين على ملكه مما اتبعه السحرة من الصابئة والمشركين ومن اتبعهم من أهل الكتاب والمنتسبين إلى هذه الملة .

والسامرة أعظم جحوداً ، لا يقرون إلا بنبوه موسى خاصة ، ويوشع بعده .

الإسلام هو الصراط المستقيم

والله سبحانه قد هدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما اختلفت الأمتان فى المسيح ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥] .

وكذلك المنحرفون من هذه الأمة قد اختلفوا فى علىّ وغيره كما تقدم ، فتجد أحدهم يغلو فى الرجل العالم والعابد ، حتى يعتقد عصمته ، أو يجعله كالأنبياء أو فوقهم ، أو يجعل لهم حظا فى الإلهية . وتجد الآخر يقدح فى ذلك ، فربما كفره أو فسقه أو أخرجه عن أن يكون من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون. فالأول يجعل ما صدر منه من اجتهاد وعمل صواباً وإن كان خطأ وذنباً ، والآخر يجعل صدور الذنب والخطأ منه مانعاً من ولايته ووجوب موالاته .

وكلا القولين خطأ موروث عن أهل الكتابين . كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « لتركبنّ سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّة بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى وقال: فمن؟! »[1]

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ، ولكن روى البخارى ٩ / ١٠٣ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لتتبعن سنن من كان قبلكم) ؛ ومسلم ٨/٥٧ ـ ٥٨ (كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى) عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم . قلنا : يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال : فمن » . وجاء الحديث بمعناه عن أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم فى المسند (ط . الحلبي) . وانظر مثلا : ٢ / ٣٢٧ ، ٣٦٧ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧ ، ٣ / ٨٤ ، ٩٤ . وهو فى سنن ابن ماجة ٢ / ١٣٢٢ (كتاب الفتن ، باب افتراق الأمم) ؛ سنن الترمذى ٩ / ٢٦ ـ ٢٨ (كتاب الفتن ، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم) .

وانظر : مفتاح كنوز السنة ، مادة « السنة » .

=

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى أم القرآن أنها أفضل سورة فى القرآن وأنه لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها ، وأنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيه النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [سورة الحجر : ٨٧] (١) .

وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى يقول : « قسمت الصلاة بينى و بين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى / ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى عَلَىّ عبدى . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدنى عبدى . فإذا قال : إياك نعبد و إياك نستعين ، قال : هذه الآية بينى و بين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل. فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قال : فهؤلاء لعبدى ، ولعبدى ما سأل » (٢) .

ص ٨١

وهذه البدع هى وغيرها من البدع لابد أن تنافى كمال الإيمان ، وتقدح فى بعض حقائقه ، فإن رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

= وقال ابن الأثير (النهاية فى غريب الحديث مادة : قذذ) : « القذذ ريش السهم واحدتها قذه ، ومنه الحديث : لتركبن . . . أى كما تقدر كل واحدة منهما على قدر صاحبتها وتقطع » .

(١) انظر البخارى ٦ / ٨١ (كتاب التفسير ، سورة الحجر) ، ٦ / ١٨٧ (كتاب فضائل القرآن ، باب فاتحة الكتاب) ؛ الترغيب والترهيب ٣ / ٢٥ ـ ٢٨ .

(٢) جاء هذا الحديث مع اختلاف فى اللفظ عن أبى هريرة رضى الله عنه فى صحيح مسلم ٢/٩ـ١٠ (كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة .. الخ) وأوله : عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ومن صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداجٌ ـ ثلاثا ـ غير تمام » فقيل لأبى هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها فى نفسك فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : قسمت الصلاة . . . الحديث » . ورواه بمعناه الترمذى فى سنة ١١ / ٦٩ ـ ٧١ (كتاب التفسير ، سورة الفاتحة) .

ورسوله . فلابد من إخلاص الدين لله ، حتى لا يكون فى القلب تألّه لغير الله ، فمتى كان فى القلب تألّه لغير الله فذاك شرك يقدح فى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ولابد من الشهادة بأن محمداً رسول الله ، وذلك يتضمّن تصديقه فى كل ما أخبر ، وطاعتَه فيما أمر به ، ومن ذلك الإيمان بأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبى بعده ، فمتى جعل لغيره نصيباً من خصائص الرسالة والنبوة كان فى ذلك نصيبٌ من الإيمان بنبى بعده ورسولٍ بعده ، كالمؤمنين بنبوة مسيلمة والعنسى وغيرهما من المتنبِّئين الكذّابين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن بين يدى الساعة ثلاثين دجّالين كذابين كلهم يزعم أنه رسول الله »[1] .

عصمة الأئمة تعنى مضاهاتهم للرسول

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما يأمر به ، وأوجب تصديقه فى كل ما يخبر به ، وأثبت عصمته أو حفظه فى كل ما يأمر به ويخبر من الدين ـ فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهاة له فى خصائص الرسالة بحسب ذلك ، سواء جُعل ذلك المضاهى لرسول الله صلى الله وسلم بعضَ الصحابة أو بعضَ القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم .

وقد قال الله فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [سورة النساء : ٥٩] .

فغاية المطاع بإذن الله أن يكون من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء ومن يدخل فى ذلك من المشايخ والملوك وكل متبوع ؛ فإن الله تعالى أمر بطاعتهم مع طاعة رسوله ، كما قال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ، فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، ليبين أن طاعتهم فيما

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٩٢ ت ١ .

كان طاعة للرسول أيضا ، إذ اندراج طاعة الرسول فى طاعة الله أمر معلوم ؛ فلم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذنا بالفرق ، بخلاف ما لو قيل: أطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم ، فإنه قد يوهم طاعة كل منهما على حياله .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : « إنما الطاعة فى المعروف »[١] ، وقال : « لا طاعه لمخلوق فى معصية الخالق »[٢] ، وقال : « على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٣] .

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ فلم يأمر عند التنازع إلا بالرد إلى الله والرسول دون الرد

---

(١) هذه العبارة جزء من حديث متفق عليه عن على رضى الله عنه . انظر : البخارى ٩ / ٦٣ (كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للامام ما لم تكن معصية) ؛ مسلم ٦/١٥ (كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية) . ولفظ الحديث : « عن على رضى الله عنه قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية وأمر عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب عليهم وقال: أليس قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعونى؟ قالوا : بلى . قال : عزمت عليكم لما جمعتم حطباً وأوقدتم ناراً ثم دخلتم فيها . فجمعوا حطباً فأوقدوا نارا ، فلما هموا بالدخول ، فقام ينظر بعضهم إلى بعض . قال بعضهم : إنما تبعنا النبي صلى الله عليه وسلم فراراً من النار أفندخلها ؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه . فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : لو دخلوها ماخرجوا منها أبداً ، إنما الطاعة فى المعروف » .

(٢) أورده التبريزى فى مشكاه المصابيح ٢ / ٣٢٣ عن النواس بن سمعان . وقال : « رواه فى شرح السنة» وذكر الشيخ ناصر الدين الألبانى فى تعليقه أنه حديث صحيح وجاء فى المسند فى (ط . الحلبى) ٥/٦٦ بلفظ: «لاطاعة لمخلوق فى معصية الله تبارك وتعالى» .وجاء بمعناه المسند (ط . الحلبى) ٤ / ٤٣٢ ، ٥ / ٦٦ ــ ٦٧ ؛ المستدرك للحاكم ٣ / ٤٤٣ . وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٣) الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما فى : البخارى ٩ / ٦٣ (نفس الكتاب والباب) . وهو بمعناه مع اختلاف فى اللفظ فى : البخارى ٤ / ٤٩ ــ ٥٠ ؛ سنن الترمذى ٧/٢٠٢ (كتاب الجهاد ، باب ما جاء لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

إلى أولى الأمر ، ولهذا كان أولو الأمر إذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة ، فإذا تنازعوا فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله لا إلى غير ذلك من عالم أو أمير ومن يدخل فى ذلك من المشايخ والملوك وغيرهم ، ولو كان غير الرسول معصوما أو محفوظا فيما يأمر به ويخبر به لكان ممن[1] يُرَدّ إليه مواقع النزاع ، كما يرده القائلون بإمام معصوم إليه ، وكما جرت عادة كثير من الأتباع أن يردّوا ما تنازعوا فيه إلى الإمام والقدوة الذى يقلدونه .

ومعلوم أن علماء الطوائف ومقتصديهم لايرون هذا الرد واجبا على الإطلاق ، لكن قد يفعلون ذلك لأنه لا طريق لهم إلى معرفة الحق واتباعه إلا ذلك لعجزهم عما سوى ذلك ، فيكونون معذورين . وقد يفعلون ذلك اتباعا لهواهم فى محبتهم لذلك الشخص و بغضهم لنظرائه[2] فيكونون غير معذورين ، ولكن من اعتقد من هؤلاء فى متبوعه أنه معصوم ، أو أنه محفوظ عن / الذنوب والخطأ فى الاجتهاد ، فذلك مردود عليه بلا نزاع بين أهل العلم والإيمان . ظ ٨١

الغلو فى البشر يؤدى إلى الشرك

ولهذا إنما يقول ذلك غلاة الطوائف الذين يغلب عليهم اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وقد غلب على أحدهم جهله وظلمه . وكما أن الغلو فى غير الرسول صلى الله عليه وسلم فيه قدح فى منصب الرسول وما خصّه الله به ، وهو أحد أصلى الإسلام ، فكذلك الغلو فى غير الله فيه قدح فيما يجب لله من الألوهية وفيما يستحقه من صفاته . فمن غلا فى البشر أو غيرهم فجعلهم شركاء فى الألوهية أو الربوبية فقد عدل بربه وأشرك به وجعل له ندًّا ، ومن زعم أن الله ذم أحداً من البشر أو عاقبه على مافعله ، ولم يكن ذلك ذنباً ، فقد قدح فيما أخبر الله به وما وجب له من حكمته وعدله : فالجاهل يريد تنزيه الصحابة

---

(١) فى الأصل : من .

(٢) فى الأصل : وبغضهم له على نظرائه .

أو العلماء أو المشايخ من شيء لا يضيرهم ولا يضرهم ثبوته فيقدح فى الرسول أو فى الله تعالى ، ويريد تنزيه الأنبياء عما لا يضرهم ثبوته ، بل هو رفع درجة لهم ، فيقدح فى الربوبية . فتدبر هذا فإنه نافع .

بطلان القول بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب

والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [سورة الحج : ٥٣] .

وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى أفعاله مشروع ، ولولا ذلك ما جاز الاقتداء به . وهذا ضعيف ، فإنه قد تقدم أنهم لا يُقرّون ، بل لابد من التوبة والبيان . والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهيّ عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق . فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالأفعال التى لم يقر عليها أولى بذلك .

تفصيل مذهب أهل السنة فى ذلك

وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب ، فقد ذكرنا من آيات القرآن ما فيه دلالات على ذلك .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى جدّى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ،

وأما أنت أعلم به منى . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير »[(١)] .

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى استفتاح الصلاة : « اللهم أنت الملك لا شريك لك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفرلى ذنوبى جميعا فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها فإنه لايصرف عنى سيئها إلا أنت » قال : ثم يكون من آخر ما يقول[(٢)] بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفرلى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت »[(٣)] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة ، فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ، إسكاتك بين التكبير والقراءة ماتقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من الخطايا كما

---

(١) الحديث فى : البخارى ٨/٨٤ ـ ٨٥ (كتاب الدعوات ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت) ؛ مسلم ٨ / ٨١ (كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل) .

(٢) فى الأصل : يكون ، والتصويب من صحيح مسلم .

(٣) هذا جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه ٢ / ١٨٥ ـ ١٨٦ (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه) وأوله :.. عن على بن أبى طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات . . . اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ... الحديث » . وهو فى المسند (ط . المعارف) ٢/١٠٠ ـ ١٠١ (رقم ٧٢٩) ومع اختلاف فى اللفظ ٢/١٣٤ ـ ١٣٥ (الأرقام : ٨٠٣ ـ ٨٠٥) .

يُنَقَّى الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبَرَد»[١] .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » يتأول القرآن[٢] .

وفى الصحيح أيضاً عن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى سجوده : « اللهم اغفرلى ذنبى كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره ، وقليله وكثيره »[٣] .

وقد تقدم قوله فى الحديث الصحيح : « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[٤] ، وقوله : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[٥] ، وقوله : « إنه ليُغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[٦] . وتقدم أيضاً أنهم كانوا يعدون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة[٧] .

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا إذا قفل من غزو أو حج أو عُمرة يكبِّر على كل شرف من الأرض ثلاث

---

(١) الحديث فى: البخارى ١ / ١٤٥ (كتاب الأذان ، باب ما يقول بعد التكبير) ؛ مسلم ٢ / ٩٨ - ٩٩ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة) .

(٢) الحديث فى : البخارى ١/١٥٩ (كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء فى السجود) ؛ مسلم ٢ / ٥٠ (كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود) .

(٣) الحديث فى مسلم ٢ / ٥٠ (نفس الكتاب والباب) .

(٤) انظر ما تقدم ، ص ٢٢٤ ، ت ٣ .

(٥) انظر ماتقدم ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، ت ١ .

(٦) انظر ما تقدم ، ص ٢٢٤ ، ت ٢ .

(٧) انظر ما تقدم ، ص ٢٢٦ ، ت ٣ .

تكبيرات ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[١] .

وفى السنن عن علىّ أنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : « بسم الله » ، فلما استوى على ظهرها قال : « الحمد لله ، سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ثم قال : « الحمد لله ـ ثلاثا ـ سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» ثم ضحك ، فقيل : من أى شىء ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ثم ضحك ، فقلت : من أى شىء ضحكت يارسول الله ؟ فقال : « إن ربك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفرلى ذنوبى، يقول : يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيرى »[٢] .

---

(١) الحديث فى : البخارى ٨ / ٨٢ (كتاب الدعوات ، باب الدعاء إذا أراد سفراً أو رجع) ؛ مسلم ٤ / ١٠٥ (كتاب الحج ، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره). وهو فى المسند (ط . المعارف) الأرقام : ٤٤٩٦ ، ٤٥٦٩ ، ٤٦٣٦ ، ٤٧٩٧ ، ٤٩٦٠ ، ٥٢٩٥ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ١٣ / ٦ ـ ٧ (كتاب الدعاء ، باب ما يقول إذا ركب الناقة) وقال الترمذى : « وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال : هذا حديث حسن صحيح » .



فصلٌ في أنَّ دينَ الأنبياءِ واحدٌ



﴿ فصـــل ﴾

قوله صلى الله عليه وسلم : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد »[1]

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [سورة المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] : أى ملتكم ملة واحدة ، كقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ [سورة الزخرف : ٢٢ ، ٢٣] : أى على ملة وقال : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآية [سورة الشورى : ١٣] .

فدين الأنبياء واحد ، وهو دين الإسلام ، لأن بعض الشرائع تتنوع ، فقد يشرع فى وقت أمراً لحكمة ثم يشرع فى وقت آخر أمراً آخر لحكمة ، كما شرع فى أول الإسلام الصلاة إلى بيت المقدس ، ثم نسخ ذلك وأمر بالصلاة إلى الكعبة ، فتنوعت الشريعة والدين واحد ، وكان استقبال الشام / من ذلك ص ٢٠٦

---

(١) ذكر ابن تيمية الحديث بتمامه فى الجواب الصحيح ١/٥ (ط . المدنى) فقال : « ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : إنا معشر الأنبياء ديننا واحد ، وأنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » . ولم أجد الحديث بهذا اللفظ ولكن روى البخارى فى صحيحه ٤ / ١٦٧ (كتاب الأنبياء ، باب واذكر فى الكتاب مريم) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » . وروى حديثا آخر يقاربه فى اللفظ فى نفس الصفحة وروى مسلم ٧ / ٩٦ (كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى عليه السلام) الحديث عن أبى هريرة بألفاظ مقاربة من ثلاثة طرق . والحديث بمعناه فى سنن أبى داود ٤ / ٣٠٢ (كتاب السنة ، باب فى التخيير بين الأنبياء) ؛ المسند (ط . الحلبى) ٢ / ٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، ٥٤١ ؛ ترتيب مسند الطيالسى ٢/٨٤ .

الوقت من دين الإسلام ، وكذلك السبت لموسى من دين الإسلام ، ثم لما صار دين الإسلام هو الناسخ وهو الصلاة إلى الكعبة ، فمن تمسك بالمنسوخ فليس على دين الإسلام ، ولا هو من الأنبياء .

ومن ترك شرع الأنبياء وابتدع شرعاً فشرعه باطل لايجوز اتّباعه ، كما قال : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [سورة الشورى : ٢١] ؛ ولهذا كفرت اليهود والنصارى لأنهم تمسكوا بشرع منسوخ .

والله أوجب على جميع الخلق أن يؤمنوا بجميع كتبه ورسله ، ومحمد خاتم الرسل ، فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع ماشرعه من الدين ، هو ما أتى به من الكتاب والسنة[1] .

---

(١) تكلم ابن تيمية عن هذا الموضوع : أن دين الأنبياء واحد هو دين الإسلام ، فى عدة مواضع من كتبه . انظر مثلا : الجواب الصحيح (ط . المدنى) ١ / ٢ - ١٣ ؛ الرد على المنطقيين (ط . بومباى ١٣٦٨ / ١٩٤٩) ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ ؛ اقتضاء الصراط المستقيم (ط . السنة المحمدية ١٣٦٩/١٩٥٠) ، ص ٤٥٠ - ٤٥٦ .

فصل فى الدليل على فضل العرب

﴿ فصـــل ﴾

الدليل على فضل العرب مارواه الترمذى عن العباس بن عبد المطلب قال : « قلت : يا رسول الله إن قريشاً جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم ، فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم ، ثم خيَّر القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم خيَّر البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . قال الترمذى : هذا حديث حسن [1] .

والكِبا بالكسر والقصر ، والكُبة الكناسة [2] . والمعنى أن النخلة طيبة فى نفسها ، وإن كان أصلها ليس بذاك .

وعن سلمان قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا سلمان لا تبغضنى فتفارق دينك . قلت : يا رسول الله وكيف أبغضك وبك هدانى الله ؟ قال : تبغض العرب فتبغضنى » . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب [3] .

وروى أبو جعفر الحافظ الكوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ١٣ / ٩٥ ـ ٩٦ (كتاب المناقب ، باب فى فضل النبى صلى الله عليه وسلم) إلا أن فيه : « . . . من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلنى من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى من خير بيوتهم . . الحديث » .

(٢) قال ابن العربى فى شرح الحديث ١٣ / ٩٨ : « الكبوة بضم الكاف وفتحها يقال على المزبلة ويقال على الربوة والمراد ههنا الربوة . وقال شمر : لم نسمع الكبوة ولكنا سمعنا الكبا ـ بكسر الكاف ـ والكبوة ـ بضمها وتخفيف الباء ـ وهى الكناسة والتراب الذى يكنس من البيت » .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ١٣ / ٢٨١ (كتاب المناقب ، باب فى فضل العرب) إلا أن فيه : وبك هدانا الله . والحديث فى المسند (ط. المعارف) ٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٤ (رقم ١٧٨٨) ، وأورده العراقى فى القرب فى محبة العرب (ط. الإسكندرية ١٣٨١/١٩٦١) ص ١٠٠ وانظر تعليق المحقق ؛ والطيالسى ؛ فى مسنده ، انظر ترتيب مسند الطيالسى ٢/٢٠٠ ؛ والحاكم فى المستدرك ٤ / ٨٦ .

صلى الله عليه وسلم: «أحِبُّوا العرب لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة عربى». قال الحافظ السلفى: هذا حديث حسن؛ فما أدرى أراد حسن إسناده على طريقة المحدثين، أو حسن متنه على الاصطلاح العام، وأبو الفرج بن الجوزى ذكره فى «الموضوعات» ؟! [١].

وقال سلمان: «يا معشر العرب لِتفضيل رسول الله إياكم لا ننكح نساءكم ولا نؤمكم فى الصلاة»، وإسناده جيد [٢]، رواه محمد بن أبى عمر العَدَنى [٣]، وسعيد فى «سننه» [٤].

---

(١) الحديث فى المستدرك للحاكم ٤/٨٧. والحديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان والعقيلى فى الضعفاء. وله شاهد من حديث أبى هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى».

وقد اختلف فى حديث ابن عباس وأكثر العلماء على أنه ضعيف أو موضوع. وانظر ما ذكر عنه وعن حديث أبى هريرة فى: اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية، ص ١٥٨؛ كشف الخفاء للعجلونى ١ / ٥٤؛ اللآلىء المصنوعة للسيوطى ١ / ٤٤٢؛ الفوائد المجموعة للشوكانى، ص ٤١٣؛ تنزيه الشريعة لابن عراق ٢/٣٠-٣١؛ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة لناصر الدين الألبانى، المجلد الأول جـ ٢، ص ٥٦ - ٦٠ (ط دمشق، ١٣٨٢) القرب فى محبة العرب للعراقى، ص ٩٦ - ٩٧؛ مشكاة المصابيح ٣ /٢١٦؛ المقاصد الحسنة للسخاوى، ص ٢٢ - ٢٣، تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع، ص ٧.

(٢) ذكره ابن تيمية فى اقتضاء الصراط المستقيم، ص ١٥٨ - ١٥٩ وقال إن أبابكر البزار ممن رواه أيضا.

(٣) قال ابن حجر فى تقريب التهذيب، ص ٣١٨: «محمد بن يحيى بن أبى عمر العدنى نزيل مكة، ويقال إن أبا عمر كنيته يحيى، صنف المسند، وكان لازم ابن عيينة، لكن قال أبو حاتم: كانت فيه غفلة، من العاشرة، مات قبل سنة ثلاث وأربعين». والعدنى نسبة إلى عدن، وقد توفى سنة ٢٤٣. وانظر ترجمته فى: تذكرة الحفاظ ٢ / ٥٠١؛ الجرح والتعديل، جـ ٤، ق ١، ص ١٢٤؛ اللباب لابن الأثير ٢ / ١٢٦.

(٤) أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة المروزى ويقال الطالقانى ثم البلخى صاحب السنن. توفى بمكة سنة ٢٢٧. انظر ترجمته فى: تذكرة الحفاظ ٢ / ٤١٦؛ الجرح والتعديل جـ ٢، ق ١، ص ٦٨؛ طبقات ابن سعد ٥ / ٥٠٢.

ولما وضع عمر الديوان للعطاء كتب الناس على قدر أنسابهم فبدأ بالأقرب فالأقرب إلى رسول الله ، فلما انقضت العرب ذكر العجم . هكذا كان الديوان على [عهد][1] الخلفاء الراشدين وخلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس ، إلى أن تغير الأمر بعد ذلك ؛ والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة أصحها ما ذكرناه .

سبب ما اختص به العرب من الفضل

وسبب ما اختصوا به من الفضل - والله أعلم - ما جعل الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال ، وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع أو العمل الصالح ، والعلم له مبدأ : وهو قوة العقل الذى هو الفهم والحفظ ، وتمام : وهو قوة المنطق الذى هو البيان والعبارة . فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ، ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعانى .

وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق ، وهى الغرائز المخلوقة فى النفس . فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم ، فهم أقرب إلى السخاء والحلم والشجاعة والوفاء من غيرهم ، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطّلة عن فعله ، ليس عندهم علم منزل ولا شريعة مأثورة ولا اشتغلوا ببعض العلوم ، بخلاف غيرهم فإنهم كانت بين أظهرهم الكتب المنزّلة وأقوال الأنبياء فضلّوا لضعف عقولهم وخبث غرائزهم .

وإنما كان علم العرب ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم ، أو ما احتاجوا إليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم والحروب . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى تلقّفوه عنه بعد مجاهدة شديدة ، ونقلهم الله عن تلك العادات الجاهلية التى كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها ، فلما تلقّوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون عن قلوبهم ، فقبلوا هذا الهدى العظيم ، وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة ، فاجتمع لهم الكمال بالقوة

---

(١) عهد : ساقطة من الأصل .

المخلوقة فيهم ، والكمال الذى أنزله الله إليهم ، بمنزلة أرض طيبة فى نفسها لكن هى معطّلة عن الحرث ، أوقد نبت فيها شجر العضاه والعوسج ، وصارت مأوى الخنازير والسباع ، فإذا طهرت عن ذلك المؤذى من الشجر وغيره من الدواب ، وازدرع فيها أفضل الحبوب أو الثمار جاء فيها من الحب والثمر مالا يوصف مثله .

فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله سوى الأنبياء ، وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان ـ رضى الله عنهم ـ إلى يوم القيامة من العرب والعجم[1] .

والله سبحانه أعلم . والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين وسلم تسليما[2] .

---

(١) تكلم ابن تيمية عن فضل العرب بمزيد من التفصيل فى «اقتضاء الصراط المستقيم» ص ١٤٨ ـ ١٦٢ .

(٢) بعد هذا السطر فى آخر الرسالة كتب ما يلى :

إذا المرء لم يرض ما أمكنه	ولم يأت من أمره أحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره	سيضحك يوما ويبكى سنه

لشيخ الإسلام .

صحح تصح لك الأمور جميع	إياك عن طرق الهداة تضيع
وامح واثبت ما تحقق يافتى	إياك عن طرق الهدى تضيع
لا تصحبن الأرذلين فإنهم	يوم التغابن حبلهم مقطوع

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	ص	س
		٤٢	٧-٨
	٧٥	٨١	٢
	٨٨	٢٤٦	١٠-١١
	٩٨	٩٢	٥
	١١٦	٤	١٥
		٩	٤-٥
			٨
			١٣
		١٧	٤
			٦
			٨
			٢٤
		١٨	١٢
		٢٢	١٤-١٥
			١٦-١٧
		٢٣	٤-٦
		٢٦	١٨
	١١٦-١١٧	٣	٦-٨
	١٢٨	٢٢١-٢٢٢	٢٠-١
	١٦٤	١٤٥	١٨
	١٩٨،١٩٩	٢٥٨	٤-٧
	٢١٤	١٨٣	٧
	٢٢٢	٢٢٣	١
	٢٣٨	٦	٩-١٠

السورة	الآية	ص	س
	٢٣٩	٣٥	٦
	٢٤٢	١٨٣	٥ــ٦
	٢٥٥	٢٦٥	١٥ــ١٦
	٢٨٤	٢٣٩	١٨
	٢٨٦	١٣٥	١٥ــ١٦
		١٤٨	١١ــ١٢
		٢٣٩	١٣
آل عمران	١١	٢١٤	٢
	١٣	٥٦	١٥ــ١٧
	١٧	٢٥٨	٢
	٢٦	١٣٧	٣ــ٤
	٣٣	٢١٣	٩ــ١٠
	٤٣	٨	٩
			١٢
		١٧	٢٥ــ٢٦
			٢٨
	٧٩،٨٠	٢٥٩	١٤ــ١٨
	٨٣	٣	١٢ــ١٣
		٢٣	٢٠
		٢٤	٤
	٨٤،٨٥	٢٤	٥ــ٩
	٩٧	١٤٩	١ــ٢
	١٣٧	٥٠	١
			١٧ــ١٨

السورة	الآية	ص	س
	٢٣،٢٢	٢٢١	١ـ٣
	٣٩	٧٧	٢
	٤٣	١٤٥	٣ـ٤
			١١
	٥٧	٩٧	١٥ـ١٦
		١٤٥	١٧
	٩٥،٩٤	٥٧	١٠ـ١١
	١٠٥،١٠٤	٢١٢	٦ـ٨
	١٤٣	٢٢٢	٦ـ٧
	١٤٥	١٣٦	١٨ـ٢٠
	١٤٦	٢٢٩	١ـ٤
	١٥١	٢٢٢	٥ـ٦
	١٥٥	١٣٨	٥ـ٦
	١٥٥ـ١٥٧	٢٢٢	١٠ـ١٦
	١٦١	٢٨ـ٢٩	٢١ـ٢(ص٢٩)
		٢٩	٣
			٤ـ٥
	١٦٨	٥٧	١٦
	١٧٢	١١	١٠ـ١١
	١٧٦،١٧٥	٢٢٩	٥ـ٩
	١٨٠	١٧١	٦ـ٧
الأنفال	٥٠ـ٥٢	١٣٥	٦ـ١٠
	٥٢	١٣٤ـ١٣٥	١٧ـ١(ص١٣٥)
		١٣٥	١٠ـ١١

السورة	الآية	ص	س
	٥٣	١٣٤	١٢ـ١٣
	٥٣،٥٤	١٣٥	٢ـ٣
	٥٤	١٣٥	٥
	٦٤	٨٩	٢٠ـ٢١
التوبة	٥	٢٣٩	٩ـ١١
	١٦	١٨٣	٨ـ٩
	١٩ـ٢٢	٢٥٢ـ٢٥٣	١٦ـ١(ص٢٥٣)
	٣٠،٣١	٢٥٩ـ٢٦٠	١٩ـ٢(ص٢٦٠)
	٣١	٢٦٠	٢٠ـ٢١
	١٠٢ـ١٠٦	٢٢٣	٩ـ١٧
	١١٧،١١٨	٢٢٠	٩ـ١٤
		٢٦٨	١٤ـ١٩
	١٢٤،١٢٥	٢٤٨ـ٢٤٩	٢٠ـ٣(ص٢٤٩)
	١٢٦	٥٧	٥ـ٦
يونس	١٢	٢٥ـ٢٦	٢٢ـ١(ص٢٦)
	٦٢،٦٣	٢٦٧	٧ـ٨
	٦٨	٤	٢٠ـ٢٢
	٧١	٩٦	١ـ٣
			١١ـ١٣
			١٥
	٧٢	٢٣٤	١٣ـ١٤
	٨٤	٢٣٤	١٠
	٨٨	٢٠٧	١٣ـ١٥
	٨٩	٢٠٨	١

سورة	الآية	ص	س
	٩٠	٢٠٣	٧ـ٨
		٢٠٧	٧ـ٩
	٩١	٢٠٧	١٠ـ١١
	٩١،٩٢	٢٠٨	١٦ـ١٧
هود	١	١٦٢	٦ـ٧
	١ـ٣	٢١٩	٨ـ١٢
	٧	٢٥٧	١٠
	٩ـ١١	٨٤	٤ـ٧
	١٨ـ٢٠	٢٤٦	١ـ٦
	٢٤	٢٤٣	٣ـ٤
	٤٥	١٢٧	٣ـ٤
			٢٤ـ٢٥
	٤٧	٢٢١	١٠ـ١١
		٢٦٦	١٨ـ١٩
	٥٢	٢٢١	١٢ـ١٤
	٥٤ـ٥٦	٩٦	٥ـ٨
	٥٥،٥٦	٩٦ـ٩٧	٢٠ـ١(ص٩٧)
	٥٦	٢٥	١٦ـ١٧
	٦١	٢٢١	١٤ـ١٥
	٨٨	٨٢	١٣ـ١٤
		٩١	٩ـ١٠
	٩٠	٢٢١	١٦ـ١٧
	٩٦ـ٩٩	٢١٥	١٢ـ١٣
	٩٨	٢١٣	٤

السورة	الآية	ص	س
	١٢١،١٢٢	٢٢١	٥ـ٦
		٢٣٥	١٧
الأنبياء	١٦	١٩	١٦
			٢٤
	١٦ـ٢٦	١٩	٧ـ٩
	١٧	١٩	١٧
		٢١	١٥ـ١٦
	١٨	٢١	١٣
		٢٢	١ـ٢
	١٩،٢٠	٢٢	٣ـ٤
	٢٦ـ٢٨	١٩	٧ـ٩
	٢٦ـ٢٩	٥	١ـ٢
		٢٢	٦ـ٩
	٣٣	٣٧	٤ـ٥
	٣٥	٧٧	٣
	٥٢ـ٥٦	٢٠	٣ـ٦
	٥٥	٢٠	٧
	٨٣	١٣٧	١١
	٨٧،٨٨	٢٧٠	٥ـ٨
الحج	١٨	٤	٣ـ٥
		٣٨	٣ـ٤
		٣٩	١١ـ١٣
		٤٠	
			٥ـ٦

السورة	الآية	ص	س
		٤١	٣
		٤٢	١٣ـ١٤
		٤٤	٢ـ٣
	٣٨	٩٧	١٠
		١٣٢	٥
			١٩
	٥٢،٥٣	٢٦٩	١٠ـ١٣
	٥٣	٢٧٦	٨ـ٩
	٧٧	١٣٧	١ـ٢
المؤمنون	٥١،٥٢	٢٨٣	٣ـ٤
	٥١ـ٧٦	٥٨	٧ـ١٣
	٦٠	٢٥٦ـ٢٥٧	١٨ـ١(ص٢٥٧)
	٧١	٨٤	١١ـ١٢
	٧٦	١٣٥	١٩ـ٢٠
	٧٦ـ٧٧	٥٧	١ـ٢
	٨٨	١٣٢	٧ـ٨
	١١٥	١٩	٢٣
	١١٨	١٣٧	١٢ـ١٣
النور	٣١	٢٢٠	٧
		٢٥٨	١٠ـ١١
	٤١	٤	١٣ـ٤١
		١١	٢ـ٣
		٢٨	٨ـ١٠
		٤٢	١٢

السورة	الآية	ص	س
ص	١٢ـ١٤	٢٠٩	١٣ـ١٤
	١٧ـ٣٥	٢٧٠	٩ـ١٤
	١٨	٤٣	١١
	١٩	٤٣	١٢
	٢٣	٣٢	١٩ـ٢٠
	٢٤	٣٣	١٢ـ١٣
		٣٥	١٨
		٣٦	١
	٢٧	١٩	١٩ـ٢٠
	٢٨	٩٨	٣ـ٤
		١٢٤	٦ـ٧
الزمر	٧	١٤٨	١٣ـ١٥
	٩	٥	٤ـ٥
		٦	١٢
		٨	١٥
		٢٤٢	١٤ـ١٥
	١٨	١٣٦	٢٠ـ٢١
	٢٣	١٣٧	٥
	٣٣ـ٣٥	١٥٠	١٦ـ١٧
		٢٥٩ـ٢٦٠	١٧ـ٢(ص٢٦٠)
		٢٦٨	٥٣
	٣٦	٩٥	١١ـ١٢
	٣٨	٩٥	١٣
			٢١

السورة	الآية	ص	س
	٤٣، ٤٤	٢٦٥	١٦ـ١٨
	٥٣ـ٥٥	٢١٩ـ٢٢٠	١٣ـ١(ص٢٢٠)
	٥٥	١٣٦ـ١٣٧	٢١ـ١(ص١٣٧)
غافر	١ـ٣	٢٢٣	٣ـ٥
	٢٣ـ٢٨	٢١٠	٧ـ١٥
	٢٦	٢١١	٥
	٢٨	٢١٤	٨
	٣٥، ٣٦	٢٠٤ـ٢٠٥	١٤ـ٢(ص٢٠٥)
	٣٦، ٣٧	٢١٠	١٥ـ١٨
	٣٧	٢١١	١
		٢٣١	٦ـ٧
		٢٣٢	١٢ـ١٣
	٤١، ٤٢	٢١٤	٩ـ١٠
	٤٥، ٤٦	٢١٤	١٣ـ١٥
	٤٦	٢١٣	٦
		٢١٤	٥
	٤٧، ٤٨	٢١٤ـ٢١٥	١٧ـ١ (ص٢١٥)
	٦٥	١٠٨	٥ـ٦
	٨٢ـ٨٥	٢٠٨	٤ـ١٠
	٨٥	٤٩	١٥
فصلت	١١	٤٠	١١
	٤٦	١٤٨	١٢ـ١٣
الشورى	١٠	٨٢	١٣ـ١٤
	١٣	٢٨٣	٦ـ٧

السورة	الآية	ص	س
	٢١	٢٨٤	٥
	٢٥، ٢٦	٢٢٣	٦ـ٨
	٣٠	٢٧	٦
		١٣٤	١٠-١١
الزخرف	٢٢، ٢٣	٢٨٣	٥
	٣٦، ٣٧	٢٣١	٢ـ٣
	٥٩	٢٢	١١
الدخان	١٩	٢٣٤	١
	٢٩	٣٧	٩
	٣٠	١٣٧ـ١٣٨	١٩ـ١ (ص١٣٨)
	٣٢، ٣٣	١٣٨	٢ـ٣
	٣٨، ٣٩	١٩	١٨
	٥٧	١٥٩	١
الجاثية	١٣	١٠٧	١١
	١٦	١٣٨	٤
	٢١	١٢٤	٨ـ٩
	٢٣	١١٣	١
الأحقاف	١٦	١٥٠	١٣ـ١٤
		٢٥٩	٤ـ ٥
محمد	١٧	٢٢٩ـ٢٣٠	١٩ـ١ (ص٢٣٠)
	١٩	٢٢٢	١٨ـ١٩
		٢٧٠	٣ـ٤
	٢٨	٢٤٨	١٩ـ٢٠
	٣١	١٨٣	١٢ـ١٣

سورة	الآية	ص	س
الفتح	٢،١	٢٢٢	٢٠ـ٢١
	١ـ٣	١٠٠	٦ـ٨
	٢٢، ٢٣	٤٩	١٧ـ١٩
الحجرات	٧	٨٤	١٣ـ١٤
ق	٨	١٦	٦
	١٢ـ١٤	٢٠٨ـ٢٠٩	٢١ـ١(ص٢٠٩)
الذاريات	٥٦	٩١	١٩
	١ـ٤	٢٢٨	١٥ـ١٦
	٢٣	٢٤١	١ـ٢
			١١ـ١٢
	٣١،٣٢	٢٦٨	٩ـ١٣
	٣٢	٢٢٦	٤
			٢٢ـ٢٣
	٣٦	١٢٦	١١
	٣٦ـ٤١	١٢٦	٨ـ١٠
القمر	٣٤	٢١٣	١١
	٤١، ٤٢	٢١٤	٣ـ٤
	٤٣	٥٦	١٣ـ١٤
الواقعة	٧ـ١٢	٢٢٧	٨ـ١٠
	٢٢ـ٢٤	١٤٥	١٤ـ١٥
	٦١، ٦٢	٧٧	٦ـ٧
	٨٨ـ٩٤	٢٢٧	١١ـ١٤
الحديد	١	٤	٩ـ١٠
	١٠	٢٥٢	١٣ـ١٥

السورة	الآية	ص	س
	٩، ١٠	٢٠٩	١٥-١٦
	٢٤	٩٧	١٦-١٧
		١٤٥	١٢
	٤٠-٤٢	١٥٩	٤-٦
نوح	١٠، ١١	٢٢١	٧-٨
	٢٢	١٦٦	١
	٢٣	١٦٦	٤-٥
الجن	١٩	٩٥	١٩
المزمل	٨، ٩	٨٩	٩-١٠
		٩١	٨-٩
المدثر	١١	١٧٨-١٧٩	١٠-١ (ص١٧٩)
	٥٥، ٥٦	٧٧	١٧-١٨
الإنسان	١، ٢	٦٩	١٤-١٦
	٣	٦٩	١٧
	٣-٦	٢٢٧	١٦-١٩
	٤	٧٠	٢٠
	٤-٦	٦٩	١٨-١٩
	٧	٧٣	١
	٧-٩	٧١	١٨-٢٠
	٨	٧٢	٩
	١٠	٧١	٢٥
		٧٢	١٩-٢٠
	١١	٧٠	١٨-١٩
	١٧	٧٠	٢٢

السورة	الآية	ص	س
	٢١	٧٠	٢٣
		٧٣	٢٢ـ٢٣
	٢٢	٧٤	١٩
	٢٣، ٢٤	٧٤	٢١ـ٢٢
	٢٤	٧٥	١٧
	٢٥، ٢٦	٧٥	١٩ـ٢٠
	٢٧	٧٥	٢١
	٢٨	٧٥	٢٢
		٧٦	٢٥
	٢٩	٧٧	١٢
	٣٠	٧٧	١٣
			١٥
			١٦
	٣١	٦٩	٢١
النازعات	٢١ـ٢٤	٢١١	٩ـ١٠
	٢٤	١٥٧	١
			٩
		١٦٧	٤ـ٥
			٩
	٢٥، ٢٦	٢١١	١١ـ١٢
التكوير	١٩ـ٢١	١٥٩	٧ـ٨
	٢٨، ٢٩	٧٧	١٩
المطففين	٧ـ٢٨	٢٢٧ـ٢٢٨	٢٠ـ٢(ص٢٢٨)
	١٤	٢٢٦	٢ـ٣

فهرس الأحاديث النبوية *

الحـــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت**
(١)	عبد الله بن عمر عن عمر ابن الخطاب	١٧٧-١٧٨	١٤-٢	(١)
١ - « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ... » - حديث الإسلام والإيمان والإحسان وفيه الـكلام عن غلاة القدرية .				
٢ - « أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة ... لا تخبرهما يا على » .	على بن أبى طالب	٢٦١-٢٦٢	١١-٢	(١) ، (٢)
٣ - « أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى ... » - انظر : « سيد الاستغفار .. » الحديث رقم ٧٠ .	شداد بن أوس	١١٧	١	(١)
٤ - « أحبوا العرب لثلاث ... » .	ابن عباس	٢٨٧-٢٨٨	١٣-٢	(١)
٥ - « أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم .... فتلك عبادتهم إياهم » - وأوله : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب من ذهب . فقال : ياعدى اطرح عنك .. »	عدى بن حاتم	٢٦٠	٤-٦	(١)
٦ - « أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان ... » - الحديث عن إنطاق الله لبنى آدم وإشهادهم على أنفسهم .	ابن عباس	١٢	٥-٦	(٤)
٧ - « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ... » .	عمرو بن العاص	٢٣٩	١٤-١٥	(٢)
	وعبد الله بن عمر	٢٤٣	٧-٨	

---

* الـكلام على هذه الأحاديث فى التعليقات المشار إلى أرقامها .

** ت = تعليق .

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٨ ـ « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ... » ـ الحديث عن « الزيادة » وهى النظر إليه تعالى فى الجنة .	صهيب	١١٠-١١١	١٨-٤	(١)
٩ ـ إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ... » .	أبو موسى الأشعرى	٢٤١ ٢٥٢	١٧-١٩ ٦-٧	(١)
١٠ ـ « اعلموا أن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت » ـ عبارة وردت فى أحاديث فيها الكلام عن صفة الدجال .	عبد الله بن عمر وغيره	١٩٨	٧-٨	(٤)
١١ ـ « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » ـ أوله: أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن ... » وفيه : « فقال جبريل : فقل : أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر... » وانظر الحديث رقم ٥١ .	مرسل عن يحيى ابن سعيد	١٠	١-٢	(١)
١٢ ـ « اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر » .	حذيفة وأبو الدرداء وابن مسعود	٢٦٦	١٢-١٣	(٢)
١٣ ـ « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء » .	أبو هريرة	٣٣	٢-٣	(٢)
١٤ ـ « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب » وأوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته .. » .	أبو هريرة	٢٧٧-٢٧٨	١١-١	(١)

الحـــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٥ ـ « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ... ».	أبوموسى الأشعرى	٢٧٦ـ٢٧٧	١٩ـ٢	(١)
١٦ ـ « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ... » ـ دعاء فى السجود .	أبو هريرة	٣٢	١٣ـ١٤	(٣)
١٧ ـ « اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرا ... » ـ دعاء فى السجود .	ابن عباس	٣٤	١ـ٧	(٢)
١٨ ـ « اللهم أنت الملك لا شريك لك ... » ـ وأوله : « وجهت وجهى للذى فطر ... » وانظر رقم ٥٩ ، ١١٨	على بن أبى طالب	٢٧٧	٣ـ١٠	(٣)
١٩ ـ « اللهم إنا نستعينك ونستهديك » ـ فى القنوت .	عمر بن الخطاب	١١٧	٣ـ٤	(٤)
٢٠ ـ « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك .. » دعاء فى السجود .	عائشة	٣٢	١٤ـ١٦	(٤)
٢١ ـ « اللهم صلى على آل أبى أوفى .. ».	عبدالله بن أبى أوفى	٢١٣	١٣ـ١٤	(١)
٢٢ ـ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ... ».	جماعة من الصحابة	١٥	٥ـ٧	(١)
٢٣ ـ « أنا عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة عربى » .	أبو هريرة	٢٨٨	٩ـ١٠	(١)
٢٤ ـ « إن إبليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك ... » .	أبو سعيد الخدرى	٢٣٥ـ٢٣٦	٢٠ـ٣	(١)
٢٥ ـ « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى .. » .	أبو برزة الأسلمى	٢٢٩	٩ـ١٠	(١)
٢٦ ـ « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا ... » .	ابن عباس	٢٥٠	٨ـ١٠	(١)

الحـــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٢٧ - « إن بين يدى الساعة ثلاثين دجالين ... » - وانظر رقم ٩٤	أبو هريرة وابن عمر	٢٧٣	٧-٨	(١)
٢٨ - « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » .	أبو هريرة	١٤٧	٢٥-٢٧	(٢)
٢٩ - « إن العبد إذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء .. » .	أبو هريرة	٢٢٥-٢٢٦	١١-٣	(١)
٣٠ - « إن الله اختار من الأيام يوم الجمعة ... » .	مرسل عن كعب الأحبار	١٣٨	٦-٩	(١)
٣١ - « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم ... » .	العباس بن عبد المطلب	٢٨٧	١-٧	(١)، (٢)
٣٢ - « إن الله خلق للجنة أهلا وخلقهم لهم .. » - وفى مسلم : « .. وخلقهم لها .. » .	عائشة	١٤٦	٧-٩	(٢)
٣٣ - « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ... » .	أبو موسى الأشعرى	٢٢٤	٤-٥	(٤)
٣٤ - « إن الله عز وجل خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ... » .	أبو هريرة وعمر ابن الخطاب	١٢	١-٤	(١)، (٢)
٣٥ - « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ... » - وانظر رقم ٨٨ .	عقبة بن عامر	٢٠	١٢-١٣	(١)
٣٦ - « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ... »	أنس وجابر	٢٤١-٢٤٢	١٩-٢	(١)
٣٧ - « إن تغفر اللهم تغفر جما ... » .	ابن عباس	٢٢٦	٤-٦	(٢)
٣٨ - « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ... » .	أبو هريرة	١٧٩	١٢-١٣	(٢)

الحديث	الصحابي الراوي	ص	س	ت
٣٩ ـ « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ... » .	جابر	١٤٧	٢٩ـ٣١	(٢)
٤٠ ـ « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق » .	أنس	١٤٧	٢٨، ٢٩	(٢)
٤١ ـ « .. إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا » .	أبو قتادة	٢٦٦ـ٢٦٧	١٣ـ١	(١)
٤٢ ـ « .. إنك تأتى قوماً أهل كتاب ... » .	ابن عباس	١٥	٧ـ١١	(٢)
٤٣ ـ « إنكم لن تبلغوا نفعى . . . » ـ حديث قدسى أوله : « ياعبادى إنى حرمت الظلم .. » ولفظ الحديث هنا : « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى ... الخ » . وانظر الحديث رقم ٧٨ .	أبو ذر	١٤٨	٩ـ١٠	(١)
٤٤ ـ « إنما الطاعة فى المعروف » وأوله : « لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا ، إنما الطاعة . . » .	على	٢٧٤	٤ـ٧	(٣)
٤٥ ـ « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد » . ولفظ الحديث فى البخارى : « أنا أولى الناس بعيسى .. الخ » .	أبو هريرة	٢٨٣	٢	(١)
٤٦ ـ « .. إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله ... » .	الأغرّ المزنى	٢٢٤	١ـ٢	(٢)
		٢٧٨	١٠ـ١١	(٦)
٤٧ ـ « إنى أعلمكم بالله وأشدكم خشية له .. » وأوله : واللفظ للبخارى ـ « مابال	عائشة	١١٥	١٤ـ١٥	(٢)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه فوالله إنى لأعلمهم ... » .				
٤٨ ـ « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ ... » .	جابر بن سمرة	٤٢	١٥-١٧	(٢)
٤٩ ـ « أول ما خلق الله العقل . . . » ـ حديث موضوع .		١٦٨	٤-١١	(١)
(ب)				
٥٠ ـ « بسم الله » ـ وأوله عن على أنه أتى بدابة ليركبها ... قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع كما صنعت ... » .	على	٢٧٩	٤-١١	(٢)
٥١ ـ « بلى » أول الحديث رقم ١١ . . . أعوذ بكلمات الله ...	مرسل عن يحيى ابن سعيد	١٠	١-٢	(١)
(ت)				
٥٢ ـ التعوذ من شر فتنة المسيح الدجال بعد التشهد الأخير .	جماعة من الصحابة	١٩٧	٨-٩	(٣)
(ح)				
٥٣ ـ « الحمد لله نستعينه ونستغفره . . » ـ من خطبة الحاجة .	ابن مسعود	١١٧	٣	(٣)
٥٤ ـ حديث حنين الجذع : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاه فمسح يده عليه » .	ابن عمر	٤٢	١٧	(٣)

الحــــــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(خ)				
٥٥ ـ « خصلتان يسأل عنهما كل أحد ... أوله : قال أبو العالية : «قوله:(فوربك لنسألنهم أجمعين ...) .. الخ » ـ أثر بمعنى حديث مروى عن أنس .	أثر عن أبى العالية	٢٤	٩-١٢	(١)
٥٦ ـ « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا » .	سفينة	٢٦٧	٤	(٤)
٥٧ ـ « خير أمتى بعدى أبو بكر وعمر » .	على والزبير	٢٦٢	١٦-١٩	(١)
٥٨ ـ « خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ... » .	جماعة من الصحابة	٢٥٣	٤-٥	(٢)
٥٩ ـ « والخير كله فى يديك والشر ليس إليك » من حديث دعاء الاستفتاح وأوله : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات ... ». وانظر رقم ١٨ ، ١١٨.	على	١٢٦	١٦-١٧	(٢)
(د)				
٦٠ ـ الدجال الكبير ـ بعض أخباره . وانظر رقم : ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .	جماعة من الصحابة	١٩٧-١٩٨	١٧(ص١٩٧) ـ٨(ص١٩٨)	(١،٢)
(ر)				
٦١ ـ « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها» انظر الحديث رقم ٧٢.	ابن عباس	٣٣ــ٣٤	١٦ ـ ١	(١)
٦٢ ـ « رب اغفرلى وتب علىّ إنك أنت التواب الغفور » .	ابن عمر	٢٢٦	٧-٩	(٣)
		٢٧٨	١١-١٣	(٧)

الحديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٦٣ ـ قوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال تعالى : قدفعلت»	أبوهريرة وابن عباس	٢٣٩	١٤_١٣	(١)
٦٤ ـ « ربنا ولك الحمد ملء السماوات » ـ الحديث فيما يقال بعد رفع الرأس من الركوع .	جماعة من الصحابة	١١٧	٩_٤	(٥)
(ز)				
٦٥ ـ حديث زريب بن برثملى وهامة ابن الهيم ـ حديث موضوع .	نسب إلى ابن عمر	١٣—١٢	٢—٧	(١)
(س)				
٦٦ ـ « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلى » ـ كان صلى الله عليه وسلم يقولها فى ركوعه وسجوده يتأول القرآن .	عائشة	٣٣—٣٢	١—١٦	(١)
		٢٧٨	٤ — ٢	(٢)
٦٧ ـ سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت . . . » ـ الحديث فى كفارة المجلس .	جماعة من الصحابة	١١٨	٣ — ٢	(١)
٦٨ ـ « سجدها داود توبة ونحن نسجدها شكراً » ـ السجود فى آية ٢٤ من صورة ص ، وانظر الحديث رقم ١١٥ .	ابن عباس	٣٣	١٥—١٣	(٤)
٦٩ ـ سجود الآيات ـ وفيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتم آية فاسجدوا . . » الخ .	ابن عباس	٣٦	١٠	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	ص	ت
٧٠ ـ « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . . . أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى » ـ وانظر الحديث رقم ٣.	شدّاد بن أوس	١١٧	١	(١)
(ش)				
٧١ ـ حديث الشفاعة .	جماعة من الصحابة	١٥٠	٧ ـ ٩	(٢)
(ص)				
٧٢ ـ « صۤ ليس من عزائم السجود وقد رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسجد فيها » ـ وانظر الحديث رقم ٦١ .	ابن عباس	٣٣ ـ ٣٤	١٦ ـ ١	(١)
٧٣ ـ أحاديث صفة الدجال الكبير : أنه أعور ، وأنه مكتوب بين عينيه كافر ... الخ ـ وانظر الحديث رقم ٦٠ .	أنس	١٩٨	٥ ـ ٧	(٣)
٧٤ ـ صلّوا كما رأيتمونى أصلى » . وأوله : حدثنا مالك : أتينا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون... الخ .	مالك بن الحويرث	٨١	١١ ـ ١٣	(٤)
(ط)				
٧٥ ـ « طول القنوت » ـ وأوله : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصلاة أفضل ؟ فقال : طول القنوت » .	جابر	٥	٧ ـ ٨	(١)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(ع)				
٧٦ - « على المرء المسلم السمع والطاعة . . . »	ابن عمر	٢٧٤	٥—٧	(٣)
٧٧ - « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى . . . »	العرباض بن سارية	٢٦٧	٢—٣	(٣)
(ف)				
٧٨ - « . . فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غيرذلك . . . » - جزء من الحديث القدسى فى تحريم الظلم ، وأوله : « ياعبادى إنى حرمت ... » وانظر الحديث رقم ٤٣ .	أبو ذر	١١٧	١—٣	(٢)
(ق)				
٧٩ - « قال الله لهم : ادخلوا الباب سجداً . . . » .	أبو هريرة	٣٠	٣—٥	(١)
٨٠ - « قالوا : حطى سمقاثا . . . » - أثر موافق لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .	ابن مسعود	٣٠—٣١	١٢—٣	(١)
٨١ - « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين . . . »	أبو هريرة	٢٧٢	٦—١٢	(٢)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(ك)				
٨٢ ـ كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى على راحلته قِبَلَ أى وجه توجهت به ويوتر عليها ، غير أنه لا يصلى عليها المكتوبة.	جماعة من الصحابة	٣٥	١ ـ ٣	(١)
٨٣ ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال : اللهم أنت السلام .. الخ .	ثوبان	٢٥٨	١ ـ ٢	(١)
٨٤ ـ كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا فى نواحيها . . . فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال : السلام عليك يارسول الله .	على بن أبى طالب	٤٢ ـ ٤٣	١٧ ـ ٣	(٢)
٨٥ ـ « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » (وبنفس المعنى استحباب ابتداء كل خطبة بحمد الله) .	أبو هريرة	١٠٨	٣ ـ ٤	(١)
٨٦ ـ « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .	أنس	٢٢٥	١٠ ـ ١١	(٥)
		٢٥٨	١٥ ـ ١٦	(٢)
٨٧ ـ « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة »	أبو سعيد الخدرى	٧	١٢ ـ ١٣	(١)
		٩	٩ ـ ١٠	
٨٨ ـ « كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل . . . » وانظر الحديث رقم ٣٥ .	عقبة بن عامر	٢٠	١٢ ـ ١٣	(١)
٨٩ ـ « كل معروف صدقة » .	جابر	٨٣	٧ ـ ٨	(٣)

الحـــــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
٩٠ ـ « كل مولود يولد على الفطرة ...»	جماعة من الصحابة	١١	١٣	(٣)
		٢٤٤	١ ـ ٤	(١)
(ل)				
٩١ ـ « لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . » ـ وأوله : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة . . . » الخ .	ابن عمر	٢٧٨ـ٢٧٩	١٤ ـ ٣	(١)
٩٢ ـ « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .	أبو ذر	٨٣ ـ ٨٤	١٥ ـ ١	(١)
٩٣ ـ « لا تسبوا أصحابى. . . »	أبو سعيد الخدرى وأبو هريرة	٢٥٣	٢ ـ ٤	(١)
٩٤ ـ « لا تقوم الساعة حتى يكون فيكم ثلاثون دجالون . . . » ـ وانظر الحديث رقم ٢٧ .	أبو هريرة وابن عمر وثوبان	١٩٧	٥ ـ ٦	(١)
٩٥ ـ « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »	النواس بن سمعان	٢٧٤	٥	(٢)
٩٦ ـ « لا هجرة بعد الفتح . . . »	ابن عباس وعائشة	٢٥٤	٢ ـ ٤	(١)
٩٧ ـ « لا يابنت الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى . . . » وهو إجابة عن معنى الآية رقم ٦٠ من سورة « المؤمنون» .	عائشة	٢٥٧	١ ـ ٤	(١)
٩٨ ـ «لتركبن سنن من كان قبلكم . .» . لفظ البخارى ومسلم : « لتتبعن سنن من كان قبلكم . . . » .	جماعة من الصحابة	٢٧١	١٢ ـ ١٤	(١)

الحديث	الصحابي الراوي	ص	س	ت
٩٩ ـ « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » ـ ولفظ البخاري : « يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً . . . »	أبو موسى الأشعري	٢١٣	١٣ ـ ١٤	(٢)
١٠٠ ـ « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » ـ وأوله : « قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي . . » وفيه : « أترون هذه طارحة ولدها في النار . . . الخ »	عمر بن الخطاب	١٢٧	١ ـ ٣	(١)
١٠١ ـ « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه . . »	جماعة من الصحابة	٢٢٤ ـ ٢٢٥	٥ ـ ٩ ١ ـ ٢	 (١)
١٠٢ ـ « لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج . . . » ـ متواتر روى بمعناه هو والحديث السابق عن عدد من الصحابة	جماعة من الصحابة	٢٢٥	٣ ـ ١٠	(٢) (٣) (٤)
١٠٣ ـ «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله..» ـ أوله : سددوا وقاربوا وأبشروا . . .	عائشة وأبو هريرة وجابر	١٤٥ ١٤٦ ـ ١٤٧	٥ ـ ٦ ١٤ ـ ٢	 (١،٢)
١٠٤ ـ « لو اتفقتما على شيء لم أخالفكما » .		٢٦٧	١	(٢)
(م)				
١٠٥ ـ « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان . . . » .	عدى بن حاتم	٨٣	١٠ ـ ١٤	(٤)
١٠٦ ـ « ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار . . » وفي رواية : « . . . إلا وقد كتب . . . » .	على بن أبى طالب	٩٣ ١٤٦	٤ ـ ٩ ٣ ـ ٧	(١) (١)

الحـــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٠٧ ـ « من بدّل دينه فاقتلوه » .	ابن عباس	٢٦١	٢ ـ ٥	(٢)
١٠٨ ـ « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » .	أبو هريرة	٢٢٤	٥ ـ ٦	(٥)
١٠٩ ـ « من تكفل لى بما بين لحييه ومابين رجليه . . . » ـ وفى رواية : « من يضمن لى . . . » وفى أخرى : « من توكل لى . . . » .	جماعة من الصحابة	٢٣٠	١١ ـ ١٣	(١)
١١٠ ـ « من خير الناس بعد رسول الله . . . » ـ خبر روى موقوفا ومرفوعا .	على بن أبى طالب	٢٦١	٧ ـ ١١	(٤)
١١١ ـ « من قال إذا أصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة . . . » .	عبد الله بن غنام	١٠٧	١٥ ـ ١٩	(٢)
١١٢ ـ « من قال حين يصبح : الحمد لله ربى لا أشرك به شيئاً . . . » .	أبان المحاربى	١٠٨	٧ ـ ١٠	(٤)
١١٣ ـ « من نوقش الحساب عذب . . . »	عائشة	١٥٠	٣ ـ ٦	(١)
١١٤ ـ « منك وإليك » ـ أوله : كان صلى الله عليه وسلم إذا ذبح أضحيته قال : . . . » الخ ـ وفى رواية : اللهم منك ولك عن محمد وأمته » .	جابر	٨٢	١٤ ـ ١٥	(٥)
(ن)				
١١٥ ـ « نبيكم ممن أمر أن يقتدى به ، سجدها داود فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » ـ وانظر الحديث رقم ٦٨ .	ابن عباس	٣٣	١٥ ـ ١٦	(٥)

الحـــديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
(هـ)				
١١٦ ـ « هذا رجل لا يحب الباطل » ـ وأوله : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت . . . » .	الأسود بن سريع	٢٠	١٦ ـ ١٨	(٢)
١١٧ ـ « هى من قدر الله » ـ وفيه : « يارسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها . . . هل ترد من قدر الله شيئاً . . » .	أبو خزامة	٩٣	١٥ ـ ١٦	(٣)
(و)				
١١٨ ـ « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض . . . » ـ الحديث فى دعاء الاستفتاح ـ وانظر الحديث رقم ١٨ والحديث رقم ٥٩ .	على بن أبى طالب	١٢٦	١٦ ـ ١٧	(٢)
١١٩ ـ « يا أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة . . . » وأوله : كشف النبى صلى الله عليه وسلم الستارة . . . الخ .	ابن عباس	٣٣	٣ ـ ٨	(٣)
١٢٠ ـ « يا أبا ذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ . . . » .	أبو ذر	٣٦	١٢ ـ ١٦	(٢)
١٢١ ـ « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » . وفى رواية « . . إلى ربكم . . » .	ابن عمر	٢٢٣ـ٢٢٤	١٨ ـ ١	(١)
		٢٧٨	٩ ـ ١٠	(١)

الحديث	الصحابى الراوى	ص	س	ت
١٢٢ ـ « يابغايا العرب ، يابغايا العرب ، إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية » وفى لفظ : الرياء .	عبد الله بن زيد وبمعناه عن شداد ابن أوس	٢٣٢ ـ ٢٣٣	١٤ ـ ٣	(١)
١٢٣ ـ « ياسلمان لا تبغضنى فتفارق دينك . . . » .	سلمان	٢٨٧	١٠ ـ ١٢	(٣)
١٢٤ ـ « يامالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين » وأوله : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزاة . . . » .	أبو طلحة	٨٢	١٠ ـ ١١	(٤)
١٢٥ ـ « يامعشر العرب لتفضيل رسول الله إياكم . . . » .	سلمان	٢٨٨	٥ ـ ٧	(٢) (٣) (٤)
١٢٦ ـ يأمر (الدجال) السماء فتمطر والأرض فتنبت ـ الحديث فى صفة الدجال وأوله : « ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة » وانظر الحديث رقم ٥٩ .	النواس بن سمعان	١٩٧ـ١٩٨	٩ ـ ١	(١)
١٢٧ ـ « . . . يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم . . . » حديث الخوارج وأوله : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما . . . » .	أبو سعيد الخدرى	٢٣١	١٢ ـ ١٦	(١)
١٢٨ ـ يقتل الدجال رجلا مؤمنا ثم يقول: قم ـ الحديث فى صفة الدجال وأوله : « حدثنا رسول الله صلى عليه وسلم يوما . . . » وانظر الحديث رقم ٥٩ .	أبو سعيد الخدرى	١٩٨	١ ـ ٤	(٢)

الحديث	الصحابي الراوى	ص	س	ت
١٢٩ ـ يقتل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام الدجال ـ خبر مروى فى أكثر من حديث ، وانظر الحديث رقم ٥٩ .	جماعة من الصحابة	١٩٧	٧	(٢)
١٣٠ ـ « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » ـ جزء من حديث الخوارج السابق ، وانظر رقم ١٢٧ .	أبو سعيد الخدرى	٢٣٢	٢ ـ ٤	(١)
١٣١ ـ « يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون يحدثونكم . . . »	أبو هريرة	١٩٨ـ١٩٩	١٠ ـ ١	(١)

فهرس الشعر واللغة

(ا) الشعر

صدر البيت	عجزه	بحره	عدد الأبيات	قائله	ص	س	ت
أتهجوه	الفداء	وافر	١	حسّان بن ثابت	١٣٣	٧	(١)
وصاحب	أجرُ	طويل	١	—	١٢٤	١٢	(٢)
إذا	أعتذرُ	بسيط	١	البحترى	٢٥٦	١٥، ١٦	(١)
بجيشٍ	للحوافرِ	طويل	١	زيد الخيل	٣٨	١٣	(٢)
					٤١	١٩	
					٤٤	٢٢	
وكلتاهما	تحتّفِ	طويل	١	أبو الأخزر الحمانى	٣٩	٧	(٤)
من	مختالا	بسيط	١	الأخطل	٧٦	٢	(٢)
مقام	الولِى	متقارب	١	ابن عربى	٢٠٩	١٠	(١)
ما	ذمّ	منسرح	٢		١٠٥	١٠، ١١	(٤)
إن	ألمّا	رجز	٢		٢٢٦	٦	(٢)
وكل	ونظامُهُ	طويل	١	ابن عربى	١٥٧	١٧	(١)

(ب) اللغـــة



فهرس الأعلام*

(*) الأرقام التى بين الأقواس تشير إلى الصفحات التى ترجمت فيها للأعلام .

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس القبائل والفرق والطوائف

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ش)

(ص)

(ض)

(ظ)

(ع)

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس المصطلحات والبحوث الفرعية(*)

* هذا الفهرس يتضمن بعض المصطلحات والبحوث التى لم يشر إليها فى فهرس الموضوعات .

الصفحة

(ح)

(ص)

(ع)

(ق)

فهرس الكتب

فهرس مراجع التحقيق

(ا)

الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، ط. المنيرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

ابن حنبل ، للشيخ محمد أبي زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٧ .

الإحكام في أصول الأحكام ، لسيف الدين علي بن أبي علي بن محمد الآمدي ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٣٣٢/١٩١٤ .

إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ، ط . لجنة نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ، ١٣٥٦ — ١٣٥٧ .

أخبار الحكماء = تاريخ الحكماء .

أخبار الحلاج ، لعلي بن أنجب الساعي ، تحقيق ماسينيون وكراوس ، باريس ، ١٩٣٦ .

الأخلاق عند الغزالي ، د . زكي مبارك ، ط . دار الكتاب العربي ، القاهرة ، بدون تاريخ .

الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار ، لمحيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي ، ط . مصطفى الحلبي ، القاهرة ، ١٣٧١/١٩٥٢ .

الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني ، تحقيق د . محمد يوسف موسى والأستاذ علي عبد المنعم عبد الحميد ، ط . الخانجي ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ .

الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري القرطبي ، بذيل الإصابة لابن حجر ، ط . المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٥٨/١٩٣٩ .

الإشارات والتنبيهات ، لأبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا ، تحقيق د . سليمان دنيا ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٧ — ١٩٦٠ .

الإصابة فى تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلانى ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٩/١٣٥٨ .

أصول الدين ، لعبد القاهر بن طاهر البغدادى ، استانبول ، ١٩٢٨/١٣٤٦ .

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، لفخر الدين الرازى ، تحقيق د. على سامى النشار، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨/١٣٥٦ .

الأعلام ، لخير الدين الزركلى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٧٣ - ١٩٥٤/١٣٧٨ - ١٩٥٩ .

إعلام الموقعين عن رب العالمين ، لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، ط . المنيرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٠/١٣٦٩ .

أقسام العلوم العقلية ، لابن سينا ، ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، ط . أمين هندية ، القاهرة ، ١٩٠٨/١٣٦٦ .

إنباه الرواة على أنباه النحاة ، لأبى الحسن على بن يوسف القفطى ، تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٥٠/١٣٦٩ .

(ب)

البدء والتاريخ ، لمطهر بن طاهر المقدسى ، ط . باريس ، ١٨٩٩ — ١٩١٩ .

البداية والنهاية فى التاريخ ، لإسماعيل بن عمر بن كثير ، ط . السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢/١٣٥١ .

البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة ، لعبد الفتاح القاضى ، ط . مصطفى الحلبى ، ١٩٥٥/١٣٧٥ .

البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانات والسحر والنارنجات، للباقلانى ، ط . بيروت ، ١٩٥٨ .

(ت)

تاريخ ابن الوردى ، لعمر بن الوردى ، القاهرة ، ١٢٨٥ .

تاريخ الأدب العربى ، لكارل بروكلمان ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

تاريخ بغداد ، للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ، القاهرة ، ١٣٤٩ / ١٩٣١ .

تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لعلى ابن يوسف القفطى) ، ط . ليبزج ، ألمانيا ، ١٩٠٣ .

تاريخ حكماء الإسلام ، لظهير الدين على بن زيد البيهقى ، تحقيق الأستاذ محمد كرد على . ط . المجمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٣٦٥/١٩٤٦ .

التاريخ الكبير ، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، ط . حيدر آباد ، ١٣٦١ .

تأويل مشكل القرآن ، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٧٣/١٩٥٤ .

التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، لأبى المظفر الإسفرايينى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ١٣٥٩/١٩٤٠ .

تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، لعلى بن الحسن ابن عساكر ، ط . القدسى ، دمشق ، ١٣٤٧ .

تجريد التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ، لأبى عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمرى القرطبى ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٠ .

تذكرة الحفاظ ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، الطبعة الثالثة ، حيدر آباد ، ١٣٧٥/١٩٥٥ .

تذكرة الموضوعات ، لمحمد طاهر بن على الفتنى ، ط . المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٣ .

ترتيب مسند الطيالسى (منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود) ، للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا ، القاهرة ، ١٣٧٢ .

الترغيب والترهيب من الحديث الشريف ، لعبد العظيم بن عبد القوى المنذرى ، تحقيق مصطفى محمد عمارة ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٥٢/١٩٣٣.

التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، للدكتور أبى العلا عفيفى ، ط . المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

التعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبى بكر محمد الكلاباذى ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٨٠/١٩٦٠ .

التعريفات ، لعلى بن محمد الجرجانى (مع رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربى)، ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٧/١٩٣٨ .

تفسير البغوى (معالم التنزيل) بذيل تفسير ابن كثير ، ط . المنار ، القاهرة .

تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، ط . المعارف ، القاهرة .

تفسير الطبرى ، ط . بولاق ، القاهرة ، ١٣٢٣ .

تفسير غريب القرآن ، لابن قتيبة ، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ، ط . عيسى الحلبى ، ١٣٧٨/١٩٥٨ .

تفسير القرآن العظيم ، لأبى الفداء إسماعيل بن كثير ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٨ .

تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٧٢/١٩٥٢ .

تقريب التهذيب ، لأحمد بن على بن حجر العسقلانى ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط . دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٣٨٠/١٩٦٠ .

تميز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث ، لابن الديبع الشيبانى ، ط . محمد صبيح ، القاهرة ، ١٣٤٧ .

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، لأبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، ط . عزت العطار ، القاهرة ، ١٣٦٨/١٩٤٩ .

تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ، لأبى الحسن على بن محمد بن عراق الكنانى ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ١٣٧٨ .

تهذيب الأسماء واللغات ، لأبى زكريا محي الدين بن شرف النووى ، ط . المنيرية ، بدون تاريخ

تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى ، ط . حيدر آباد ، ١٣٢٥-١٣٢٧ .

التوحيد وإثبات صفات الرب، لأبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، ط. المنيرية ، القاهرة ، ١٣٥٣ .

تيسير الوصول إلى جامع الأصول ، لعبد الرحمن بن على بن الديبع الشيبانى ، ط . مصطفى الحلبى ، ١٣٥٣/١٩٣٤ .

(ج)

جامع الأصول من أحاديث الرسول ، لأبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزرى، تصحيح الشيخ محمد حامد الفقى،ط. السنة المحمدية ، القاهرة ،١٣٦٨/١٩٤٩.

الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، استانبول ، ١٣٢٩-١٣٣٣.

الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ، لعبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى ، ط. مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٥٨/١٩٣٩ .

الجبال والأمكنة والمياه ، للزمخشرى ، ط . النجف ، ١٣٨١/١٩٦٢ .

الجرح والتعديل ، لأبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس الرازى ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، ١٣٧١/١٩٥٢ .

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ، ط . المدنى ، القاهرة ، ١٣٧٩/١٩٥٩ .

(ح)

الحلاج شهيد التصوف الإسلامى ، للأستاذ طه عبد الباقى سرور ، ط . المكتبة العلمية ، القاهرة ، ١٩٦١ .

الحور العين ، لأبى سعيد نشوان الحميرى ، تحقيق الأستاذ كمال مصطفى ، ط . الخانجى والمثنى ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

(خ)

الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) لتقى الدين أحمد بن على المقريزى ، ط . الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٢٧٠ .

خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ، لأحمد بن عبدالله الخزرجى الأنصارى، ط . الخيرية ، القاهرة ، ١٣٢٢ .

(د)

دائرة المعارف الإسلامية .

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطى، ط . طهران ، ١٣٧٧ .

دول الإسلام فى التاريخ ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد ، ١٣٦٤ .

الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، لإبراهيم بن على بن محمد بن فرحون المالكى ، ط . مطبعة المعاهد ، القاهرة ، ١٣٥١ .

(ذ)

ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث ، لعبد الغنى النابلسى ، ط . جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٣٤/١٣٥٢ .

الذيل على طبقات الحنابلة ، لابن رجب الحنبلى ، تحقيق محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٢/١٣٧٢ .

(ر)

رجال الطوسى ، لأبى جعفر محمد بن الحسن الطوسى ، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم ، ط . الحيدرية ، النجف ، ١٩٦١/١٣٨١ .

الرد على الجهمية ، لأبى سعيد عثمان بن سعيد الدارمى ، تحقيق جوستا ويتستام ، ط . ليدن ، هولندا ، ١٩٦٠ .

الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله ، لأحمد بن حنبل ، تحقيق محمد حامد الفقى ، نشرت فى مجموعة شذرات

البلاتين من طيبات كلمات سلفنا الصالحين ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٦/١٣٧٥ .

الرد على المنطقيين ، لابن تيمية ، تحقيق عبد الصمد شرف الدين ، ط. بومباى ، الهند ، ١٩٤٩/١٣٦٨ .

الرسالة العرشية ، لابن سينا ، ضمن مجموعة رسائل الشيخ الرئيس ، حيدر آباد ، ١٣٥٤ .

رسالة فى القوى الإنسانية وإدراكاتها ، لابن سينا ، ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، الطبعة الأولى ، مطبعة هندية ، القاهرة ، ١٩٠٨/١٣٢٦ .

الرسالة القشيرية فى علم التصوف ، لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، ط . محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٤٨/١٣٦٧ .

روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات ، لميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى ، الطبعة الثانية (طبع حجر) ، طهران ، ١٣٦٧ .

الرياض النضرة فى مناقب العشرة ، لأبى جعفر أحمد المحب الطبرى ، الطبعة الثانية ، نشر الخانجى ، ١٩٥٣/١٣٧٢ .

(س)

سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . دمشق ، ١٩٥٩/١٣٧٩ .

سنن ابن ماجه ، لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ، ابن ماجه ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ط . عيسى الحلبى ، ١٩٥٤/١٣٧٣ .

سنن أبى داود ، لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٩ – ١٣٧٠ / ١٩٥٠ – ١٩٥١ .

سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (بشرح ابن العربى) ، ط . المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ، ١٩٣١/١٣٥٠ .

سنن الدارمى ، لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى ، ط . دمشق ، ١٣٤٩ .

سنن النسائى ، لأحمد بن شعيب بن على النسائى (بشرح السيوطى) ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٠/١٣٤٨ .

كتاب « السنة » ، لأحمد بن حنبل ، ط . السلفية ، مكة ، ١٣٤٩ .

(ش)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلى ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٠ .

شرح نهج البلاغة ، لعبد الحميد بن أبى الحديد، تحقيق الأستاذ أبى الفضل إبراهيم، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

شرح النووى على صحيح مسلم ، ليحي بن شرف النووى ، ط . المطبعة المصرية بالأزهر ، القاهرة ، ١٩٢٩/١٣٤٧ .

الشريعة ، لأبى محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادى الآجرى ، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٥٠/١٣٦٩ .

الشفاء ، لابن سينا ، قسم النفس (من الطبيعيات) ، تحقيق يان با كوش ، ط . مطبعة المجمع العلمى التشكوسلوفاكى ، براغ ، ١٩٥٦ .

(ص)

صحيح ابن حبان ، لأبى حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمى ، الجزء الأول ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، ط . المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٢/١٣٧٢ .

صحيح البخارى ، لمحمد بن إسماعيل البخارى ، ط . المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣١٤ .

(ط)

طبقات الأطباء = عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، لأحمد بن القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٦/١٣٧٦ .

طبقات الحنابلة ، لابن أبى يعلى ، تحقيق محمد حامد الفقى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٣٢٤ .

طبقات الصوفية ، لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق الأستاذ نور الدين شريبة ، القاهرة ، ١٩٥٣/١٣٧٢ .

الطبقات الكبرى ، لعبد الوهاب الشعرانى ، طبع مصر ، بدون تاريخ .

الطبقات الكبرى ، لمحمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى ، ط . بيروت ، ١٩٥٧/١٣٧٦ .

طبقات المفسرين ، لجلال الدين السيوطى ، ليدن ،هولندا ، ١٨٣٩ .

(ع)

عبد الله بن سبأ ، لمرتضى العسكرى ، الطبعة الثانية ، ط . دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٣٨١ .

العبر فى خبر من غبر ، للحافظ الذهبى ، ط . الكويت ، ١٩٦٠ .

العلل ومعرفة الرجال ، لأحمد بن حنبل ، ط . أنقره ، تركيا ، ١٩٦٣ .

عمل اليوم والليلة ، لابن السنى ، ط . حيدر آباد ، ١٣١٥ .

(غ)

الغزالى ، للدكتور أحمد فريد رفاعى ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٧/١٣٥٦ .

(ف)

فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى ، ط . المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٣٠٠ .

الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (وهما لجلال الدين السيوطى) ، تأليف يوسف النبهانى ، ط . مصطفى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٣٢/١٣٥١ .

الفتوحات المكية ، لمحي الدين محمد بن على بن عربى ، ط . دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ، ١٣٢٩ .

الفرق بين الفرق ، لابن طاهر البغدادى ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ، ١٣٦٧/١٩٤٨ .

فرق الشيعة ، للحسن بن موسى النوبختى ، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم ، ط . المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٣٧٩/١٩٥٩ .

الفصل فى الملل والأهواء والنحل، لأبى محمد على بن حزم ، ط . المطبعة الأدبية، القاهرة ، ١٣١٧ - ١٣٢١ .

فصوص الحكم ، لابن عربى ، تحقيق الدكتور أبى العلا عفيفى ، ط . عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٤٦ .

فلسفة المعتزلة ، للدكتور ألبير نصرى نادر ، ط . الاسكندرية ، ١٩٥٠ .

الفهرست ، لابن النديم ، ط . التجارية ، القاهرة ، ١٣٤٨ .

فهرس الخزانة التيمورية ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٦٩/١٩٥٠ .

فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ .

الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ، لمحمد بن على الشوكانى ، تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى ، ط . السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٨٠/١٩٦٠ .

(ق)

القرب فى محبة العرب ، لزين الدين العراقى ، ط . الاسكندرية ، ١٣٨١/١٩٦١ .

القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى ، لأبى حامد الغزالى ، ط . مكتبة الجندى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(ك)

الكافى ، لأبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكلينى ، تحقيق على أكبر الغفارى ، ط . مكتبة الصدوق ، طهران ، ١٣٧٧ - ١٣٨١ .

الكامل (تاريخ) ، لعلى بن محمد بن الأثير الجزرى ، ط . الحلبى ، القاهرة ، ١٣٠٣ .

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلونى ، ط . القدسى ، القاهرة ، ١٣٥١ .

كنز العمال ، لعلى المتقى بن حسام الدين الهندى ، ط. حيدرآباد ، ١٣٨١/١٩٦٠.

الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية لعبد الرءوف المناوى ، القاهرة .

(ل)

اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ، لجلال الدين السيوطى ، ط . المكتبة الحسينية المصرية بالأزهر ، ١٣٥٢.

اللباب فى تهذيب الأنساب ، لعلى بن محمد بن الأثير ، ط. القدسى ، القاهرة ، ١٣٥٧ - ١٣٦٩ .

لسان العرب ، لابن منظور .

لسان الميزان ، لابن حجر العسقلانى ، ط. حيدرآباد ، ١٣٢٩ .

لطائف الأسرار ، لابن عربى ، تحقيق الأستاذين أحمد زكى عطيه وطه سرور ، ط . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

اللمع فى التصوف ، لأبى نصر السراج الطوسى ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

(م)

مجمع الزوائد ، لعلى بن أبى بكر الهيثمى ، ط. القدسى، القاهرة ، ١٣٥٢-١٣٥٣.

مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه ، ط. ليدن ، ١٣٠٢ .

مجموعة الرسائل والمسائل ، لابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا ، ط المنار ، القاهرة ، ١٣٤١ .

مجموعة الرسائل المنيرية ، ط . المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٣ - ١٣٤٦ .

مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ، لابن تيمية ، ط . الرياض .

مجموعة الفتاوى الكبرى ، لابن تيمية ، ط . الكردى ، ١٣٢٩ .

المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ، لابن بدران ، ط . المنيرية ، القاهرة .

مرآة الجنان ، لليافعى ، ط . حيدرآباد ، ١٣٣٧ .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لعلى بن الحسين بن على المسعودى ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة ، ط. التجارية ، القاهرة ، ١٣٧٧/١٩٥٨ .

المستدرك ، لأبى عبد الله محمد عبد الله ، الحاكم النيسابورى ، ط . حيدرآباد ، ١٣٣٤ - ١٣٤٢ .

المسند ، لأحمد بن حنبل ، ط. الحلبى ، القاهرة ، ١٣١٣ .

المسند ، لأحمد بن حنبل ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر ، ط. المعارف ، القاهرة ، ١٣٦٥ - ١٣٧٤ / ١٩٤٦ - ١٩٥٥ .

مشكاة المصابيح ، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزى ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى ، ط . دمشق ، ١٣٨٠ / ١٩٦١ .

المضنون به على غير أهله ، للغزالى - انظر : القصور العوالى .

معانى القرآن ، للفراء ، ط . دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٧٤ / ١٩٥٥ .

المعتبر فى الحكمة ، لأبى البركات هبة الله بن ملكا ، ط. حيدرآباد ، ١٣٥٧ .

معجم البلدان ، لياقوت .

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، لعبد الله بن عبد العزيز البكرى ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، القاهرة ، ١٣٦٤ / ١٩٥٩ .

المعجم الوسيط ، ط . مجمع اللغة العربية .

مفتاح كنوز السنة ، وضع فنسنك ، ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى .

المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى ، تحقيق عبد الله محمد الصديق ، نشر الخانجى ، القاهرة ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبى الحسن الأشعرى ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٣٦٩ / ١٩٥٠ .

الملل والنحل ، لمحمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى ، تحقيق الشيخ محمد ابن فتح الله بدران ، الطبعة الثانية ، نشر الأنجلو ، القاهرة ، ١٣٧٥ / ١٩٥٦ .

مناقب ابن عربى ، لابراهيم بن عبد الله القارىء ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، ط. بيروت ، ١٩٥٩ .

مناقب الإمام أحمد بن حنبل ، لابن الجوزى ، ط. الخانجى ، القاهرة ، ١٣٤٩ .

المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، لابن الجوزى ، ط. حيدرآباد ، ١٣٥٧ .

منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية ، لابن تيمية ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، ١٣٨٢ - ١٣٨٤ / ١٩٦٢ - ١٩٦٤ .

منهاج السنة ، لابن تيمية ، ط. بولاق ، القاهرة ، ١٣٢١ - ١٣٢٢ .

موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، لابن تيمية ، الجزء الرابع ، نسخة خطية بالمكتبة التيمورية (رقم ١٨٢ عقائد) .

الموضوعات ، لعلى القارى ، ط. استانبول ، بدون تاريخ .

الموطأ ، لمالك بن أنس ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ط. عيسى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٧٠ / ١٩٥١ .

المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل ، لابن المرتضى ، تحقيق توماس أرنولد ، ط. حيدر آباد ، ١٣١٦ .

ميزان الاعتدال ، للذهبى ، ط. مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٢٥ .

(ن)

النجاة ، لابن سينا ، ط . محى الدين الكردى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٥٧ / ١٩٣٨ .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، لأحمد بن محمد المقرى ، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ط. التجارية ، القاهرة ، ١٣٦٧ / ١٩٤٩ .

نكت الهميان فى نكت العميان ، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، تحقيق الأستاذ أحمد زكى ، مطبعة الجمالية ، القاهرة ، ١٣٢٩ / ١٩١١ .

نهاية الإقدام فى علم الكلام ، للشهرستانى ، تحقيق ألفرد جيوم ، لندن ، ١٩٣٤ .

النهاية فى غريب الحديث ، لمجد الدين المبارك بن محمد بن محمد ، ابن الأثير الجزرى ، ط. المطبعة العثمانية ، ١٣١١ .

نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، للشوكانى ، ط. المنيرية ، القاهرة ، ١٣٤٤ .

(و)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٣٦٧ / ١٩٤٨ .

* * *

Tritton (A. S.) : Muslim Theology, Luzac, London, 1947,

فهرس التصويبات والاستدراكات

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٣	السطر الأخير	فهو سبحانه يدعوهم إلى	فهو سبحانه
١٠٦	١٥	إضافة للهامش (١)	ولعل الصواب : الإلٰه
١١٥	٨	محجوب	محجوب (٢)
١١٥	١٨		أضف بعد تعليق رقم ١ تعليق (٢) (٢) لعل الصواب : محبوب
١١٨	١	بالتحميد	بالتحميد (١)
١١٨	٣	وأتوب إليك » (١)	وأتوب إليك » (٢)
١١٨	١٠	وسلم (٢)	وسلم (٣)
١١٨	١١		أضف تعليق رقم (١) بالتحميد : كذا ولعل الصواب بالتنزيه أو بالتسبيح .
١١٨		تعليق (١)	تعليق (٢)
١١٨		تعليق (٢)	تعليق (٣)
١٥٨	٧	يضاف	يضاف إليه
١٧٨	٢٢	وأبى داود	وأبو داود
١٨١	٢٨	وابنه الحسن	وابنه أبى الحسن
١٩٧	٢٢	الفتن ١٧٤/٨ – ١٧٥	الفتن ١٧٥/٨ – ١٧٦
٢٠٣	٩	وإسلامه ؟ وما يجب	وإسلامه ؟ أو هل يوجد فى القرآن أو السنة أو القياس دليل على إيمانه أو إسلامه ؟ وما يجب
٢٠٤	٢٠	(٢) فى الأصل : وأنها عبد بحق . وانظر	(٢) وانظر
٢٠٩	٧	ألا يصدق	ألا يصدقه
٢١١	٢٠	إضافة للهامش رقم (١)	وقد يكون الصواب : ما ذكره .
٢٣٣	١	يا نغايا العرب ! يا بغايا العرب !	ذكر لى الشيخ ناصر الدين الألبانى أن صوابه : « يا نعايا العرب ! ... » وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير فى « النهاية » ، والزمخشرى فى « الفائق » وقال : والمعنى يا نعايا العرجن فهذا وقتكن وزمانكن ، يريد أن العرب قد هلكت .
٢٣٣	٢٢	عبد الله زيد	عبد الله بن زيد
٢٣٩	٢٥	٢٠٥/٤	١٩٨/٤ ، ٢٠٥
٣٥٨	٧	١٣٦ – ١٣٧	١٧٠ – ١٧١

فهرس الموضوعات

الرسـائل

٧ ـ رسالة فى تحقيق الشكر . . . ١٠١ ـ ١١٨

الفهارس ٢٩١ — ٣٨٨

للدكتور محمد رشاد سالم

المؤلفات

١ – المدخل إلى الثقافة الإسلامية الطبعة السادسة دار القلم الكويت ١٩٨٤/١٤٠٤
٢ – مقارنة بين الغزالي وابن تيمية دار القلم الكويت ١٩٧٥/١٣٩٥

فى مجال التحقيق

١ – منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية
الجزء الأول ، ط . دار العروبة ، القاهرة ١٩٦٢/١٣٨٢
٢ – الجزء الثانى ، ط . دار العروبة ، القاهرة ، ١٩٦٤/١٣٨٤
٣ – جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الأولى ، ط . المدنى ، ١٩٦٩/١٣٨٩
٤ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠/١٣٩٠
٥ – كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الأول ، ط . حنيفة ، الرياض ، ١٩٧٦/١٩٣٦
٦ – درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١١ جزءاً ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ، السعودية ، ١٩٧٩/١٣٩٩ – ١٩٨٣/١٤٠٣
٧ – مسألة فيما إذا كان فى العبد محبة لابن تيمية ضمن كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ط . المدنى ، القاهرة ١٩٨٢/١٤٠٣
٨ – الاستقامة لابن تيمية جزءان : ط . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٣/١٤٠٤
٩ – جامع الرسائل لابن تيمية المجموعة الثانية ، ط . المدنى ، ١٩٨٤/١٤٠٥

تحت الطبع

١ – منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية لابن تيمية ، ٩ أجزاء ، ط . مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، السعودية
٢ – كتاب الصفدية لابن تيمية ، الجزء الثانى ، ط . الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء والارشاد ، الرياض ، السعودية